

مركز دراسات الوحدة العربية

الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري (٤)

دراسات
في العصور العباسية المتأخرة

الدكتور عبد العزيز الدوري

دراسات
في العصور العباسية المتأخرة

كلمة شكر

يشكر مركز دراسات الوحدة العربية
مؤسسة عبد الحميد شومان
على المساهمة في تمويل جزء من نفقات طبع وإصدار
الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري





الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري (٤)

دراسات
في العصور العباسية المتأخرة

الدكتور عبد العزيز الدوري

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الدوري، عبد العزيز

دراسات في العصور العباسية المتأخرة / عبد العزيز الدوري.
٢٣١ ص. ـ (الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري؛ ٤)
ببليوغرافية: ص ٢١١-٢١٩.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-82-361-4
١. التاريخ الإسلامي ـ العصر العباسي. ٢. العباسيون. ٣. الفرق الإسلامية.
أ. العنوان. ب. السلسلة.
956.01

العنوان بالإنكليزية

Studies on the Late Abbasid Era

by Abdul Aziz Duri

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت ـ فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى عن المركز: بيروت، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٧
الطبعة الثانية عن المركز: بيروت، كانون الثاني/ يناير ٢٠١١

«إذاً الشكوك هي الموصلة إلى الحق.
فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر،
ومن لم يبصر، بقي في العمى والضلال»

الغزالي



المحتويـــــــات



مقدمـــــــة

لعل أهم مزايا دراسة التاريخ تنمية ملكة النقد وتوسيع أفق التفكير من جهة، وملاحظة عوامل التقدم والتدهور في المجتمعات ومواطن القوة والضعف فيها ومعرفة نفسية الأمة وأثرها على تطورها من جهة أخرى.

وليس التاريخ توقيت الحوادث أو دراسة الشخصيات، بل هو موضوع حي يصور لنا حياة الأمة وتدرجها، والحياة متعددة النواحي متشعبة؛ ولذا فعلى المؤرخ دراسة المجتمع من مختلف نواحيه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، وتحليل تركيبه الإثنولوجي، وبيئته الطبيعية وحتى أساطيره وخرافاته، وأن يدرس هذه النواحي بعضها على ضوء بعض، مشتبكة، مؤثرة، متأثرة.

ولا تكفي دراسة جزء من المجتمع من دون جزء، لأن أجزاءه قد تكون متلائمة متكاتفة تسير في اتجاه واحد، أو متنافرة متضاربة، وبذلك تتعدد فيه التيارات وتتصادم القوى فيتبع ذلك تطورات بعيدة المدى. ولا يمكن فهم المجتمع في كلا الحالين ما لم يدرس وحدة كاملة. فمن يستطيع معرفة المجتمع البغدادي في العصر البويهي مثلاً إذا أهمل دراسة العيارين والشطار أو أغفل الحديث عن الحياة في محلة الكرخ أو باب البصرة! وفهم الحركة العلمية في العصر العباسي الأول مثلاً يكون ناقصاً إذا اقتصرنا بحثنا على حركة الترجمة التي شجعها الخلفاء، ولم نبحث في الشعوبية وأثرها في الترجمة عن الفارسية (لإحياء مجد الفرس) وتنقيبها في أنساب العرب وتاريخهم والدس عليهم للتشهير بهم، وكذلك النضال الثقافي بين الإسلام وبقية الأديان، ذلك النضال الذي أدى إلى تطور علم الكلام وحث المسلمين على دراسة الأديان الأخرى، وإلى انتشار كتب المانوية والزنادقة ودعاياتهم. ولن نفهم الفلسفة الإسلامية ما لم نفهم التصادم بين الدين والفلسفة. وموسوعة **رسائل إخوان الصفا** لا تفهم ما لم تدرس على ضوء النضال الاجتماعي بين الطبقات وسعي المفكرين إلى قلب النظام الاجتماعي القائم بتعميم الفلسفة والمعرفة.

ولا نفهم تاريخ الأمة بدراسة الحوادث وحدها، فما هي إلا مظاهر لعوامل وتيارات وأوضاع بعضها خفي مستور وبعضها بيّن ظاهر، فكم من حركة جاءت باسم الدين، وما الدين إلا ستار أخفت وراءه أغراضها الحقيقية، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية؛ فحركة الإسماعيلية والقرامطة مثلاً لا تفهم إذا اعتبرت دينية؛ إذ إن أصولها نمت من الوضع الاجتماعي السياسي السائد، وأهدافها اقتصادية اجتماعية بالدرجة الأولى. وكم من زعيم ظهر وقام بأعمال جليلة وما ذلك إلا لفهمه ظروف مجتمعه والاستفادة منه استفادة حسنة، وخير مثل لذلك حمدان قرمط الذي أخذ القرامطة اسمهم منه. ومن يدرس الحركات الناجحة يجد براجها صدى للشكوى والتذمر السائدين، ووعداً بإجابتها كما يتضح من دراسة حركة الخرمية وثورة الزنج.

ومن نواحي الضعف الحتمية في بحث التاريخ، تقسيمه إلى فترات ودراسة كل فترة على حدة كأنها شيء قائم بذاته، والتاريخ مرآة من هذا التقسيم. نعم، قد تحدث تبدلات سياسية سريعة كحدوث غزو أجنبي أو سقوط عائلة حاكمة وقيام أخرى محلها، ولكن ذلك لا يعني مجيء عصر جديد؛ فمع أهمية التبدل السياسي، علينا أن نتذكر عوامل أخرى مهمة أيضاً من شأنها أن تسبب استمرار الحياة وبطء التبدل كالعوامل الجغرافية (اقتصادية وطبيعية)، والتركيب الإثنولوجي للسكان، ورسوخ المؤسسات الثقافية، وبطء التبدل الاجتماعي، ونفسية الأمة التي تكونت بمرور الأجيال؛ فالناظر إلى الهلال الخصيب بعد الفتح الإسلامي يلحظ مجيء عنصر جديد، وبوادر اتجاهات جديدة، ولكنه يرى أن أسس الإدارة المحلية، ومعيشة السكان بقيت مدة طويلة وإلى حد كبير على ما كانت عليه. ومجيء العباسيين لم يحدث تبدلاً فجائياً في الوضع الذي خلّفه الأمويون.

وإذاً، فالمجتمع يسير في تياراته، وهو دائماً في طور انتقال وتبدل، يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأوقات والظروف؛ فالتبدلات التي حصلت في الهلال الخصيب في العصر الثاني مثلاً، لا تقارن من حيث اتساعها وسرعتها بالتبدلات التي تلت الفتح الإسلامي أو الحرب العالمية الماضية. ولكننا نقول إنه لا تبدل فجائياً، ولا انقطاع في سلسلة التطور.

والآن أشير إلى اتجاه شائع، وهو أن الباحثين يحاولون تلمس أسباب سقوط الدولة بدراسة دور ضعفها، وفي ذلك ضعف كبير؛ فنقاط الضعف الأساسية كانت في الدولة منذ تأسيسها، إلا أن نواحي القوة توقف تأثيرها، وما أن تضعف هذه النواحي حتى تستفحل تلك وتلعب دورها المنتظر.

● ولنأخذ الدولة الأموية مثلاً لتوضيح رأينا.

فالأمويون ـ في رأي جانب كبير من الأمة ـ مغتصبون للحكم وكان انتصارهم ـ في رأي بعض العرب ـ انتصاراً لقريش على بقية العرب، وانتصاراً لدمشق على الكوفة. فناوأتها الأحزاب السياسية من شيعة وخوارج، فكان العراق مركز الشيعة، والجزيرة (شمال العراق حيث الوضع يساعد على تجول القبائل) مركزاً قوياً للخوارج، وانتصار الأمويين فيه انتصار للنزعات والتقاليد العربية من بينها العصبية القبلية وما يتبع ذلك من خصومات قبلية وتنافس على النفوذ وعدم إدراك لأهمية الحكم المركزي أو الخضوع له. ويتبع ذلك شيء مهم وهو أن التقاليد القبلية لا تعترف بنظام الوراثة المطلقة في الحكم، وكل ما تذهب إليه هو إعطاء السلطة لأصلح أفراد العائلة المالكة. فنتج عن ذلك مشكلة العهد، وكان تاريخ الأمويين فترة نزاع صامت بين مبدأ الوراثة المطلقة، وبين المبدأ القبيلي الذي انتصر بمجيء مروان بن الحكم ومروان الثاني إلى الحكم مثلاً. ومن أهم تلك التقاليد، احتقار غير العرب في الحياة الاجتماعية واستغلالهم مالياً، فأدى ذلك إلى نمو عداء كامن بين الحاكم والمحكوم وإلى محاولة الشعوب المحكومة استرداد حريتها فكان لذلك أبلغ الأثر في سقوط الأمويين. ثم إن نقل مراكز العرب من الجزيرة إلى خارجها جعل هؤلاء أقلية بالنسبة إلى الشعوب المحيطة بهم فكان ذلك يتطلب أن يبقوا أمة عسكرية في مدن محصنة. ولكن ذلك يغاير سُنَّة التطور (بعد أن تكدست الأموال بيد العرب وبعد أن اختلطوا بمن حولهم من الأعاجم) التي لعبت دوراً مهماً في زيادة الأعاجم اجتماعياً وثقافياً وبالأخير سياسياً. وكم نظلم العباسيين في قولنا إنهم سلطوا الأعاجم، ناسين أن ذلك التسلط بدأ في أيام الأمويين الذين حاولوا إيقافه من دون جدوى.

كل هذه البذور الهدامة كانت كامنة في كيان الدولة الأموية، واكتسبت قوة على مرور الأيام وساعدها على ذلك ضعف بعض الخلفاء المتأخرين وقصر نظرهم، فأودت بالأسرة الأموية إلى الدمار.

هذه أشتات من الملاحظات، شعرنا بضرورة تسجيلها. ولنختم ملاحظاتنا قائلين إن التاريخ الإسلامي يكوّن سلسلة متصلة، فيها علامات تساعد الباحث وتلك هي التبدلات السياسية.

● ولنأتِ الآن إلى العباسيين:

فقد تناولنا في هذا الكتاب صفحات من تاريخهم ـ في أدوار ضعفهم السياسي ـ بشكل موجز دفعنا إلى نشره ضآلة ما كتب في العربية عنها، فضلاً عن ارتباكه. وقد جزّأنا البحث إلى مواضيع منفردة ولكننا نشعر بضرورة إعطاء نظرة شاملة لتوضيح

مجرى التطور في هذه الفترة الطويلة (٢٢٧هـ ـ ٤٤٧هـ) لنبيّن أن وراء حوادثها المشتتة سلسلة مترابطة من الاتجاهات والتيارات. وللنظرات الشاملة أهمية خاصة في الدراسات الحديثة في التاريخ.

فلنرجع إذاً إلى العهد العباسي الأول[1] لاستعراض بعض النقاط الحيوية وربط التطور بفترتنا.

قامت الدولة العباسية على أثر دعاية سرية اتخذت من حق بني هاشم الشرعي في الخلافة صيحتها السياسية، ومساواتهم بالعرب برنامجها الاجتماعي، ووعدت باتخاذ الكتاب والسُنَّة والعدل قانوناً بين المسلمين.

وأثارت الدعوة العباسية قوى كانت كامنة مكبوتة: استغلت تذمر الإيرانيين، وقوَّت فيهم الميل للوصول إلى الحكم ولإحياء مجدهم التالد، وفسحت المجال لظهور بعض التيارات الاجتماعية الكامنة وخاصة مبادىء الغلو ومذهب الخرمية الذي تسلل من حركة مزدك، تلك الحركة التي كانت تمثّل صرخة جماهير الإيرانيين ضد النظام الطبقي القائم السائد منذ العصر الساساني، والذي لم يغيره الإسلام، وكانت الدعوة تأمل من ذلك جلب ود الإيرانيين وتأييدهم.

واستهدف العباسيون (متعظين بما أصاب الأمويين من دمار) خلق جو من التفاهم والتعاون بين العرب والموالي ـ ولا سيما الفرس ـ معتقدين بأن الاستقرار لن يتم إلا بتعاون مختلف عناصر الدولة.

فهل حقق العباسيون وعودهم وآمالهم؟

إن دراسة العصر العباسي الأول تنفي ذلك. ولعل فشل العباسيين نتج من خطأ في تقديرهم لحقيقة الأوضاع، وعدم استقامة سياستهم، والتيارات التي أثاروها، ومن طموح الإيرانيين أنفسهم.

فهم وعدوا بالسير على الكتاب والسُنَّة ولكنهم لم يفوا بوعدهم وإنما استفادوا من الدين لتقوية حكمهم المطلق وتبريره، ولتخدير أو محو الرأي العام، فخاب أمل الآملين فيهم في هذا الحقل.

وادعوا بحق الهاشميين الشرعي في الحكم ولكنهم استأثروا به ونكّلوا بأبناء

(١) انظر: عبد العزيز الدوري، **العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي** (بغداد: [د. ن.]، ١٩٤٥). وقد صدرت الطبعة الأولى عن مركز دراسات الوحدة العربية عام ٢٠٠٦ ضمن سلسلة الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري؛ (٣).

عمهم العلويين وضيقوا الخناق عليهم فأدى ذلك إلى ثورات مستمرة قام بها هؤلاء، ثم أدى إلى دعوة سرية خطرة في الحركة الإسماعيلية.

وأشرك العباسيون أرستقراطية الفرس في الحكم، ولكن طموح هؤلاء ورغبة بعضهم في إرجاع سلطان إيران ومجدها، ثم حرص العباسيين على سلطانهم، كل ذلك جرّ إلى التنكيل بزعماء الفرس ووزرائهم وأدى إلى سوء العلاقة بين العباسيين وبين الأرستقراطية الإيرانية.

وتضمن تقريب هذه الأرستقراطية، إبقاء الوضع الطبقي في إيران على ما كان عليه، فلم يعمل العباسيون ما يذكر لتخفيف الضغط الاقتصادي والاجتماعي على جماهير الإيرانيين، فلم يرضخ هؤلاء لوضعهم، ووضعوا المسؤولية على العباسيين، فأخذت المبادىء الخرمية تنتشر بينهم حتى صارت رمز وعي الأمة الإيرانية في كفاحها للتخلص من حكم العباسيين.

ولما فشلت الأرستقراطية الفارسية في التعاون مع العباسيين حاولت ـ لدوافع سياسية ـ أن تتعاون مع الجماهير ضد الحكم العباسي، فنشأت الإمارات الإيرانية الأولى.

ولم ينجح العباسيون في تكوين جو من التفاهم والتعاون بين العرب والفرس؛ فالعرب صعب عليهم تقريب الفرس، والفرس صاروا يطمحون إلى إحياء مجدهم. فكان كل من الفريقين يحقد على الآخر ويسعى إلى إضعافه، وظهر ذلك في حركة الشعوبية التي استهدفت تصغير شأن العرب ووصمهم بكل رذيلة، وظهر في حركة الزندقة التي أرادت نقض سلطان العرب وكيانهم بضرب سر مجدهم وهو دينهم، وظهر في البلاط والسياسة حيث حصل تكتل من الجانبين (العرب والفرس) للاستئثار بالسلطان: بدأ ذلك في زمن البرامكة وفي البيعة للأمين والمأمون واستفحل في النزاع بين الاخوين.

فهل نستغرب، بعد أن عرفنا استمرار ثورات الجماهير الإيرانية وطموحهم القومي ودسائس أرستقراطيتهم، إخفاق العباسيين في تعاونهم مع الفرس؟

وجاء المعتصم فوجد نفسه في وضع حرج؛ فقد خيب المأمون أمل الخراسانيين من جديد، بنكبته بني سهل وبتركه لمرو ورجوعه إلى بغداد وهدم آخر حجر في صرح التعاون العباسي ـ الإيراني. والعرب في وضع مضعضع لمقتل الأمين. وزاد الطين بِلّة التفاف قسم كبير من جندهم حول العباس بن المأمون ضد المعتصم، فنكّل بزعمائهم وأساء الظن بهم. وكانت الدولة مهددة بثورة بابك المستفحلة وبخطر البيزنطيين على الحدود وبتذمر أهل الشام ومصر، فكان بحاجة إلى عنصر عسكري

جديد يسند سلطانه، فالتجأ إلى عنصر بدأ يتوارد كرقيق إلى البلاد الإسلامية قبله، كما أخذ الإسلام ينتشر في بلاده بصورة بطيئة وذلك هو عنصر الترك.

وكانت خطوة المعتصم هذه بعيدة المدى بنتائجها؛ فالترك آنئذٍ شعب بدوي ميزته الوحيدة شجاعته العسكرية، فهو لا يفهم الأسس المعنوية للدولة العباسية، ولا خبرة له بالإدارة، ومجرد من كل ثقافة.

فلا غرابة إن كان تقديم الترك عاملاً مهماً في زعزعة قواعد الخلافة العباسية؛ إذاً سرعان ما استفحل نفوذهم بعد نقل مركز الخلافة من معقله الحصين وموطن أنصاره (بغداد) إلى سامراء التي بنيت معسكراً للترك وساعدتهم الظروف على التلاعب بمقدرات الخلافة.

فالواثق (ذلك النكرة في السياسة والإدارة) لم يقم بفعاليات عسكرية تذكر. فكان حكمه فترة ركود جعل الترك يشعرون بأهميتهم ويتدخلون في السياسة. وبدل أن يقف الخليفة ضد هذا الاتجاه ويقتصر فعاليتهم على النواحي العسكرية (كما كان الوضع زمن المعتصم) نراه يسهل الطريق له بتعيينهم في الإدارة. فاتسع مدى نفوذهم. ولعل ضعفه وقلة إدراكه مسؤولان عن خطأة خطيرة وهي عدم تعيينه ولي عهد بعده، ففتح للترك باب التدخل في آخر مراحل السلطة وهي اختيار الخليفة. فلم يترددوا في استغلال الفرصة بل كانت لهم اليد الطولى في انتخاب المتوكل فكانت هذه سابقة جرّت الويلات على العباسيين.

والآن بدأت فترة نزاع بين الخلفاء والترك ـ خفي حيناً وعلني أحياناً ـ ما استمرت إلا فترة قصيرة، حتى الفتح البويهي، كان فيها نفوذ الترك من أهم مشاكل الخلافة.

فقد وجد المتوكل الترك مسيطرين على الإدارة والسياسة، فحاول صد تيارهم بمختلف الأساليب كالتقرب من العامة وتقريب العرب والسعي إلى تفريق صفوف الأتراك، ومحاولة نقل العاصمة إلى دمشق أو إلى الماحوزة (شمال سامراء)، ولكنه أخفق في مسعاه لأنهم رغم انقسامهم على أنفسهم كانوا يشعرون بالمصلحة المشتركة، وساعدهم تخليط الخليفة في أمر العهد وانقسام العائلة المالكة على نفسها فاستغلوا ذلك لقتل خصمهم والتخلص منه. وتلا ذلك فترة فوضى مريعة، ولكنها نتيجة حتمية لهيمنة الترك بعد انتصارهم على الخليفة نفسه. وقد دامت تلك الفترة تسع سنوات حكم فيها أربعة خلفاء، وهي جديرة بالتحليل لتوضيح التطورات التي تلتها.

والحق أن فترة التسع سنوات (٢٤٧هـ ـ ٢٥٦هـ) كانت فترة محنة للدولة العباسية اختبرت فيها قوتها الكامنة ودرجة رسوخها ومدى مرونتها فخرجت منها بنصر موقت بعد جراح وتقطيع أوصال. ويرجع ذلك إلى عوامل قوية أهمها تأصل حكم

العباسيين وقدسية الخلافة في نظر الجمهور الذي كثيراً ما وقف مناضلاً بجانب الخلفاء ضد الترك. وهذه الحرمة هي سر بقاء البيت العباسي في الحكم وعدم تفكير الأتراك في نقله إلى بيت آخر.

وهناك أوضاع وتيارات ودعايات ظهرت في هذه الفترة. أوضحها استبداد الترك بالسلطة وتعيينهم الخلفاء مسوقين بدوافع أطماعهم الخاصة وحبهم للسيطرة لا على ضوء مبدأ أو مثل، ولذلك اختاروا من توسموا فيهم الخضوع والانقياد لرغباتهم. ومتى لاحظوا من الخليفة تصلباً هاجموه من موطن ضعفه وهو إفلاس الخزينة فيطالبون بالأرزاق ويتخذون ذلك ذريعة للفتك به. وكانوا أحياناً يحدثون الشقاق والتنافس بين أفراد الأسرة المالكة ليسحقوا الخليفة وليولّوا من يريدون.

وتجاه تيار الترك وقفت جرأة الخلفاء ونضالهم لاسترجاع سلطانهم المفقود؛ فمن الخطأ أن ننسى أهمية هذه النقطة أو أن نتصور أن انتعاش الخلافة بعد هذه الفترة كان فجائياً أو بنتيجة جهود الموفق والمعتضد وحدهما؛ إذ كان للمعتز والمهتدي من خلفاء هذه الفترة أثر مشكور في إرجاع قوة الخلافة. وقد سار الخلفاء في كفاحهم على مبادىء واحدة. فقد لاحظوا (ولا سيما المعتز والمهتدي) جشع الترك وأنانيتهم وما يتبع ذلك من تنافس فحاولوا تقسيم الجيش على نفسه بتحريك المغاربة والفراعنة ضد الترك المستبدين، أو بتحريض الجيل الجديد من الترك (أبناء الترك) ضد الجيل المتنفذ وبإثارة الزعماء ضد بعضهم. وكانوا أحياناً يلجأون إلى الاستعانة بالعوام ضد الجيش كما فعل المهتدي. ولا شك أن التنافس بين فرق الجيش وأنانية أفراده كان سبباً في إنهاكه وعاملاً ساعد على تقوية نفوذ الخليفة في نهاية هذه الفترة.

ونتج عن استبداد الترك واستئثارهم بأموال الجباية، فراغ الخزينة حتى صارت تشكو الإفلاس المزمن، وقد حاول الخلفاء كالمهتدي سد هذا العجز والاقتصاد في النفقة، ولكنهم فشلوا أمام فوضى الترك وطمعهم بالمال.

كما إننا نحس بخط آخر وهو تعاظم نفوذ الحرم في البلاط وتدخله في السياسة؛ فهذه أُمّ المستعين تجمع الأموال الطائلة وتنسج لها بساطاً واحداً كلّفها (كما يقال) مئة وثلاثين مليون درهم. وتلك أمّ المعتز تشارك زعماء الترك في نهب موارد الخزينة والتمتع بها في حين كان ابنها يشكو الإفلاس، ويذهب بها جهلها إلى أن تنكر الأموال عليه في ساعته الحرجة فيذهب ضحية طمع الترك. وهكذا أجمع الترك والحرم على تدمير الخزينة.

وأثمرت الفوضى في المركز ثماراً مُرّة للدولة العباسية؛ فإنها سهلت الطريق للمتذمرين والطامحين للقيام ضد بني العباس. فانفصلت الولايات البعيدة إما بنتيجة حركات شعبية ـ كقيام الصفّارين في سجستان ـ أو طموح بعض الولاة كالطاهريين

والسامانيين في خراسان وما وراء النهر. ومما ساعد على الانفصال أن زعماء الترك كانوا عند توليتهم على المقاطعات لا يريدون ترك العاصمة، فيرسلون نواباً عنهم، وهذا الإهمال شجع أحد الطموحين من النواب، وهو أحمد بن طولون على الانفصال بمصر.

وانتهز العلويون فرصة ضعف المركز لتأكيد حقوقهم؛ فهم رغم الضربات العسكرية التي أصابتهم في العصر العباسي الأول، بقيت مبادئهم حية وازداد انتشارها على مر الأيام؛ إذ كانت قدسيتهم في نظر الجمهور تزداد بازدياد اضطهادهم. ولم يكن انقسامهم إلى ثلاث فرق كبرى (إمامية وزيدية وإسماعيلية) إلا عاملاً على زيادة نشاطهم؛ ففي هذه الفترة ذهب بعض الزيدية (الحسن الأطروش) إلى منطقة جرجان وطبرستان وبشّر فيها بالإسلام ونشر المذهب الزيدي. فكانت حركته هذه بدء زوبعة في جنوب بحر قزوين لم تلبث ـ بعد فترة تقل عن قرن ـ أن غمرت بغداد ذاتها وأخضعتها لسيوف البويهيين.

وانتشرت دعاية الإسماعيلية والقرامطة سراً بصورة واسعة في الشرق الإسلامي، ثم تلتها انفجارات عسكرية.

وأنتجت دعاية صاحب الزنج في أوساط العمال والفلاحين في جنوب العراق حركة كادت تمزق كيان الخلافة.

ولا يمكن تفسير انتشار هذه الحركات وخطورتها إلا بعد معرفة العلاقة بين المبادىء التي بشّرت بها وبين الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعات التي انتشرت بينهم؛ ففي طبرستان والديلم نجد بالإضافة إلى الروح القومية والعداء السياسي للعباسيين، نظاماً طبقياً يعطي الجاه والثروة لجمهرة من الشيوخ (الكذخداهية) ويضع العبء على الجماهير؛ فاتفق العلويون مع الجماهير ودافعوا عن مصالحهم، وبذلك أكسبوا حركتهم صفة شعبية فنجحوا في جهودهم.

وفي الشرق الأدنى كان في نظام الضرائب من العسف في الجباية والزيادة في الضرائب وسوء المعاملة ما كان دافعاً هاماً لكثير من الثورات في العصر العباسي الأول. ثم تدهور الوضع المالي من جهة وتعقد من جهة أخرى في العصر الثاني. فالفوضى الإدارية التي عمّت في فترة التسع سنوات أدت إلى تدهور نظام الري وإلى الزيادة في ظلم الجباة والملاكين للفلاحين وإلى انتشار الفقر والتذمر العام. ثم إن ظلم الجباة دفع الملاكين الصغار إلى إلجاء ضياعهم إلى الشخصيات الكبيرة فأدى ذلك بمرور الزمن إلى توسع وانتشار الملكيات الفردية الكبيرة على حساب الزراع الصغار ثم إلى زيادة المتذمرين. ومن جهة أخرى، حدثت تطورات اقتصادية هامة في المجتمع

بتوسيع التجارة. ومن المفيد هنا أن نرجع إلى الوراء لتستعرض بإيجاز خطوات تطور المجتمع الإسلامي من الناحية المادية.

فالعرب الذين تركوا الجزيرة إلى الهلال الخصيب وما جاوره فاتحين ومهاجرين، مروا بأدوار انتقال اقتصادي أهمها:

ـ دور البداوة والسكنى في معسكرات منفصلة. إذ كان جل الفاتحين من البدو الرعاة، فكان من المحتم أن يكون طراز معيشتهم استمراراً للحياة التي ألفوها في الجزيرة. وما قوّى هذا الاتجاه أن الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) أراد أن يكون العرب أمة عسكرية تجاهد لإعلاء شأن الإسلام. ولاحظ قلة عددهم بالنسبة إلى الأمم المغلوبة فنظمهم في معسكرات أو مدن عسكرية خاصة ولم يشجعهم على الزراعة، بل فرض الأرزاق لهم ولعوائلهم. والناظر إلى المدن الإسلامية الأولى ـ عند نشأتها ـ كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان يجدها مجتمعات قبلية بنعراتها وتقاليدها وشكل حياتها. وبقي العرب، فترة من العصر الأموي، يحتقرون كل مهنة عدا مهنة الحرب، تاركين الصنائع اليدوية والزراعة اليدوية إلى الأعاجم الذين كانوا «يكنسون طرقهم ويخزرون خفافهم ويحوكون ثيابهم».

ولكن تبدل البيئة على العرب لعب دوره. فصلتهم بالأعاجم ـ وكانت تقوى على مرور الأيام ـ وكثرة دخول هؤلاء في الإسلام، وتجمع الثروة لديهم أدت إلى تسرب الترف والعادات والآراء الأجنبية ببطء أكيد إليهم. ورأوا في الأرض مصدر الثروة فمالوا إلى اقتناء الأراضي والضياع يستغلونها بتشغيل سكان البلاد المحليين في زرعها، وهكذا بدأ دور اقتصادي جديد وهو دور الإقطاع بدل دور الأرستقراطية العسكرية. ولكن السادة الإقطاعيين كان جلهم من الأمويين أو من القبائل الموالية. وظهر هذا الدور بجلاء في الربع الأول من القرن الثاني للهجرة. فكان خير مثلاً لذلك الخليفة هشام بن عبدالملك، أكبر ملاكي عصره، وخالد القسري، ومسلمة بن عبدالملك.

إلا أننا نشعر في الوقت نفسه بأن بعض العرب في الأمصار، كالعراق وخراسان ومصر، أخذوا يقتنون الأراضي ويشتغلون باستثمارها ويسكنون عليها. ثم قوي هذا الاتجاه بانتقال الحكم إلى العباسيين لعدة عوامل منها نكبة الأرستقراطية الأموية وإشراك الأعاجم في الحكم مما أضعف عنهجية العرب وقلل من شعورهم الأرستقراطي فأخذ بعضهم يشتغل بالمهن الحرة، ومنها زيادة الاختلاط بالفرس وتقدم المجتمع في الحضارة وضعف الروح البدوية الأصلية. فأدى هذا الاتجاه إلى دخول المجتمع في دور زراعي.

وكانت التجارة موجودة دائماً ولكنها تقتصر على عدد صغير. فلما أصبح العراق مركز الخلافة، وهو على ملتقى الطرق التجارية العالمية انتعشت حركة التجارة وتوسعت وساعد على ذلك ترف الخلفاء ومن يحيط بهم وتشجعيهم التجار، ووجود تقاليد وصلات تجارية قديمة لأهل الخليج الفارسي وعرب السواحل والفرس بمختلف أنحاء الشرق المتمدن كالهند والصين وأواسط آسيا وأفريقيا. وكانت أرباح التجار الطائلة اغراء كبيراً لاشتغال الناس بالتجارة. وتوسعت طبقة التجار باشتغال العرب بالتجارة واهتمامهم بها، وبنمو وتوسع مؤسسات الصِرافة. فانتقل المجتمع تدريجياً إلى طور تجاري صارت فيه التجارة ركناً من أهم أركان الحياة الاقتصادية بعد أن كانت ثانوية.

وبتوسيع التجارة ظهرت طبقة من أصحاب رؤوس الأموال الواسعة، أخذت تستثمر أموالها بتوسيع تجارتها أو باقتناء الأراضي، فأدى ذلك إلى زيادة انتشار الملكيات الكبيرة في الأرض. ونشأ عن تقدم الحضارة تحسن في أساليب الزراعة وميل إلى استغلال الأرض استغلالاً مركّزاً، مما استوجب زيادة الأيدي العاملة عليها. فلجأ بعض أصحاب الضياع الواسعة إلى استخدام العبيد استخداماً واسعاً في مزارعهم. وقد عُرف عن الزنج الصبر على العمل والقابلية للكدح، فنظم التجار الحملات لاصطيادهم أو لشرائهم من جهات شرق أفريقيا وأواسطها وجلبوا منهم الألوف. واستخدم الزنج في مختلف جهات العراق، ولا سيما على الأراضي السبخة المحيطة بالبصرة حيث حشد الألوف منهم. ولم تكن هذه الجماهير من الزنوج تفهم شيئاً ما عن البيئة الجديدة أو عن ثقافتها. فلا غرابة أن أدى تشغيلهم على هيئة جماعات كبيرة في محل واحد، وسوء وضعهم المعاشي وصعوبة عملهم إلى تذمر دفين انفجر في ثورة خطرة عندما وُجد مَنْ أثاره ووجّهه.

ولم تكن ثورة الزنج إلا ثورة طبقية محدودة الأفق، تستهدف تحرير الرقيق من الزنوج فقط، وهي تمثل لنا أول صرخة اجتماعية خطرة في العصر العباسي الثاني ضد النظام الاجتماعي الاقتصادي السائد. كما أنها تكشف لنا عن مدى فظاعة استغلال الرقيق بشكل يخالف مبادىء الإسلام ويمثل الجشع المادي المتطرف لأصحاب الأموال. ثم إن دراسة حوادث الثورة تظهر شدة حقد الزنوج على أسيادهم وحنقهم على المجتمع الإسلامي؛ إذ قاموا بفظائع ومنكرات لا يقدرها إلا من تصفح الطبري الذي يتحدث عن الثورة بإسهاب عجيب يدل على مدى خطورتها آنئذ. وقد انهارت بعد أن خربت مزارع قسم كبير من السواد ودمرت عدداً كبيراً من قراه ومدنه الهامة كالبصرة والأبلة، ولعل فشلها ناتج بالدرجة الأولى عن كثرة فظائعها وخلوها من برنامج اجتماعي شامل.

وكانت هناك في هذه الفترة نفسها، حركة أخرى ـ دينية بمظهرها، سياسية، اجتماعية، اقتصادية بأهدافها ـ بثّت دعايتها بتكتم وحكمة في العراق وهي حركة الإسماعيلية. ومع إن الباحثين المستشرقين وغير المستشرقين (مثل دي ساسي، ودي غويه، وكيارد، وبراون، وماسنيون، وإيفانوف، والهمداني، ولويس) وجّهوا عناية خاصة لدرسها إلا أن أبحاثهم تناولت المظهر الديني أو السياسي للحركة ولم تعن ببحث الأساس الاقتصادي لها، ولم تفحص مصدر مبادئهم فحصاً شافياً، ومع أني بحثت هذه النقاط في الفصل الخاص بالإسماعيلية والقرامطة، إلا أنني أراني في حاجة إلى إظهار الحركة على ضوء العصر الذي نشأت فيه وإدخالها ضمن الإطار الذي قصدنا إعطاءه في هذه المقدمة.

وأول ما يجلب الانتباه هو أن الحركة الإسماعيلية نبعت من الكوفة ولاقت في منطقتها أول نجاح عملي، وهذه نقطة لها أهميتها؛ فالكوفة كانت مجمعاً للثقافات والديانات القديمة ومركزاً مهماً من مراكز الغلو الذي استغله العباسيون في دعوتهم. والغلو نفسه لم يكن إلا ستاراً استخدمه الموالي في العصر الأموي لتحسين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي السيّئ كما ظهر في حركة المختار[٢]. ولكن الغلو أخذ ينتشر في هذه الفترة بين جماهير العرب وذلك لأن التعاون ووحدة المصالح بين الأرستقراطية العربية والفارسية، وانتقال المجتمع إلى الدور التجاري أدى إلى وقوع الجماهير من العرب والموالي في وضع معاشي واطىء وإلى انقسام المجتمع على أساس اقتصادي لا عنصري.

واستمر الغلو يحمل في ثناياه الثورة على النظام السائد. وقد تستر الغلاة باسم الشيعة ليتخذوا من حق العلويين في الخلافة صيحة شرعية ضد العباسيين، ووجد قسم منهم في إسماعيل بن جعفر الصادق وأحفاده أئمة يدعون إليهم.

ومع أن العباسيين استغلوا الغلاة وتعاونوا معهم في فترة الدعوة إلا أنهم بعد توصلهم إلى الحكم تنصلوا منهم من دون أن يتمكنوا من إيقاف قوتهم التي أثاروها، وسرعان ما توجهت تلك القوة ضدهم لأنهم أبقوا الوضع على ما كان عليه. فلا غرابة إنْ نشأت الحركة الإسماعيلية في خلافة أبي جعفر المنصور الذي اضطر إلى ضرب الغلاة علناً في تنكيله بالراوندية وبالخرمية.

لكن قوة خلفاء العصر الأول، اضطُرت الإسماعيلية إلى أن ينقلوا مركز دعوتهم

---

(٢) انظر: يوليوس فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، نقله إلى العربية يوسف العش (دمشق: مطبعة الجامعة السوريا، ١٩٥٦)، ص ٦٨.

إلى الأهواز، ثم إلى سلمية قرب حمص وإلى اختفاء أئمتهم. ولعل دعايتهم رجعت إلى سواد الكوفة بعد مقتل المتوكل، فجاءت في ظرف مناسب من كل النواحي، فاضطراب الخلافة أضعف الرقابة عليها. كما إن سوء الإدارة وما تبعه من ظلم جعل وضع الفلاحين الاقتصادي سيئاً، وزاد الطين بلة ثورة الزنج وما خلّفته من خراب. هذا، إضافة إلى أن منطقة الكوفة الخصبة كانت مزدحمة بالسكان، والتباين الطبقي فيها قوي لوجود عدد قليل من الملاكين يمتلكون الأراضي الواسعة، بينما حرم جمهور الفلاحين إلا من الجزء الزهيد مما ينتجون. لذا كان التذمر من الوضع شديداً. ومن ناحية ثقافية، كانت البيئة في منطقة الكوفة غريبة؛ فالأساطير والجهل وحتى بقايا من العقائد الوثنية كانت متفشية بين العوام. هذا، مع إنها لم تكن تخلو من مبادىء الغلو. ولا تنسَ انتشار الآراء الفلسفية اليونانية بين المثقفين، حتى أورثتهم حيرة وشكوكاً في كثير من معتقداتهم. فجاءت الدعوة عن طريق إصلاح الدين حيناً والاهتمام بالفلسفة حيناً آخر، وأكدت على الصلة الوثيقة بين الرفاه المادي وبين الدين الصحيح، واعتبرت النظام القائم مسؤولاً عن الفساد والفقر. ووجدت الحركة في العراق في شخص حمدان قرمط (من أهل السواد) زعيماً عملياً عبقرياً، كما وجدت في عبدان مفكراً قديراً وجّه مبادئها وألّف لها الكتب ووضع لها منهاجاً فكرياً يناسب بيئتها الجديدة.

ومع أن بذور الحركة الإسماعيلية ترجع إلى الغلو، فتشترك بذلك مع الخرمية في كثير من المبادىء وخاصة في الاتجاه الاقتصادي، إلا أنها كانت أكثر مرونة وأقدر على الاستفادة من الأوضاع والخبرات الجديدة. وهذا يعود إلى ـ حد كبير ـ إلى اختلاف مهد كل من الحركتين؛ فالخرمية حركة إيرانية ألقت تبعة الوضع السيّئ على العباسيين العرب وعلى دينهم الذي جلب إليهم السلطة، ومع أنها كانت لها برامج اقتصادية يسارية (تقف عند إعادة توزيع الأراضي على الفلاحين ومحو التباين الطبقي) إلا أنها جعلت هدفها العملي البارز التخلص من حكم العباسيين ومن دينهم وإرجاع مجد إيران والدين المجوسي بشكل ما. أما الإسماعيلية فمهدها العراق حيث توجد جماعات كبيرة من الأنباط والفرس والسريان إلى جانب العرب، وفيه جماهير من العرب تشكو من التباين الطبقي والظلم نفسيهما اللذين يشكو منهما هؤلاء الجماهير من الموالي، في حين كان فيه قسم من أرستقراطية الفرس والترك تتمتع بالنفوذ والثروة. ولهذا اكتسبت الحركة صفة اقتصادية أممية. ثم إن انتشار الفلسفة اليونانية، واطلاع زعماء الإسماعيلية على كافة الديانات والثقافات أبان لهم أن الضغط الاجتماعي حصل في المجتمعات غير الإسلامية كما حصل في المجتمع الإسلامي، ولذلك وجهوا هجماتهم ضد جميع الأديان ونسبوا قسماً كبيراً من مسؤولية الشقاء إلى الدين ذاته،

فشجعوا الفلسفة وحاربوا الأديان لا ليستبدلوها بدين رسمي آخر، بل ليتخلصوا منها. ولما كان المجتمع في العراق إسلامياً كان الهجوم بالدرجة الأولى على الإسلام. وإذا تذكرنا أن إلمام العوام بالدين لم يتجاوز المظاهر وأنهم لم يكونوا راضين عن حالتهم المعاشية، أدركنا سبب تأكيد القرامطة على الناحية المادية واستخدامهم الدين (بطريق التأويل وعلم الباطن) كوسيلة لضرب الدين[٣].

وهناك شيء آخر مهم، وهو أن ثقافة دعاة الإسماعيلية الواسعة، ونظرتهم العملية واهتمامهم بإصلاح الواقع في المجتمعات الإسلامية، دفعهم إلى تعديل مبادئهم لتناسب الوسط الذي يدعون فيه رغم كون الأسس والأهداف واحدة. وخير مثل لتوضيح ذلك، فحص تنظيمات القرامطة في كل من العراق والبحرين لنرى كيف أدى اختلاف الأوضاع في هذين البلدين إلى اختلاف التنظيمات.

فمن الناحية الإثنولوجية، كان سكان السواد مزيجاً من أجناس متعددة كما بيّنا، بينما كان عامة سكان البحرين عرباً بينهم أقلية من الفرس واليهود. ومن الناحية الاجتماعية الاقتصادية، كان عامة سكان السواد يشتغلون بالزراعة مع تباين كبير في مستوى المعيشة، بينما كان أكثر سكان البحرين بدواً رعاة، وبعضهم زراعٌ في منطقة الأحساء الخصبة بخاصة، وبينهم أقلية مهمة من التجار وأخرى من الصناع وأهل الحرف. ومن ناحية معنوية، لم تكن في السواد عصبية عنصرية، بينما كانت في البحرين نزعة عربية. ومن الناحية الثقافية، نجد بساطة في التفكير وعدم الميل إلى التعقيد في الدين في البحرين، يقابل ذلك الفوضى الفكرية والتعقيد مع الجهل في السواد. وأخيراً كانت فترة قرامطة العراق فترة عصيان مؤقّت ضد خلفاء أقوياء ولم تتجاوز مدتهم نصف القرن، بينما كوّنوا في البحرين مملكة مستقلة عاشت عدة قرون.

فإذا فهمنا هذا التباين فسنفهم الفروق في تنظيمات القرامطة في السواد والبحرين؛ ففي السواد ألغيت الملكية الفردية، وطبّقت اشتراكية تامة يعطى فيها لكل فرد حسب حاجته، بينما يكون مركزه الاجتماعي متناسباً مع خدماته. أما في البحرين فكانت التدابير الاقتصادية تنصف بنزعة يسارية قوية، ولكن ليست اشتراكية بالمعنى الصحيح، وذلك لعدم وجود التطور والتعقيد الاقتصادي الموجود في العراق من جهة، ولأن فعاليات سكان البحرين الاقتصادية كانت في حقول متباينة من زراعة وتجارة ورعي وصناعة، فأبقيت فيها الملكية الفردية، ولكن الحكومة قامت

---

(٣) الحديث هنا عن الإسماعيلية في دورها الأول، الثوري، وقبل أن تنشأ الدولة الفاطمية التي عدّلت الكثير من المبادىء الإسماعيلية وصارت فيها نزعة قوية للمحافظة.

بدور مصرف زراعي صناعي لتسليف الزراع والصناع الأموال عند الحاجة وتشجيعهم في أعمالهم، ومنع الربا لحماية الناس من جشع المرابين. واحتكرت الحكومة التجارة الخارجية وحاولت فتح الأسواق لها في الخارج لتنظيم أمر الصادر والوارد لفائدة الشعب والحكومة، وضربت نقوداً من الرصاص ـ لا تُقبل خارج البحرين ـ حتى تمنع (حسب النظرية المتبعة آنئذ) تسرب الثروة إلى الخارج. وأُنشئت طواحين مجانية لفائدة الشعب وللتخفيف من أعباء النساء، وخفضت الضرائب، وألغي الخراج في منطقة الأحساء للترفيه عن الزراع، وأُنشئت مزارع حكومية لتوفير الدخل للخزينة لتقوم الحكومة بخدماتها الاجتماعية. وصفوة القول إن الحكومة اتبعت سياسة من شأنها رفع مستوى المعيشة وتوفير الرخاء لكافة أقسام الشعب.

وبينما كان الحكم مطلقاً بين قرامطة السواد، كان شورياً في البحرين؛ فمع أن الحكم كان في البحرين وراثياً في عائلة أبي سعيد، إلا أنها وراثة مقيدة في رأي مجلس الشورى الأعلى المسمى بمجلس العقدانية. كما كان على الرئيس (ويسمى السيد) استشارة ذلك المجلس الذي يضم أبرز الشخصيات في القضايا السياسية والعسكرية والإدارية، وبذلك أصبح الحكم شورياً يناسب النزعة البدوية إلى الحرية.

وبينما كانت نزعة قرامطة السواد أُممية، كانت النزعة في البحرين عربية، فقال شاعرهم:

تولى نبي بني هاشم وهذا نبي بني يعرب

وختاماً نرجح أن التطرف في المبادىء في السواد كان أقوى منه في البحرين لرسوخ وكثرة التقاليد والأساطير الدينية في الأول بالنسبة إلى الثاني.

يتضح إذاً مما مر، أن المجتمع العباسي كان يصطخب بالتيارات الخفية، تلك التيارات التي ما أن خفّ الضغط الخارجي عنها، حتى انفجرت براكينها وكادت تمزق الخلافة العباسية وكل ما تمثل.

ولكن الخلافة أثبتت أنها كانت لا تزال تنطوي على حيوية قوية كامنة. فالأتراك الذين لم يكونوا مدفوعين بهدف معيّن (غير الأنانية)، أنهكهم التنافس في ما بينهم والنضال مع الخليفة. والأمراء المنفصلون كانوا يرون في رضى بغداد خير وسيلة لجعل حكمهم حكماً مشروعاً ويسعون إلى التفاهم معها وإرضائها. والبيت العباسي أخرج في الموفق (أخ المعتمد والمسيطر عليه) أميراً عبقرياً حازماً بحق المنصور الثاني.

تلت فترة (بين ٢٥٦هـ ـ ٢٥٩ هـ) من البعث السياسي والانتعاش العام، وذلك بنتيجة قوة الموفق والمعتضد وبُعد نظرهما وقابليتهما لإشغال الأتراك في المعارك

وضبطهم. فأُخمدت الثورات الداخلية التي قام بها الزنج والقرامطة، وأُعيد سلطان الخلافة على العراق والجزيرة وغرب إيران والشام ومصر. وانتعشت الماكنة الإدارية وعادت هيبة الوزراء وسيطرتهم على السياسة العامة. وبُذلت جهود لإصلاح نظام الري ولتشجيع الزراعة ولإصلاح نظام الجباية. وقُضي على فوضى الأعراب وأعيدت السكينة إلى البلاد، فذاقت بعض الرفاه، ووضع حد لأزمات الخزينة. ولعل رجوع المعتمد إلى بغداد كان دليلاً على تقلص نفوذ الترك وعنواناً للبعث الجديد. وظن الناس أن عصر الخلفاء الأول قد عاد.

ولكن نصف قرن كان كافياً ليُظهر أن الانتعاش لم يكن راسخ الأركان، وأنه كان نتيجة وقتية لجهود الموفق والمعتضد، وأن عناصر التفسخ كانت كامنة تنتظر الفرصة؛ فالترك خفت صوتهم ولكنهم بقوا عماد الجيش وعلى استعداد للتدخل في السياسة متى سنحت الفرصة. والمكتفي الذي خلف المعتضد (٢٨٩ هـ ـ ٢٩٥ هـ) أظهر في مرضه الأخير ضعفاً وأنانية مضرين؛ إذ إنه لم يرد أن تنتقل الخلافة إلى أبناء عمه، مع أن أخاه جعفر (المقتدر بعدئذ) كان طفلاً، فلم يبتّ في أمر العهد وبذلك تركه للوزراء والكتّاب، وكان هؤلاء في وضع مؤلم، فما أن رجع إليهم نفوذهم في هذ الفترة حتى أخذوا يتنافسون فيما بينهم، فكل وزير له عصبة تتمتع بالوظائف والثروة عند مجيئه إلى الحكم وتُنسكب وتصادر أموالها عند عزله، ولا شك أن المصادرة (وقد أصبحت عادة) كانت عاملاً هاماً في إذكاء نار الحقد والتنافس بين الوزراء. وقد انقسم الكتّاب فعلاً في أيام المكتفي إلى حزبين متناحرين: أحدهما جلب المقتدر إلى الخلافة، وثار الآخر يريد ابن المعتز، وعندئذ تدخل الجيش لتأييد عرش المقتدر، فكان ذلك إعلاناً بشؤم خطير.

هذه اتجاهات كانت تنذر بالشر في مفتتح عصر المقتدر، ثم وجدت من الظروف المحيطة ما قوّى حدتها حتى جرت بسلطان العباسيين إلى الهاوية. فلننظر إذاً: كيف لعبت دورها.

كان الخليفة صبياً (عمره ثلاث عشرة سنة) مترفاً لا خبرة له بالسياسة أو بالإدارة، مبذراً متلافاً، بدد في مدة قصيرة ما في الخزينة، وزعزع ركن الدولة المالي وهو أهم أركانها. وكان الحرم يتمتع بنفوذ كبير. وكان على رأسه السيدة شغب أمّ الخليفة، ومعها القهرمانة (المديرة العامة) وعدد من الجواري الفاتنات. وهن نسوة ثقافتهن محدودة أو معدومة، يملن إلى البذخ والترف وتسيّرهن عواطفهن. فأنفقن من دون حساب، وليتهن اكتفين بذلك، ولم يتدخلن في سياسة الدولة وفي عزل الوزراء وتعيينهم، وحتى في القضاء والعدل.

والوزراء والكُتّاب، كانت بيدهم الإدارة الفعلية (في النصف الأول لحكم المقتدر على الأقل)، ولكنهم كانوا ـ عدا الوزير علي بن عيسى ـ جماعة لا تهمهم إلا مصالحهم، فلم يفكروا في إصلاح أو في تنظيم، بل كان همهم جمع المال بكل وسيلة وإعطاء الوظائف لأصدقائهم ومحسوبيهم، والدس على بعضهم، وزاد الوضع سوءاً شعورهم بعدم الاستقرار في وظائفهم؛ إذ كان كل منهم عرضة للعزل في أي لحظة؛ لدس بعضهم على بعض وترحيب الخليفة بالأموال التي يقدمها كل وزير جديد، والأموال التي يستحصلها هذا من سلفه للخزينة، فأضعف ذلك مركز الوزراء ووقف حائلاً دون الاستقرار الإداري وهم كثيراً ما استنجدوا في خصوماتهم بالحرم، وأخطر من ذلك أنهم جرّوا الجيش إلى التدخل في شؤونهم وأدخلوه في حومة السياسة وبذلك نحروا قوتهم بأيديهم، ولم يتورع بعض الوزراء ـ لأسباب شخصية ـ عن التحالف مع الجيش ضد الخليفة.

وأدت الخصومة بين الوزراء والكُتّاب وطمعهم في المال إلى تدمير الهيئة الإدارية وإلى إرهاق الشعب بالضرائب وإلى إهمال نظام الري، كما إنها أدت إلى أزمة مالية وإفلاس مزمن في الخزينة، فكان لذلك أبلغ الأثر في تصديع سلطان الخلافة.

وعاد الجيش إلى التدخل في السياسة وعلى رأسه مؤنس، فأخذ مؤنس منذ قضائه على فتنة ابن المعتز يعتد بفضله ويحاول التدخل في كل شيء. ولكن وجود الوزراء القديرين في أول عصر المقتدر ـ كابن الفرات ـ أوقفه عند حده مؤقتاً. إلا أن تخليط الوزراء واشتداد الأزمة المالية ساعده على تأكيد نفوذه، ومن ورائه الجيش الذي صار يستغل كل فرصة لطلب زيادات على الرواتب، أو للمطالبة برواتب متأخرة. وزاد الحال سوءاً العلاقة بين الخليفة ومؤنس. ولما كانت القوة للجيش، صار الأمر بيده في سني المقتدر الأخيرة حتى أنه خلعه سنة ٣١٧ هـ، ثم أرجعه. وقد حاول الخليفة تأكيد سلطته بإذكاء المنافسة والخصام بين فرق الجيش ولكن الأوان قد فات؛ فضعف الوزراء وفراغ الخزينة، وشعور الجيش بالمصلحة المشتركة تجاه الخليفة أحبطت مساعيه وأدت إلى مقتله سنة ٣٢٠ هـ.

وبمقتل المقتدر نحرت الخلافة العباسية كقوة سياسية. فازداد الجيش تعنتاً وطغياناً، حتى لقد ذهب القاهر ضحية حين حاول إيقافه عند حده. وكان الخلفاء الذين تلوا المقتدر من مرشحي الجيش، يوليهم ويعزلهم حسب أهوائه. واستمرت الأزمة المالية على حدتها، ونهب الجباة البلاد.

وأدت الفوضى في المركز إلى انسلاخ كافة الولايات بيد وال استقل أو أمير جديد ظهر، ولم يبق بيد الخلفاء سنة ٣٢٤ هـ إلا المنطقة التي بين بغداد وواسط،

فأصبح سير الإدارة مستحيلاً لفراغ الخزينة وقلة الوارد وضعف الخليفة الذي لم يجد المال لدفع الرواتب. فنتج عن ذلك انتصار جديد مطلق للجيش. إذ اضطر الراضي إلى أن يقبل بتعيين ابن رائق قائد الأتراك في منطقة واسط «أمير الأمراء» في بغداد لقاء دفع ابن رائق للنفقات اللازمة للبلاد وللإدارة والمال والجيش إلى أمير الأمراء ولم يبق للخليفة إلا الاسم. وشارك ابن رائق خليفته حتى في امتيازات الخلافة أو شاراتها وهي ذكر الاسم في الخطبة، وطبعه على السكة.

فتسلط الجيش على كل شيء وانهارت المؤسسات الإدارية، وبطلت الدواوين ولم يبق للوزير إلا الاسم. وبذلك زال الأساس البيروقراطي الذي قامت عليه الدولة العباسية.

وكانت السنوات التي سبقت الفتح البويهي (سنة ٣٢٤ ـ ٣٣٤) فترة فوضى ونزاع بين الطامحين إلى إمارة الأمراء، لاقت فيها البلاد عامة وبغداد بخاصة، صنوف المذلة والتدمير وذهبت في نهايتها طُعمة سهلة إلى البويهيين الفاتحين.

هذه هي التيارات التي سيّرت الدولة العباسية حتى الفتح البويهي. ولعلنا أوضحنا وحدة التطور وأثر الأوضاع الاقتصادية والأنظمة الإدارية على سير التأريخ العباسي. وسنرجئ تطور التأريخ العباسي في الفترات التالية إلى فرصة أخرى.

ولعلنا وضعنا مثلاً لمعنى النظرة الشاملة وتطبيقها على فترة من تأريخ المسلمين، وهي ولا شك محاولة أولية علها تفتح آفاقاً جديدة.

عبد العزيز الدوري

٤ تموز/ يوليو ١٩٤٥



الفصل الأول

الواثـــــق(*)

(*) ١٩ ربيع الأول ٢٢٧ هـ ـ ٢٤ ذي الحجة ٢٣٢هـ/ ١١ آب/ أغسطس ٨٧٤ م.



١ ـ تكاد المصادر القديمة تجمع على أن الواثق كان أبيض مشرباً حمرة، حسن الوجه، عريض الصدر، كث اللحية، ربعة، حسن الجسم، في عينه اليمنى نكتة بياض[١]. وكان على ما يظهر نهماً كثير الأكل والشرب[٢]. ولكنه فطن لبيب فصيح ينظم الشعر[٣]، ويحب الموسيقى حتى أنه صنع مئة صوت[٤].

أما نظرة المؤرخين المحدثين إلى الواثق فمختلفة كل الاختلاف؛ فالبعض يتطرف في ذمه له تطرفاً كبيراً لتعصب الواثق الديني وطمعه، متناسين مزاياه الأخرى. فميور يقول: إنه كان ضعيفاً وغير رشيد في إدارته[٥]. ويقول زترشتين: إنه خلو من مزايا الحكام وإنه كان رجلاً طماعاً متعصباً منغمساً في الملاذ[٦].

بينما نجد البعض الآخر يغالي في مدحه مغالاة شديدة. فيقول أمير علي: كان الواثق ـ رغم افتراء بعض الكُتّاب المتعصبين ـ حاكماً ماهراً، كريماً صبوراً، واسع المعرفة لم تشب أخلاقه أية شائبة برغم حبه للمجون[٧].

---

(١) عبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ١٦٣؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٣١٢؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧ م)، ج ١١، ص ٢٤، وأبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٠ هـ/[١٨٧٣ م])، ج ٧، ص ٢١.

(٢) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلّق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٤، ص ١٩.

(٣) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ٣١٥.

(٤) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، **الأغاني** (القاهرة: الساسي، [د. ت.])، ج ٩، ص ٢٧٧.

(٥) William Muir, *The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall: From Original Sources*, new and rev. ed. by T. H. Weir (Edinburgh: J. Grant, 1924), p. 519.

(٦) **دائرة المعارف الإسلامية**، مج ٤، ص ١١٩٤.

(٧) مولاوي سيد أمير علي، **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي**، نقله إلى العربية رياض رأفت (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، [١٩٣٨])، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

وسنرى أنه لم يكن هذا ولا ذاك. وأن شخصيته في حياته الخاصة هي غيرها في حياته السياسية.

٢ ـ كانت سياسته استمراراً لسياسة عمه وأبيه. فكان يحب الاعتزال ويبغض «التقليد وأهله» ويشجع نشر العلوم بين الناس(٨). اقتفى أثر عمه في الاعتزال. وحاول نشر مبادئه وامتحن الناس في خلق القرآن، فكتب إلى القضاة أن يفعلوا ذلك في سائر البلدان وأن لا يجيزوا إلا شهادة من قال بالتوحيد(٩). وتشدد في ذلك، حتى أنه أمر سنة ٢٣١ هـ بامتحان أهل الثغور، فلما رفض أربعة أن يقولوا بخلق القرآن ضرب أعناقهم(١٠). ولما جرى الفداء سنة ٢٣١ هـ افتدى من الأسرى المسلمين من قال بخلق القرآن فقط(١١).

وهكذا أصبح الاعتزال رمز المواطنة الكاملة واضطهد غير المعتزلة، فأدى ذلك إلى السخط العام عليه. يقول المسعودي: «شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فافسد قلوبهم واوجدهم السبيل إلى الطعن عليه»(١٢).

وسرعان ما أدى تشدد الواثق إلى قيام حركة ضده في بغداد سنة ٢٣١ هـ يحمل لواءها «أصحاب الحديث ومن ينكر القول بخلق القرآن». ويقودها أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي(١٣). وانتشرت الدعوة سراً ولكن المؤامرة اكتشفت قبل موعدها. فألقي القبض على أحمد وعلى بعض أنصاره وجيء بهم إلى سامراء. فعقد الواثق مجلساً عاماً لمحاكمته حضره قاضي قضاته أحمد بن أبي دواد وبعض قضاته. وحكم على أحمد بن نصر بالكفر فقتله الخليفة بيده وتتبع أصحابه وسجنهم(١٤).

وهذه الحركة تدل دلالة واضحة على قوة أعداء المعتزلة رغم استمرار ثلاثة خلفاء على نشرها، فلا تستغرب سهولة ضربها سياسياً في عصر المتوكل.

وسار الواثق عل خطة أبيه في تقريب الأتراك وتقديمهم في الجيش. اعتمد

---

(٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٣٠.

(٩) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ١٠٧.

(١٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٩.

(١١) انظر: المصدر نفسه، ج ١١ ص ١٩ ـ ٢٠؛ اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٧، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ١٨.

(١٢) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣١٣.

(١٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٨.

(١٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٨، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ١٤ ـ ١٥.

عليهم الاعتماد كله وأرسلهم إلى قلب الجزيرة لضرب الثوار العرب كما أعطى الولايات الواسعة لقوادهم ورؤسائهم؛ فقد ولى أشناس «من بابه إلى آخر عمل المغرب»[١٥] وولي إيتاخ خراسان والسند وكور دجلة[١٦]. ولكن مساوىء تقريبهم لم تظهر في خلافته.

واقتدى بالمأمون في سياسة التسامح مع العلويين. وأحسن إليهم وبالغ في إكرامهم ومنحهم الأموال[١٧].

٣ ـ حدثت بعض الاضطرابات في خلافة الواثق، ولكنها لم تكن خطرة ولعل أهمها اضطراب بعض القبائل في الجزيرة وإقلاقها الأمن، ولا شك أن هذه بادرة إن دلت على شيء فإنها تدل على ضعف الحكومة المركزية أو إهمالها. كما إنها كانت بدء ذلك الدور الهدام الذي لعبه البدو في شؤون المملكة العباسية منذ هذا الوقت حتى سقوطها؛ ففي سنة ٢٣٠ هـ كان بنو سليم يعيشون حول المدينة ويأخذون ما أرادوا من الأسواق وبأي سعر أحبوا. ثم اعتدوا على بني كنانة وباهله وقتلوا بعضهم. ولما أرسل عامل المدينة حملة ضدهم هزموها وقتلوا قائدها. فقويت شوكتهم وزاد سوء تصرفهم وقطعوا طريق الحج بين مكة والمدينة ثم بايعوا بالخلافة رجلاً منهم. فأرسل الواثق إليهم سنة ٢٣٠ هـ بُغا الكبير في الشاكرية والأتراك والمغاربة فهزمهم ثم دعاهم إلى لامان فأجابوه واحتبس عنده منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء ألف رجل وترك الباقين. ثم توجه إلى بني هلال وعرض عليهم مثل الذي عرض على بني سليم فأجابوه وأخذ منهم نحواً من ٣٠٠ رجل من المفسدين وسجنهم في المدينة.

وفي السنة التالية (سنة ٢٣١ هـ) تغلبت فزارة ومرة على فدك، فأرسل إليهم حملة فهربوا إلى الشام. ثم جاءه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع وثعلبة، فاستحلفهم بالإيمان المؤكدة أن لا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا. ثم سار إلى بني كلاب فاستأمنوا فحبس في المدينة من أهل الفساد نحواً من (١٠٠٠ ـ ١٣٠٠) وترك الباقين[١٨].

وفي سنة ٢٣١ هـ تذمر الشاعر عُمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي إلى الخليفة من بني نمير وأخبره بعبثهم وفسادهم في الأرض وإغارتهم على الناس وعلى

---

(١٥) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٤.

(١٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٥.

(١٧) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ١٦٣؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢١٥، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١.

(١٨) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨ و١٣؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٢ ـ ١٣ و١٥، واليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٥.

اليمامة وما جاورها. فأمر الخليفة بُغا بأن يسير إليهم من المدينة فتحرك في صفر سنة ٢٣١ هـ وانتصر عليهم بعد معارك كاد يُقضى عليه فيها. ثم تتبعهم حتى أقبل عدة من ساداتهم يطلبون الأمان لأنفسهم ولبطونهم فأمنهم وآنسهم ثم قيد منهم نحواً من ٨٠٠ رجل وأخذهم معه إلى سامراء. وكذلك من سجن في المدينة[١٩].

واضطربت أرمينيا «وتحرك بها قوم من العرب والبطارقة والمتغلبين وتغلب ملوك الجبال وباب الأبواب على ما يليهم وضعف أمر السطان»، ولكن الواثق أرسل إليهم حملة فأخضعهم من جديد[٢٠].

وقام الخوارج بثورة صغيرة برئاسة محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة، فقضى على الحركة وأسر زعيمها وجاء به إلى سامراء حيث سجن[٢١].

٤ ـ أما في علاقته مع البيزنطيين فلم يحصل ما يستدعي الانتباه غير فداء كان سنة ٢٣١ هـ؛ فقد قدم في آخر سنة ٢٣٠ هـ وفد بيزنطي يقترح الفداء، فعيّن يوم ١٠ محرم سنة ٢٣١ هـ موعداً لذلك[٢٢]. وجرى الفداء على نهر اللامس على مسيرة من طرسوس. وكان عدد الأسرى من المسلمين عند الطبري ٣٠٠٠ رجل و٦٠٠ امرأة[٢٣]. وعند ابن العبري[٢٤] وابن الأثير[٢٥] الرجال ٤٤٦٠ والنساء والصبيان ٨٠٠ وأهل ذمة المسلمين ١٠٠. وعلى كل حال، فقد كان أسرى المسلمين أكثر من أسرى الروم ولذلك وجه الواثق إلى بغداد والرقة لابتياع «الرقيق من مماليك الروم» ولكن العدة لم تتم «فاخرج . . . من قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تمت العدة»[٢٦].

٥ ـ كان عصر الواثق عصر هدوء نسبي، ولكننا لا ندري هل لازم ذلك رخاء نسبي؟ فقد كان الواثق متفقداً لرعيته[٢٧] يحسن إلى الناس[٢٨] وقد «فرق في أهل

---

(١٩) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٩، والطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٢ ـ ٢٤.

(٢٠) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٢٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٩.

(٢٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٩.

(٢٤) أبو الفرج يوحنا غريغوريوس بن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، وقف على طبعه الأب أنطون صالحاني (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠)، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢٥) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ١٧.

(٢٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٢٧) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٩.

(٢٨) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٢١.

الحرمين أموالاً لا تحصى حتى أنه لم يوجد في أيامه بالحرمين سائل»(٢٩). ومن مظاهر عطفه أن الكرخ احترقت في أيامه فعجز الفقراء عن عمارة أملاكهم وانتقلوا عنها فأعطاهم مليون درهم «معونة على إصلاح المنازل»(٣٠). كما إنه أعطى المال لأهل فرغانه لسد بثق وحفر نهر هناك. وشجع التجارة فأمر سنة ٢٣٢ هـ بترك جباية أعشار سفن البحر(٣١). ويقول اليعقوبي: «وفرق على قوم من التجار أموالاً جمة . . . وأسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصيني من العشر»(٣٢).

ولكن الواثق يلام لأنه أكثر من مصادرة موظفيه حتى صارت سُنّة سيئة لمن خلفه ومصدراً يعول عليه في أوقات الحاجة. ولا شك في أن لذلك أسوأ الأثر في الإدارة وفي الاستقرار المالي، ففي سنة ٢٢٩ هـ «حبس . . . الكتاب وألزمهم أموالاً عظيمة وأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهب كاتب ايتاخ ٤٠٠ ألف دينار، ومن الحسن بن وهب ١٤ ألف دينار، ومن إبراهيم بن رياح وكاتبه ١٠٠ ألف دينار، ومن أحمد بن الخطيب وكتابه ألف ألف دينار، ومن نجاح ٦٠ ألف دينار، ومن أبي الوزير ١٤٠ ألف دينار»(٣٣).

ولا بد أن نشرك في المسؤولية المترتبة على حكم الواثق قاضيه بطل الاعتزال أحمد بن أبي دواد ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات؛ إذ «كان لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يعاب عليهما في ما رأيا وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه»(٣٤) ولا شك في أن استبقاء الواثق لابن الزيات في الوزارة رغم سخطه عليه وهو أمير دليل على مقدرة ابن الزيات وعلى اتزان الواثق وقد قال له «والله ما ابقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك وسأكفر عن يميني فاني أجد عن المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً»(٣٥).

وأخيراً أرى أن أهم نتيجة للهدوء في عصر الواثق تعاظم نفوذ الترك إلى درجة جعلت المتوكل يفكر في تقليله، فجرى صراع صامت قوي أدى إلى انتصار الأتراك.

---

(٢٩) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١.

(٣٠) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ١٦٣، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٨.

(٣١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٤.

(٣٢) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٨.

(٣٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٧.

(٣٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٩.

(٣٥) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٣١٤.



الفصل الثاني

المتوكـــــل(*)

(*) ٢٤ ذو الحجة ٢٣٢ هـ ـ ٤ شوال ٢٤٧ هـ/ ١١ آب/ أغسطس ٨٤٧ م ـ ١١ كانون الأول/ ديسمبر ٨٦١ م.



١ ـ توفي الواثق دون عهد؛ إذ رفض الاقتراح بتسمية خلف له قائلاً: «لا يراني الله أتقلدها حياً وميتاً»[1]. وترك الأمر لرجال الحاشية فاجتمع في دار الخليفة قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد والوزير ابن الزيات، وأحمد بن أبي خالد أبو الوزير وعمر بن فرج من رؤساء الكتاب، ووصيف وايتاخ من قواد الأتراك وأرادوا البيعة لابن الواثق: ولكنهم عدلوا عنه لصغر سنه وقصره واحتج وصيف وقال: «أما تتقون الله! تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة؟» فعدلوا عنه إلى أخ الواثق. فألبسه قاضي القضاة الملابس وسلّم عليه بالخلافة. وكانت بيعته الخاصة في تلك الساعة ثم بايعه الناس البيعة العامة مساء[2].

وهكذا تمت بيعة المتوكل. وقد لعب الترك فيها دوراً مهماً. ولكن اشتراك رجال الإدارة قلل من خطر هذه التجربة[3]. ويرى بووين (Bowen) أن الترك هم الذين اختاروا المتوكل[4]؛ فاختيارهم الخليفة يدل على أن نفوذهم قد استفحل جداً فبات اصطدامهم بخليفة قوي كالمتوكل أمراً منتظراً.

٢ ـ كان المتوكل كما يظهر من المصادر القديمة، أسمر رقيق البشرة يضرب لونه إلى الصفرة خفيف اللحية حسن الوجه كبير العينين خفيف العارضين نحيفاً مهيباً إلا أنه ليس بالطويل[5].

---

(١) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ٢٠٨.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧ م)، ج ١١، ص ٢٧.

(٣) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٨.

(٤) Harold Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»* (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1928), p. 803.

(٥) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٣١٣ ـ ٣١٤؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٦٧؛ عبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ١٦٤، وأبو العباس أحمد بن يوسف القرماني، **أخبار الدول وآثار الأول** (طبع حجر)، ص ١٥٩.

ويوصف المتوكل بسهولة الأخلاق والاعتدال في صرف الأموال مع ميل إلى الكرم. كما يوصف بالحزم والشدة والقسوة والالتجاء إلى الغدر متى اقتضى الحال ذلك كما فعل بايتاخ. وكذلك يوصف بالانهماك في اللهو والشراب، فلم ير البعض مبالغة في القول إنه كانت لديه أربعة آلاف سرية[٦].

وقد أحب المتوكل العمارة. فأنفق أموالاً طائلة على القصور والأبنية.

٣ ـ واجه المتوكل قوة المعتزلة واستبدادهم من جانب، وزيادة نفوذ الأتراك زيادة خطرة من جانب آخر، ولكنه لم يكن معتزلياً، وكان يخشى الأتراك بالرغم من مساعدتهم له في الوصول إلى الحكم. فاتبع سياسة جديدة اقتضتها ظروفه وميوله؛ إذ قرر ضرب المعتزلة مستعيناً بمساندة الفقهاء من أهل السُنّة الذين التف الحزب العربي في المملكة حولهم. ويظهر أن حركة الاعتزال اقتصرت على بعض المثقفين بينما بقي السواد الأعظم محافظاً. وهذا يفسر نجاح المتوكل في ضرب قسوة المعتزلة السياسية من دون أن يجابه بثورة أو عصيان. فنهى الناس عن الكلام في القرآن وأمرهم بالتقليد وأمر الشيوخ بالتحديث وإظهار السنة. وأطلق من سجنه الواثق لتمسكه بقول أهل السُنّة وأخرج أحمد بن حنبل من السجن ٢٤٢ هـ وأكرمه[٧].

ولكن سياسة الرجوع إلى السُنّة صحبها اضطهاد للمذاهب الأخرى. فتشدد في مطاردة العلويين وأنصارهم ونكل بهم وصادر أموالهم[٨]. وقد تطرف في كرهه للعلويين حتى أنه كان يبغض أسلافه الثلاثة لميلهم إلى العلويين[٩]. وأمر بهدم قبر الحسين وما حوله من المنازل والدور وحاول أن يخفي معالمه، ومنع الناس من زيارته. وقرب جماعة كانوا مشهورين ببغضهم لآل علي فزادوا الطين بِلّة بأن «كانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم و . . . الإساءة إليهم، ثم حسنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين»[١٠]. فذهب إلى السخرية علناً من علي.

---

(٦) الأربلي، المصدر نفسه، ص ١٦٤؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلّق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٤، ص ٣٨؛ القرماني، المصدر نفسه، ص ١٥٩ و١٦١، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٧) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٣٧؛ اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٩؛ أبو الفرج يوحنا غريغوريوس بن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، وقف على طبعه الأب أنطون صالحاني (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠)، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩، والقرماني، المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٨) أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٠ هـ/ [١٨٧٣ م])، ج ٧، ص ٣٦.

(٩) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٧.

(١٠) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٧، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٤٤.

فأظهرت هذه السياسة الهوجاء عدم إمكان التفاهم بين العلويين والعباسيين، وجلبت سخط قسم كبير من الناس حتى قال ابن الأثير: «فغطت هذه السيئة جميع حسناته»[١١].

واضطهد المتوكل الذميين وكان وضعهم قبله حسناً. ولعله كان مسوقاً إلى ذلك بإرضاء العامة. ففرض عليهم نوعاً خاصاً من الزي «وقيد تصرفاتهم العامة»، بأن أمرهم سنة ٢٣٥ هـ «بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين في مؤخرة السروج، وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحد منهما غير لون الأخرى. ومن خرج من نسائهم تلبس أزراراً عسلياً، ومنعهم من لبس المناطق .. وان يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب». ومنعهم «ان يظهروا في شعانينهم صليباً، وان يستعملوه في الطريق. وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض». كما إنه أمر بهدم كنائسهم الجديدة[١٢]. ومنع المسلمين من تدريس أولادهم[١٣]. وحظر استعمالهم في الوظائف[١٤]. حتى أنه نحى سنة ٢٤٢ هـ المسيحي الذي كان يراقب مقياس النيل[١٥].

ويقول تريتون (Tritton) أن المتوكل كان أول خليفة شرع منع بناء كنائس جديدة. ثم أكد تباين زي الذميين عن المسلمين بعد أربع سنوات إذ أمر «بأخذ أهل الذمة بابس دراعتين عسليتين على الأقبية والدراريع وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين». كما إنه شدد من جديد على «هدم البيع المحدثة في الإسلام»[١٦].

وفرض المتوكل ضريبة جديدة على أهل الذمة. فأمر «بأخذ العشر من منازلهم»[١٧]. ولما اشترك مسيحيو حمص في الثورة ضد العامل سنة ٢٤٢ هـ أمر بإخراجهم من مدينتهم «وهدم كنائسهم وأدخل بيعتهم في الجامع»[١٨]. وكان

---

(١١) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٧.
(١٢) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢١٢.
(١٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٢٦.
(١٤) المصدر نفسه، ج ١١، ٢٦، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٣٤ ـ ٣٥.
(١٥) Arthur Stanley Tritton, *The Caliphs and Their Non-Muslim Subjects* (London: Oxford University Press, 1930), p. 23.
(١٦) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٧، والطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٦.
(١٧) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٧.
(١٨) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٥.

الغرض من هذه السياسة جلب ود الرأي العام، وخلق كتلة قوية تؤيد الخليفة. وهي في ذاتها تتعلق بمحاولته لتقليل نفوذ الترك وضربهم بعد ازدياد نفوذهم إلى درجة خطرة.

وقد سار في مقاومته لنفوذ الترك بصورة بطيئة، فكانت أيامه سلسلة نزاع صامت بينه وبين حرسه انتهت بفشله ومقتله.

بدأ المتوكل بايتاخ «وكان إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة»[١٩]، إضافة إلى الإشراف على بيوت الأموال وبذلك كانت سلطته خطراً على الخليفة. ولم يتردد ايتاخ في إظهار غروره. فأخذ الخليفة يدبر عليه. وفعلاً أرسل إليه من حسّن له الحج، ففعل ذلك ايتاخ فأسرع المتوكل بنقل الحجابة إلى وصيف ثم دبر مؤامرة مع حاكم بغداد بأن يسجنه عند رجوعه فنجحت المؤامرة، ومات ايتاخ في السجن ٥ جمادى الآخرة سنة ٢٣٥ هـ[٢٠]. وكانت بغداد المحل المناسب لهذا المشروع لبغض أهلها للترك ولبعد ايتاخ عن انصاره حتى قال الطبري «ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه، ولو دخل سامراء فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك»[٢١]. أما اليعقوبي فيذكر أن ايتاخ أراد أن يوقع بالخليفة فلما لم يمكنه ذلك طلب الحج فسمح له الخليفة بذلك ثم دبر سجنه ومقتله في بغداد، وأنه صادر أموال عامل مصر لمكاتبته ايتاخ[٢٢].

وبقي المتوكل يشعر بضعف مركزه، وبأنه في وسط جيش لا يدين له بولاء خاص، ففكر في نقل مركز حكمه إلى محل آخر يتخلص فيه من نفوذ الترك ويكون فيه بين عنصر يؤيده وهو العنصر العربي لأنه لاحظ فشل سياسة التعاون مع الفرس والأتراك، ولذلك فكر في دمشق التي كان النفوذ التركي والفارسي فيها معدوماً، كما إنها تتعصب للسُنّة وتكره العلويين، فهي بذلك تتفق وميوله. وفعلاً انتقل إليها في صفر ٢٤٢ هـ «وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك إليها وأمر بالبناء بها»[٢٣]. ولكن الأتراك أدركوا خطر الوضع فأجبروه على الرجوع بعد أن قام بها شهرين وأياماً[٢٤]، إذ بدأوا بالضجيج ضده يطلبون أرزاقهم وأرزاق عيالهم وجردوا

---

(١٩) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٩، والطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣.

(٢٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٤.

(٢١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣ ـ ٣٥، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٩ ـ ٣١.

(٢٢) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢١٠.

(٢٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٥٥.

(٢٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٥٦.

السلاح. ثم لم يقنعوا باستلام أعطياتهم بل فكروا في قتله كما يقول المسعودي. فلم ينجحوا لتأييد بُغا الكبير للخليفة وهكذا اضطروا إلى الرجوع. ويؤيد هذا قول اليعقوبي بأن رجوع الخليفة كان لحذره من موقف الأتراك[٢٥].

ويعطي بعض المؤرخين تفسيراً آخر لرجوع الخليفة إلى سامراء فيقولون: إن الهواء بدمشق بارد ندي والماء ثقيل والريح تهب مع العصر، فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل وهي كثيرة البراغيث[٢٦]. لكن هذا التفسير اعتذاري، فالمسعودي يبيّن أن المتوكل لم ينزل دمشق نفسها بل نزل «على ساعة من المدينة في أعلى الأرض»[٢٧] ويؤكد البعض على برودة الهواء وأن الثلج «حلل . . . بين السابلة والميرة»[٢٨] مع العلم أن المتوكل كان هناك بين صفر وربيع الثاني (بين أيار/ مايو وتموز/ يوليو أي في وسط الصيف)[٢٩].

وهكذا فشل المتوكل في هذه المحاولة تجاه مقاومة الأتراك وسرعة انتباههم للأمر.

ثم لم يستقر الخليفة في سامراء ذاتها بل قرر الانتقال إلى شمالها، ففي سنة ٢٤٥ هـ أو ٢٤٦ هـ انتقل إلى موضع يقال له الماحوزة على ثلاثة فراسخ من سامراء[٣٠]. وأمر بالبناء هناك، وأقطع القواد وأصحابه وأمر بحفر نهر مصدره من خمسة فراسخ شمال مدينته الجديدة التي سماها «الخاصة المتوكلية»[٣١]. ولعله أراد بذلك تقليل ضغط الترك عليه والابتعاد عن خصومه ولعل أوضح دليل على ذلك نقض هذه المدينة حال مقتله.

واستمر يدبر ضد الترك قال المسعودي «وجفا الموالي من الأتراك واطرحهم وحط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم»[٣٢]. وقد خطا خطوة عملية في ذلك بأن أدخل فرقة عربية في الجيش، «اذ ضم إلى وزيره عبد الله بن يحيى بن خاقان نحواً من اثني عشر ألفاً من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في

---

(٢٥) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٦٥.

(٢٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٥٦.

(٢٧) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥.

(٢٨) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٦٦.

(٢٩) William Muir, *The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall: From Original Sources*, new and rev. ed. by T. H. Weir (Edinburgh: J. Grant, 1924), p. 528.

(٣٠) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢١٦.

(٣١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٣٢) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣١٢.

حجره». وضاق ذرعاً بتصرف الأتراك بأموال الدولة «وجعل يجيل الآراء في استئصالهم»[٣٣]. وحاول تشتيت الزعماء فقبض على ضياع وصيف وأقطعها للفتح بن خاقان[٣٤]. كما إنه عزم على الفتك به وببغا[٣٥]. غير أن الترك استغلوا الخلاف بينه وبين ابنه المستنصر فعاجلوه وقتلوه كما سنرى.

٤ ـ أ) وكان وزراء المتوكل طوع أمره. إذ ابقى محمد بن الملك الزيات في الوزارة ولكنه كان يحقد عليه لسوء معاملته له في حياة أخيه فنكبه بعد أربعين يوماً[٣٦] وصادر أمواله وعذبه حتى مات[٣٧]. وكان هذا «رجلاً شديد القسوة قليل الرحمة جباها للناس، كثير الاستخفاف بهم لا يعرف له إحسان إلى أحد ولا معروف عنده، وكان يقول الحياء خنث والرحمة ضعف والسخاء حمق، فلما نكب لم ير إلا شامت به وفرح بنكبته»[٣٨].

ثم استكتب بعده أحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير من دون تسميته بالوزارة، ثم نكبه. ثم استوزر الجرجرائي «وكان شيخاً ظريفاً حسن الأدب عالماً بالغناء مشتهراً به فخف على قلب المتوكل». ثم نكبه لكثرة السعايات عليه وأبدى رغبة في استيزار حدث وقال ضجرت من المشايخ فاستوزر عبد الله بن يحيى خاقان، وكان «حسن الخط له معرفة في الحساب والاستيفاء... وكان كريماً حسن الأخلاق. وكان كرمه أيضاً يستر كثيراً من عيوبه، وكان فيه تعفف»[٣٩] وبقي في الوزارة حتى مقتل المتوكل.

ولكن الوزراء المعزولين كانوا عرضة للمصادرة كما حصل لابن الزيات ولابن الوزير. ويظهر أن نفوذ الأتراك كان يحد من سلطة الوزير[٤٠].

٤ ـ ب) يذكر اليعقوبي أن المتوكل «أمر سنة ٢٣٤ هـ أن يسلم الناس على ابنه محمد بالامرة ويدعي له على المنابر وكتب بذلك إلى الآفاق»[٤١]. وفي سنة ٢٣٥ هـ/

---

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٦٠.

(٣٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٦٤، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٦٩.

(٣٦) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٣٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧ ـ ٢٩.

(٣٨) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٣٩) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٤١) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٧.

٨٥٠ م نظم ولاية العهد فعقد لأولاده الثلاثة: محمد وسماه المنتصر، وأبي عبيد الله (اسمه محمد أو الزبير أو طلحة) ولقبه المعتز، وابراهيم ولقبه المؤيد (في ٢ ـ ٣ ذي الحجة) وعقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل[٤٢]. وقسم الإمبراطورية بين الثلاثة: فكانت حصة الأسد للمنتصر، بينما كانت حصة المؤيد الحصة الصغرى. فضم إلى المنتصر أفريقيا والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه حتى المغرب، وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية والجزيرة والسواد والحرمين والجزيرة العربية والسند والأهواز ومستغلات سامراء ومنطقة الجبال، وصدقات العرب بالبصرة[٤٣]. وولى المعتز على كور خراسان وكور فارس. وولى المؤيد على أربعة من أجناد الشام فقط، وهي جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين[٤٤].

وكان المنتصر وحده قد وصل سناً يساعده على التدخل الفعلي في أمور الدولة (١٣ سنة لأن سنة عند مجيئه للحكم ٢٥ سنة) بينما كان المؤيد حدثاً، والمعتز طفلاً، ولذلك عين المتوكل لكل منهم كاتباً يشرف على إدارة ولاياته[٤٥].

وبعد خمس سنوات أضاف المتوكل إلى ابنه المعتز خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق، ودور الضرب، وأمر بضرب اسمه على الدراهم[٤٦].

ولكن المتوكل لم ينجح في تنظيمه، أن الخصومات بين أفراد العائلة المالكة ودسائس الحاشية، أدت إلى تحطيم خطته وساعدت على قتله.

٤ ـ ج) أراد المتوكل أن يقوم بإصلاح زراعي مهم، فحاول تأخير موعد الجباية لحل مشكلة هامة. فقد كان الخراج يجبي قبل نضوج الزرع، فكان الزراع يضطرون إلى الاقتراض، ويخسرون كثيراً حتى هجر البعض أراضيهم. وكانت هذه المشكلة موجودة منذ العصر الأموي، فأمر أن يؤخر الموعد من نيسان/ أبريل إلى ١٧ حزيران/ يونيو. ولكن مقتله حال دون تنفيذ هذا الإصلاح[٤٧].

---

(٤٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**.

(٤٣) يجعل اليعقوبي الجبل في حصة المعتز. انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١١.

(٤٤) اليعقوبي يضيف أرمينيا وأذربيجان بينما الطبري يجعلها في حصة المعتز. انظر: Nabia Abbot, «Arabic Papyri on the Reign of Gafar Al-Mutawakkil,» *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* (ZDMG), vol. 92, nos. 1-3 (1938), p. 89.

(٤٥) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١١.

(٤٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٨.

(٤٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٦٠، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٥٧ ـ ٥٨.

وفي سنة ٢٤١ جعل كورة سميساط عشرية وكانت خراجية[٤٨] ولعل أهلها ادعوا بأنها ملك المحاربين. ولعل الضرورة العسكرية ساعدتهم على طلبهم.

وأكثر المتوكل من المصادرات حتى أصبحت شبه ضريبة على الموظفين الكبار ولعله اعتبرها وسيلة لاسترجاع بعض أموال الدولة التي أخذوها بطرق غير مشروعة. كما إن كثرة النفقات وقلة الوارد دفعت الخليفة إلى هذه الوسيلة. ويمكن الحصول على فكرة عن بذخه من نفقاته على الدور التي بناها، فقد بنى «قصوراً أنفق عليها أموالاً عظاماً، منها الشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج. وانفق على البرج ألف ألف وسبعمائة الف دينار»[٤٩] وانفق في بناء الماحوزة «أكثر من ألف ألف دينار»[٥٠]. وخصص للنفقة على النهر الذي أجراه إليها ٢٠٠ ألف دينار.

والأمثلة على مصادراته كثيرة[٥١].

٥ ـ ساعدت الفوضى في المركز على إضعاف كيان الدولة وعلى حصول الاضطرابات فيها. فحصلت ثورة في أذربيجان بزعامة محمد بن البعيث، وكانت ربيعة العنصر الأساسي فيها. فأرسل المتوكل لإخمادها فرقتين ولكنهما لم تخمداها، حتى ذهب بُغا الشرابي، فاستطاع بدهائه أن يخمدها (سنة ٢٣٥)[٥٢].

وفي سجستان ظهر الصفّارون وبدأوا بتكوين إمارتهم التي قضت على آل طاهر[٥٣]. واضطربت أرمينيا «وتحرك بها جماعة من البطارقة وغيرهم وتغلبوا على نواحيهم»[٥٤]. وكان زعيمهم بقراط بن أشوط، (وكان يقال له بطريق البطارقة)، يريد الامارة والانفصال، فأرسل المتوكل إليها يوسف بن محمد[٥٥]. فكاتب البطارقة فاجابه بعضهم وخرج بقراط إليه على الأمان فحمله يوسف مع ابنه إلى المتوكل[٥٦]. فاجتمع البطارقة مع ابن أخي بقراط ضد الوالي وهاجموه وقتلوه ومن معه في الشتاء.

---

(٤٨) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٥٠.

(٤٩) اليعقوبي، ، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢١٥.

(٥٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٦٠.

(٥١) انظر: المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٠ ـ ٣١، ٣٥ و٤٥ ـ ٤٦؛ اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٩ و٢١٦، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٥٢) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٥٣) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٧، و Muir, *The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall: From Original Sources*, p. 526.

(٥٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٣.

(٥٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٤٥.

(٥٦) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٢٨.

فأرسل المتوكل إليهم بُغا الشرابي (الصغير) فسار إلى معقلهم الرئيس فحاربهم وقتل منهم زهاء ٣٠ ألف وسبى منهم خلقاً كثيراً، ثم فتح ديبل وحاصر تفليس وكان فيها اسحق بن إسماعيل الأموي مستقلاً فضربها بالمنجنيق ومات في الحريق حوالى ٥٠ ألف[٥٧] «وهرب منهم جماعة وكاتبوا الروم وصاحب الخزر وصاحب الصقالبة واجتمعوا في خلق عظيم» فكتب بُغا إلى المتوكل فأرسل له نجدة بقيادة محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، فسكن المتحركون واومنوا[٥٨].

ونكث البجّة وهم «جنس من أجناس الحبش» العهد الذي لهم مع المسلمين وكانوا يؤدون بموجبه «أربعمائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى» إلى عامل مصر. وامتنعوا سنة ٢٣٧ هـ عن أداء الخراج، فكتب عامل البريد يخبر الخليفة بذلك وبأن البجّة خرجت «من بلادها إلى معادن الذهب والجوهر وهي على التخوم في ما بين أرض مصر وبلاد البجه فقتلوا عدة من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب والجوهر وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم، وذكروا أن المعادن كانت لهم وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها، وأن ذلك أوحش جميع من كان يعمل في المعادن من المسلمين، فانصرفوا عنها خوفاً على أنفسهم وذراريهم. فانقطع بذلك ما كان يوخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر». فاضطرب المتوكل لبعد المسافة ووعورة الأرض. ولما زادت تعدياتهم وجه حملة وطلب من عامل مصر امدادها، وحملت إليها المؤن من البحر فهزم البجة وأجاب رئيسهم (علي بابا) إلى الشروط السابقة ودفع خراج الأربع سنوات الذي لم يدفع وحمل إلى سامراء حيث استقبل بحفاوة. ويروي انه كان يحمل صنماً معه يعبده فاستنكر أهل سامراء ذلك[٥٩].

وحدثت ثورة في حمص سنة ٢٤٠ ـ ٢٤١ هـ وطرد أهلها العامل. فأمره المتوكل بمحاربتهم وأمده بجند من دمشق والرملة فأخضع الثورة[٦٠].

٦ ـ تقتصر العلاقات مع البيزنطيين على عزوات صغيرة من الجانبين وتبادل الأسرى بين حين وآخر. وقد كان البيزنطيون أكثر فعالية من المسلمين في هذه الفترة.

---

(٥٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٤٥ ـ ٤٨، وابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤٧.

(٥٨) المصدران نفسهما، ج ١١، ص ٤٥ ـ ٤٨، و٢٤٧ على التوالي؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢١٤، و Muir, *The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall: From Original Sources*, p. 52.

(٥٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٥٢ ـ ٥٤، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٥٠ ـ ٥٢.

(٦٠) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٩ ـ ٥٠.

ففي سنة ٢٣٨ هـ هجم أسطول بيزنطي من ثلاثمئة مركب على مصر فرسا مئة منها في دمياط وكانت خالية من الجند آنئذ لأن أمير مصر دعاهم إلى الفسطاط لحفل خاص «فنهبوا واحرقوا وسبوا واحرقوا جامعها وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع. . . وسبوا ما بها من النساء المسلمات والذميات نحو ٦٠٠ امرأة[٦١]. فساروا إلى أشنوم (قلعة) تنيس وعليه بابان من حديد من عمل المتوكل فنهبوا ما فيه من سلاح واخذوا البابين وهربوا».

وفي سنة ٢٤١ اغار الروم على عين زربة فاخذوا من بها الزط مع نسائهم ودراريهم ودوابهم[٦٢] وفي تلك السنة حصل الفداء على نهر اللامس (١٢ شوال) وكان ذلك بعد أن قتلت (تَدَوْرة) من أسرى المسلمين ١٢٠٠٠ لرفضهم التنصر: وكان عدد أسرى المسلمين ٧٨٥ رجلاً و١٢٥ امرأة.

وفي سنة ٢٤٢ هـ غزا الروم الثغور الجزرية من جهة سمسياط حتى قاربوا آمد وانتهبوا عدة قرى واسروا نحواً من ١٠ آلاف إنسان.

وفي سنة ٢٤٤ هـ وجه المتوكل بُغا من دمشق لغزو الروم في ربيع الآخر فغزا الصائفة وافتتح صمله[٦٣].

وفي سنة ٢٤٥ هـ أغار الروم على سمسياط فقتلوا وأسروا وسبوا خلقاً كبيراً[٦٤]. وفي سنة ٢٤٦ هـ غزا عمرو بن عبد الله الأقطع الصائفة فأخرج ١٧ ألف رأس، وغزا قريباس وأخرج ٥ آلاف رأس وغزا الفضل بن قارن في عشرين مركباً فافتتح انطاكية وغزا علي بن يحيى الأرمني فأخرج ٥ آلاف رأس ومن الدواب والحمير نحواً من ١٠ آلاف رأس وكان الفداء على يد علي بن يحيى الأرمني ففودي بـ ٢٣٦٧[٦٥].

٧ ـ وفي ليلة الأربعاء (يوم الثلاثاء ٤ شوال ٢٤٧ هـ) قتل المتوكل في مدينة الجعفرية قتله جماعة من الأتراك على رأسهم وصيف وبُغا المعروف بالشرابي بعد أن انفض مجلس شراب الخليفة وبقي وحده في حالة سكر عميق ومعه الفتح بن خاقان الذي قتل وهو يدافع عن سيده. وكان ذلك كما يظهر باتفاق بين الترك والمنتصر[٦٦].

---

(٦١) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٥، وابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤٨.

(٦٢) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٥٢.

(٦٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٥٥.

(٦٤) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٥٧.

(٦٥) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٥٩.

(٦٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٦٤ ـ ٦٦، حيث نجد فيها تفاصيل الحادثة.

ولا شك في أن قتله كان فاتحة على الخلافة وإعلاناً عن زوال حرمتها. فهي أول مرة يجرؤ فيها الجند البرابرة على سفك دم الخلفاء والتعدي عليهم وشجعتهم على اقتراف انواع الجرائم ضدهم. وقد اجتمعت ظروف متعددة أدت إليها. ودراسة أسبابها تلقي ضوءاً على السياسة العامة وعلى دسائس البلاط.

ولعل العقدة الأولى ناتجة عن انحراف المتوكل عن المنتصر. وإني لأرى سبباً مهماً في ذلك وهو اختلاف ميول المنتصر عن ميول أبيه المتوكل. فقد كان الأول يميل إلى الشيعة وآل علي بينما كان المتوكل يكره العلويين أشد الكره.

ويذكر ابن الأثير غضب المنتصر لأن والده كان يسخر في مجلس طربه من الإمام! ويعلق على ذلك قائلاً «فكان هذا من الأسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل»(٦٧) ويذكر الأربلي أن المنتصر «أخذته الغيرة لسب والده للعلويين» وأنه قتله على سبيل المذهب(٦٨).

وصار المنتصر يشترك في دسائس البلاط، فزاد ذلك في إضرام النار وإثارة سخط المتوكل وشكوكه، وأخذ يهين ابنه المنتصر ويحتقره(٦٩). ومما وسع في ثغرة الخلاف بين المتوكل والمنتصر وزيره عبيد الله بن يحيى ونديمه الفتح بن خاقان اللذان شجعا المتوكل على تقريب المعتز وإبعاد المنتصر(٧٠). حتى إنهما أشارا عليه في آخر جمعة من رمضان سنة ٢٤٨ هـ أن يفوض أمامه الصلاة للمعتز فاغتاظ المنتصر «مما زاد في إغرائه»(٧١). وبلغ من كره المتوكل لابنه ومن خوفه من دسائسه أنه فكر بالفتك به وزاد في شتمه وإهانته، ثم أعلن خلعه في مجلس شربه في أواخر أيام حياته(٧٢).

وقد انجرف المنتصر في دسائس الترك. فقد رأوا في سياسة المتوكل حتفهم فقرروا التخلص منه فوجدوا في ولي العهد خير حليف لهم. فقد ارتاع وصيف عندما علم بأن المتوكل أمر بإنشاء الكتب لقبض ضياعه وإقطاعها للفتح بن خاقان(٧٣). ويروي الطبري عن بعض المعاصرين «وذكر بعضهم أن المتوكل عزم. . . على أن. . . يقتل وصيفاً وبُغا وغيرهما من قواد الأتراك، ووجودهم فكثر عيشه بهم» وحدد المتوكل

---

(٦٧) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٦.

(٦٨) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ١٦٥.

(٦٩) Abbot, «Arabic Papyri on the Reign of Gafar Al-Mutawakkil,» p. 90.

(٧٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٦٩.

(٧١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٦٢.

(٧٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٦٤.

(٧٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٦٠.

لذلك يوم الخميس ٥ شوال (بعد مقتله بيومين)[٧٤]. ويذكر المسعودي أن بُغا الصغير «كان توحش من المتوكل . . . وكان (أوتامش) غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك»[٧٥].

وأخذ الأتراك يتكتلون ويداولون الرأي بينهم في الخلاص من المتوكل[٧٦]. وأخذ المنتصر يقوّي مركزه بينهم «فكان يجتذب قلوب الأتراك . . . وكان أوتامش يجتذب قلوب الأتراك إلى المنتصر . . . فكان المنتصر لا يبعد أحد من الأتراك إلا اجتذبه فاستمال قلوب الأتراك من الفراغنة والاشروسنه»[٧٧].

ويظهر أن تصرف المتوكل يوم الثلاثاء وضع آخر حجر في القضية. وانتهى بقتله مساء ذلك اليوم. وبقتله فتح باب الفوضى للدولة العباسية.

(٧٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٦٤.

(٧٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٦٩.

(٧٦) القرماني، **أخبار الدول وآثار الأول**، ص ١٦١.

(٧٧) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٠.

الفصل الثالث

فوضى الأتراك أو فترة التسع سنوات(*)

(*) المنتصر: ٨٦١ ـ ٨٦٢ م، المعتز: ٨٦٦ ـ ٨٩٩ م، المستعين: ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م، والمهتدي: ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م.

هيّأ مقتل المتوكل جحيماً من الفوضى والاضطرابات الشديدة للخلافة، اقترف الترك فيه أنواع الفظائع وانحطت هيبة الخلافة إلى الحضيض، وتشجع أمراء الأطراف على الانفصال ولا سيما في إيران ومصر. وتضاءلت أهمية الوزارة، واختلت الإدارة، وانفسح المجال للتيارات الثورية الاجتماعية المكبوتة أن تظهر بشكل عنيف، كما حصل في حركة الزنج والقرامطة التي زعزعت أركان الدولة وكادت أن تقضي عليها.

ولكن رسوخ قدم العباسيين ونفوذهم الديني على الجماهير وانقسام الترك على أنفسهم وظهور بعض الخلفاء القديرين في آخر هذه الفترة أنقذ الخلافة العباسية مؤقتاً وأعاد لها بعض سلطانها.

تتميز هذه الفترة باستبداد الترك، حتى أصبح الخلفاء ألعوبة بأيديهم يولوّنهم ويعزلونهم حسب أهوائهم ورغائبهم. وقد وصف الفخري هذا الوضع فقال: «ان الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في ايديهم كالأسير، إن شاؤا أبقوه وإن شاؤا خلعوه وإن شاؤوا قتلوه»[1].

فالمنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٢ م) بايعه قتلة أبيه من الأتراك، وفي اليوم التالي بايعه الناس[2]. ثم ألح عليه وصيف وبُغا بخلع أخويه المعتز والمؤيد وتولية ابنه عبد الوهاب خوفاً على نفسيهما من ولي العهد. فأجبر المنتصر أخويه على التنازل، بحجة صغرهما يوم التولية فنزلا عند أمره. وقد ورد في كتاب **التنازل**: «أن أمير المؤمنين المتوكل على الله قلدني هذ الأمر وأنا صغير من غير إرادتي ومحبتي، فلما فهمت أمري، علمت أني لا أقوم بما قلدني، ولا أصلح لخلافة المسلمين، فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حل، وقد حللتكم منها وابرأتكم من ايمانكم»[3]. . .

---

(١) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ٢٢٠.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/١٩١٧ م)، ج ١١، ص ٦٩ ـ ٧١.

(٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٧٧.

وبعد حكم قصير دام ستة أشهر لاقى حتفه، كنتيجة لمرض ضميره أو بالسم(٤).

ثم رشح زعماء الأتراك (بُغا الكبير وبُغا الصغير والتامش) وأحمد بن الخصيب، أحمد بن محمد بن المعتصم ابن أخي المتوكل للخلافة لخوفهم من أولاد المتوكل، ولقّبوه بالمستعين (٢٤٨ ـ ٢٥١ هـ). ويبيّن الطبري كيفية البيعة قال: «اجتمع الموالي. . . وفيهم بُغا الصغير وبُغا الكبير وأوتامش (التامش) ومن معهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والاشروسنة، على أن يرضوا بمن رضى به بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش وذلك بتدبير أحمد بن الخصيب فحلف القوم»(٥). ولم يكن اختيار المستعين مرضياً للجميع فقد «أنكر بعض القواد البيعة» ووقع نزاع بين الأتراك وبين الأبناء لمدة ثلاثة أيام تغلب في آخرها الأتراك(٦).

لم يتمتع المستعين بالحكم طويلاً، لانقسام الأتراك على أنفسهم وتنافسهم على السلطة. فقد أطلق المستعين يد أوتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال، وشاركتهم في السلطة أمّ المستعين القوية، فكانت معظم الأموال تنقل إلى هؤلاء الثلاثة. ولكن السلطة الحقيقية آلت إلى أوتامش. فأخذ وصيف وبُغا يتآمران مع الجند ضده(٧). ونجحت دسائسهما، فثار الأتراك والفراغنة ضد أوتامش بحجة استئثاره بأرزاقهم(٨)، وقتلوه في ربيع الآخر سنة ٢٤٩ هـ.

إلا أن قتل أوتامش لم يحل المشكلة، إذ تنفذ «باغر» دون وصيف وبُغا، وأخذ هذان يدبران المكائد ضده للتخلص منه. وكان باغر قوياً يخشى بأسه ويخاف شره(٩)، فلما أدرك ما يراد به وشعر بأن الخليفة في جانب أعدائه «جمع إليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل أو بعضها مع غيرهم». وبعد أن تأكد من ولائهم له قال لهم: «الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبُغا ووصيفا، ونجيء بعلي بن المعتصم أو بابن الواثق فنعقده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن في غير شيء، فأجابوه إلى ذلك»(١٠).

---

(٤) Nabia Abbot, «Arabic Papyri on the Reign of Gafar Al-Mutawakkil,» *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* (ZDMG), vol. 92, nos. 1-3 (1938), p. 91.

(٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٨٢.

(٦) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ٢١٨.

(٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٨٦.

(٨) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٩.

(٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٩٢.

(١٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٩٢.

وهكذا تجاهلوا كل اعتبار ونظروا إلى مصلحتهم قبل كل شيء. وأصبح المستعين في حالة يرثى لها وسط هذه الدسائس. فبعث إلى وصيف وبُغا وقال لهما: «ما طلبت إليكما أن تجعلاني خليفة وإنما جعلتماني وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلاني!» وأخيراً نجح حزب وصيف وبُغا في قتل باغر فثار أصحابه وتأزم الوضع فاضطر الخليفة وسيداه (وصيف وبُغا) إلى أن ينحدروا إلى بغداد[11]، يصحبهم «جلة العمال والكتاب وبني هاشم وكذلك... الأتراك الذين في جانب وصيف وبُغا»[12]. ولا شك في أن هذه التدابير كانت لصالح وصيف وبُغا فقط. إذ بقي «المستعين لا أمر له والأمر لبغا ووصيف»[13].

اضطرب الأتراك والفراغنة وغيرهم من الموالي في سامراء لانتقال الخليفة، فقرروا إرسال وفد يسترضيه، فأرسلوا «اليه عدة من وجوه الموالي ومعهم البرد والقضيب وبعض الخزائن ومئتا ألف دينار» وسألوه الرجوع» واعترفوا بذنوبهم وأقروا بخطئهم وضمنوا له أن لا يعودوا ولا غيرهم من نظرائهم إلى شيء من ذلك مما أنكره عليهم»[14] ولكنه أبى أن يرجع، ووعدهم بإرسال أرزاقهم بانتظام من مقره الجديد[15]. وكان معنى ذلك فقدان سامراء وإتراكها الدور الرئيس، في الحكم واستناد الخلافة إلى أهالي بغداد. إذا فلا غرابة أن تجد الأتراك في سامراء يقررون خلع المستعين، وإخراج المعتز والمؤيد من السجن، ومبايعة الأول بالخلافة. وهكذا أدى تنازع الأتراك على السلطة إلى وقوع الحرب الأهلية الثانية[16]. وأوكل المستعين أمر الدفاع عن بغداد إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، بينما أعطى المعتز قيادة قواته إلى أخيه أبي أحمد بن المتوكل. وحصنت بغداد بتقوية سوريها وإتمام استدارتهما، وبحفر خنادق حولهما، وضعت حاميات على الأبواب، وجهزت بالمجانيق حولهما، وبثقت المياه بطسوج الأنبار وطسوج بادوريا لقطع طريق الأتراك. وأمر المستعين بقطع الميرة عن أهل سامراء من جهتي الموصل وبغداد، وجنّد ابن طاهر قسماً من أهالي بغداد، واستعان ببعض الخراسانيين الذين قدموا إلى

(١١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(١٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٩٧.

(١٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلّق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٤، ص ٩٠.

(١٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦.

(١٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(١٦) Abbot, «Arabic Papyri on the Reign of Gafar Al-Mutawakkil,» p. 92.

الحج وفرض فروضاً ببغداد[١٧]. كما استعين بقسم من العيارين برئاسة عرفائهم، وعملت لهم تراس من البواري المقيرة ومخال تملأ بالحجارة.

وكتب المستعين إلى ولاة الخراج في كل بلدة وموضع قبل بدء القتال أن يرسلوا الوارد إلى بغداد لا إلى سامراء، كما حاول كل من الخليفتين استمالة أتباع صاحبه والاستعانة بالفرق الموجودة في الخارج. وهرب جماعة من أهل القرى المحيطة ببغداد خوفاً من الترك إلى بغداد نفسها تاركين أمتعتهم ومزارعهم، وبذلك زادوا في صعوبة التموين.

وتوالت فرق المعتز (بين صفر وربيع الأول سنة ٢٥١ هـ) وأحاطت ببغداد من الجانبين (يقدر بعضهم عددها بـ ١٢٠٠٠ جندي في الجانب الغربي و٧٠٠٠ جندي في الجانب الشرقي)[١٨].

ومما تجدر ملاحظته أن المغاربة والأتراك كانوا في جانب المعتز غالباً أو مستعدين للانضمام إليه، وهذا خير دليل على شعورهم بأن سيادتهم متعلقة بنتيجة تلك الحرب. وقد أبدى المدافعون شجاعة ومقدرة عظيمتين، وكتب النصر لهم أول الأمر. ولكن طيلة القتال والحصار الاقتصادي على بغداد أدى إلى ضعف معنويات البغداديين حتى ألحوا على ابن طاهر في طلب الأكل ورفع الحصار.

تقدم ابن طاهر إلى المفاوضة في شروط الصلح، ويظهر أن الانقسام قد دب في صفوف حاشية المستعين قبل ذلك، وفكروا في مصالحهم لما رأوا عبث المقاومة[١٩]. وكان من شروط الصلح خلع المستعين والاعتراف بالمعتز خليفة للمسلمين. وبذل ابن طاهر جهده لإقناع المستعين (١٦ ذي الحجة) بذلك فأبى. فقال له: «لا بد لك من خلعها طائعاً أو مكرهاً» وأجاب أخيراً. وقد يشم المرء رائحة تنبئ بحصول علاقة سرية بين ابن طاهر وجماعة المعتز، فعندما ذكر ابن طاهر توكيد كتاب الشرط، قال له الخليفة: «لا عليك لا عليك، إلا تركتها يا أبا العباس فما لقوم باعلم بالله منك، وقد أكدت على نفسك قبلهم، فكان ما قد علمت»[٢٠].

والمسعودي يصرح بهذا إذ يقول: «لما رأى محمد بن عبد الله بن طاهر ضعف

---

(١٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٩٧.

(١٨) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١١٧.

(١٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٣٧.

أمر المستعين وقوة المعتز كاتب المعتز وجنح إليه ومال إلى الصلح على خلع المستعين، وكان من شروط الصلح الأمان للمستعين ولأهله وولده وما حوته أيديهم من أملاكهم وعلى أن ينزل مكة هو ومن شاء من أهله وأن يقيم بواسط إلى وقت مسيره إلى مكة»[٢١]. «وأن يدفع إليه مال معلوم وضياع تقيمه»[٢٢].

وأخبر ابن طاهر الناس في أول الأمر ببقاء الخليفة في منصبه، على أن يكون المعتز ولي عهده. فلما اكتشفوا الحقيقة، هجموا على دور الأمير وأحاطوا به وهددوه. ولم يهدئهم إلا توسط المستعين[٢٣].

انتصر المعتز، ولكنه اختلف مع الأتراك بعد مدة قصيرة، لأنهم كرهوا ميله إلى المغاربة والفرغانيين (الذين كانوا يكرهون الأتراك لاستئثارهم بالسلطة). ومما زاد الأمر تعقيداً، خلو الخزينة من المال، وعدم تمكنه من دفع الرواتب بصورة منتظمة. على أن بعض القادة وبعض أعضاء العائلة المالكة (ولا سيما أُمّ المعتز) جمعوا أموالاً طائلة. وأدت هذه المشكلة (الرواتب) إلى إجماع كلمة الترك والفرغانيين والمغاربة، يطالبون الخليفة برواتبهم. فاستعان بأُمّه، إلا أنها أنكرت وجود الأموال عندها. ولما عجز عن تلبية طلبهم، قرروا خلعه[٢٤]. فاضطر إلى التنازل بعد أن أمنوه على نفسه وماله وولده، ولكنهم سجنوه وعذبوه إلى أن مات[٢٥].

ثم أسرع الأتراك بإرجاع محمد بن الواثق من بغداد (وكان المعتز قد نفاه إليها)[٢٦]، ولكن موسى بن بُغا الذي كان في خراسان لمحاربة مساور الشارى، لم يعترف بالخليفة الجديد[٢٧]. ولما لاحظ الأتراك عزم الخليفة على تشذيب نفوذهم اصطدموا معه وأنزلوه عن عرشه ثم قتلوه. وكان خلعه في ١٤ رجب بينما وفاته كانت في ١٨ منه بعد رفضه[٢٨] خلع نفسه (يجعل اليعقوبي الوفاة في ١٦

---

(٢١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٠٧.

(٢٢) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٢٢.

(٢٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٣٧، و Reuben Levy, *Baghdad Chronicle* (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1929), pp. 107-114.

(٢٤) Abbot, «Arabic Papyri on the Reign of Gafar Al-Mutawakkil,» p. 93.

(٢٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٢٠؛ الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٦٠ ـ ١٦٢، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٦٦.

(٢٦) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٠.

(٢٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٥.

(٢٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

رجب)[٢٩]. ثم اجتمعت الآراء على مبايعة أحمد بن المتوكل على الله (المعتمد).

بهذه الأساليب الوحشية كان الحزب التركي يملي رغباته حتى جعل من الخلافة مهزلة عامة. وكانت المصالح المادية هي المرشد لهم في تعيين الخلفاء؛ فعند بيعة المنتصر «قال أحمد بن الخصيب لوصيف وبُغا، أنا لا نأمن من الحدثان، وان يموت أمير المؤمنين (المنتصر) فيلي الأمر المعتز فلا يبقى لنا باقية ويبيد خضراءنا، والرأي أن تعمل في خلع هذين الغلامين قبل أن يظفرا بنا، فحمد الأتراك ذلك وألحوا على المنتصر... فلم يزالوا به حتى فعل»[٣٠]. ثم مالوا إلى أحمد بن المعتصم، ولكن أحد الحاضرين ذكرهم بأنه يعتقد أنه أحق بالخلافة من المتوكل والمنتصر وأنه أُخر عنها، وأضاف: «فبأي عين يراكم وأي قدر يكون لكم عنده، ولكن أطيعوا إنساناً يعرف كل ذلك»، فقبلوا رأيه إلا بُغا الكبير فإنه قال: «نجيء بمن نهابه ونفرقه فتبقى معه، وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا فقتلنا أنفسنا». ولكنهم أخيراً نجحوا في إقناع بُغا وتولية أحمد بن محمد المعتصم[٣١]. وفعلاً صدقت الأيام بنبوءة بُغا الكبير.

وكما اتصفت هذه الفترة باستبداد الترك وتلاعبهم بأمور الدولة، كذلك كانت فترة نضال بينهم وبين الخلفاء، حاول فيها الخلفاء مقاومة الترك بل إضعافهم وكسر شوكتهم. فالمسعودي يرى أن المنتصر «عزم على تفريق جميع الأتراك» وأنه خاف أن يُجرّئهم مقتل والده على الخلفاء، فقال يوماً وقد رأى بُغا الصغير مقبلاً وحوله جماعة من الأتراك: «قتلني الله إن لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله». وكانت أول خطوة خطاها لتفريقهم كانت بإرسال وصيف في جمع كثير من الأتراك إلى غزاة الصائفة في طرسوس، ولكن المنية عاجلته ولعل الأتراك سمّوه لما لاحظوا «ما يفعل بهم وما قد عزم عليه»[٣٢].

ثم جاءت خلافة المعتز والمهتدي فكانت فترة نزاع علني بين الخليفة والحرس التركي، فقد لاحظ المعتز منذ أول خلافته أن دسائس الأتراك تحيط به من كل مكان، ونمي إليه أن أخاه المؤيد تحالف مع جماعة من الموالي على خلعه، فسجنه واضطره إلى خلع نفسه. واتصل بالخليفة أن جماعة من الأتراك، كانت تحاول إخراج المؤيد من السجن وتوليته الخلافة. فأمر بقتله (٢٢ رجب سنة ٢٥٢ هـ ـ ٨ آب/

(٢٩) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٥٦.

(٣٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٣١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٣٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩١.

أغسطس ٨٦٨ م)[٣٣]. كما حاول وضع حد لطغيان الأتراك، فكاتبَ (كما يقال) طاهر بن محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان أن يساعده، فأرسل إليه عمه سليمان بن عبد الله: «في خلق كثير من جند خراسان» ودخل سامراء فخلع عليه الخليفة، ولكن وصيفا وبُغا اضطرا الخليفة إلى أن ينحيه ويرسله إلى بغداد (فجاءها في ١٦ ربيع الآخر سنة ٢٥٤ هـ)[٣٤]. وسعى إلى ضرب الحرس بعضهم ببعض، فاصطنع المغاربة والفراغنة وقرّبهم على حساب الترك، وأعمل الحيلة للتخلص من رؤساء الأتراك مستغلاً التنافس بينهم. ونجح فعلاً في قتل بُغا[٣٥]. ولكن الأتراك انتبهوا لذلك، فاجتمعوا بزعامة صالح بن وصيف واتخذوا الأرزاق ذريعة للفتك به ونجحوا في القضاء عليه[٣٦].

جاء المهتدي وكان حازماً كما يظهر، ولعل الأتراك اختاروه لورعه وتقواه، ولضعفه الظاهر. فأظهر المهتدي براعة ودهاء في محاربة نفوذ الأتراك، واتبع في ذلك طريقتين: التقرب من العامة ورجال الدين وجمعهم حوله، وتقسيم صفوف الجيش وضربهم بعضهم ببعض. فبنى قبة للمظالم لها أربعة أبواب وجلس فيها للعام والخاص «وأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحرم الشراب، وأخرج القيان والمغنين من سامراء ونفاهم إلى بغداد، وأبطل الملاهي، وقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء»[٣٧]. وصرح للناس بأنه يريد أن يقتدي بسيرة عمر الثاني، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحيت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء، والديوك وقتل السباع المحبوسة. ولا شك في أن ذلك أرضى العوام وزاد في حماسهم لهم[٣٨]. وكان المهتدي صالحاً ديناً ولكنه كان يفكر في تقوية مركزه، حتى نجده في المعارك الأخيرة بينه وبين الأتراك يعلق المصحف في عنقه ويستنفر العامة ويبيحهم دماء الأتراك وأموالهم[٣٩]، وينادي فيهم في الساعة الحرجة، «انا أمير المؤمنين، قاتلوا عن خليفتكم»[٤٠]. و«يا معشر الناس انصروا خليفتكم»[٤١]. ولكن العوام قوة غير منظمة فلم تنفعه كثيراً.

---

(٣٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٨ ـ ١١٩، و Abbot, «Arabic Papyri on the Reign of Gafar Al-Mutawakkil,» p. 93.

(٣٤) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص٢٢٣.

(٣٥) انظر التفاصيل في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٦، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٣٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٢٠.

(٣٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٠.

(٣٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٤ و١٣٠ ـ ١٣١، والطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧١.

(٣٩) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٢٨.

(٤٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٨، والطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٠٦.

(٤١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٠٤.

كما إنه في نفس الوقت حاول الاقتصاد في النفقة مدفوعاً بإفلاس الخزينة فقلل مثلاً نفقات مائدته من ١٠٠٠٠ درهم إلى ١٠٠ درهم. وقلل من اللباس والفراش و«أمر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم»[٤٢].

وحاول المهتدي تقسيم صفوف الجيش وضرب زعمائه الأقوياء[٤٣]. فحاول استغلال المنافسة بين الأتراك وبين الفراغنة والمغاربة، وقدّم الصنفين الأخيرين، وسعى من وراء ذلك إلى ضرب الترك[٤٤]. كما إنه سعى إلى تفريق الأتراك أنفسهم. وقد نجح في أول الأمر وأيده قسم من الأتراك الصغار (اللاحقين من أولاد الأتراك) ولكنهم رجعوا وانضموا إلى أخوانهم. وأراد استئصال شأفة الزعماء الترك مستغلاً منافستهم على الرياسة، فكتب إلى بايكباك وكان مع موسى بن بُغا ومفلح في طريق خراسان، يغريه سراً بالقيادة العامة للجيش ويأمره بقتل موسى بن بُغا ومفلح ولكن بايكباك انتبه إلى الخطر، وأطلع صاحبيه على الرسالة. فأغاظهما الأمر ويظهر أنهم اتفقوا على أن يظهر بايكباك الولاء للمهتدي ثم يقتله. فرجع بايكباك وموسى ودخل بايكباك سامراء فشعر المهتدي بخطر تآمرهما فجمع حوله الموالي فكان عددهم من المغاربة والأتراك حوالى ١٥٠٠٠، ثم قبض على بايكباك، وعندما شاغب أصحابه أمر بقتله فقتل. فكان ذلك إعلاناً عن الحرب بين الخليفة والأتراك انتهت بخلع الخليفة وأودت بحياته. وبايع موسى والأتراك لأحمد بن المتوكل ولقبوه بالمعتمد على الله ١٣ رجب[٤٥].

وقد كان مقتل بايكباك حجة مباشرة للهياج، ولكنه لم يكن السبب الحقيقي بل السبب الحقيقي هو «مساواة (الخليفة) الفراغنة لهم (الاتراك) في الدار ودخولهم معهم، ووضح عندهم أن التدبير إنما جرى في قتل رؤسائهم حتى يقدم عليهم الفراغنة والمغاربة»[٤٦].

وهكذا انتهت هذه الفترة القصيرة بانتصار الترك، وكادت سلطة الخلفاء أن تنهار نهائياً وسط خصومات الجيش وفوضاه. ولكن القواد الأتراك توقفوا عن إثارة الاضطراب بعد مجيء المعتمد. وربما كان ذلك عائداً إلى تضعضع صفوفهم وإنهاكهم في هذه الفترة. كما إن موسى بن بُغا لم يكن له مساوٍ بينهم، ولما كان الخليفة

---

(٤٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٤٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٠٩، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٢٨.

(٤٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٠٩.

(٤٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥.

(٤٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٠٩.

صنيعته لم يبق مجال للنزاع في البلاط. ولا تنسَ أنه شغل الجند بإخماد الثورات في جهات متعددة[٤٧].

وأدى شلل الحكومة المركزية أثناء الفوضى إلى تقوية الميول الانفصالية عند بعض الأمراء، وإلى قيام الثورات في جهات متعددة. وكان كثير من تلك الثورات شيعية قام بها الزيدية. ففي سنة ٢٤٩ هـ ثار يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي في الكوفة «واجتمعت إليه الزيدية ودعا إلى الرضا من آل محمد». ومن الغريب أن «تولاه العامة من أهل بغداد»[٤٨]. إلا أن الحركة اقتصرت عملياً على الكوفة وفشلت[٤٩].

وفي السنة التالية قاد الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي الثورة بطبرستان وكان عمال سليمان بن عبد الله (عم محمد بن طاهر أمير خراسان) والي طبرستان قد أساؤوا السيرة فيها. ومما زاد الوضع سوءاً أن الخليفة اقطع محمد بن عبد الله (حاكم بغداد ٨٥١ ـ ٨٦٧) من صوافي السلطان قطائع في طبرستان على حدود الديلم «وكان بحذائها أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعي مواشيهم ومسرح سارحتهم»[٥٠]. فجاء ممثل محمد بن عبد الله لإدارة القطائع، فضم الأرض المشاعة إليها وأدى ذلك إلى ثورة عامة قادها الحسن بن زيد واستطاع أن يخضع طبرستان وجرجان، وأن يجمع كلمة سكانها (٢٥٠ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٤ ـ ٨٨٤م)[٥١]. ويعلق بارتولد على هذه الحركة، قائلاً: «وفي هذه الحالة كانت الحركة الشيعية نتيجة للتجاوز على مصالح الفلاحين»[٥٢]. ثم خلفه أخوه محمد بن زيد الذي ضم إليه الديلم سنة ٢٧٧ هـ وبقي يحكم حتى فتح السامانيون المنطقة سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م[٥٣].

---

(٤٧) Harold Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»* (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1928), p. 5.

(٤٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٨٨.

(٤٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٧٩ ـ ٨٧، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٢١.

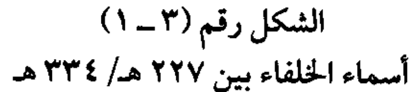
(٥٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٩٠.

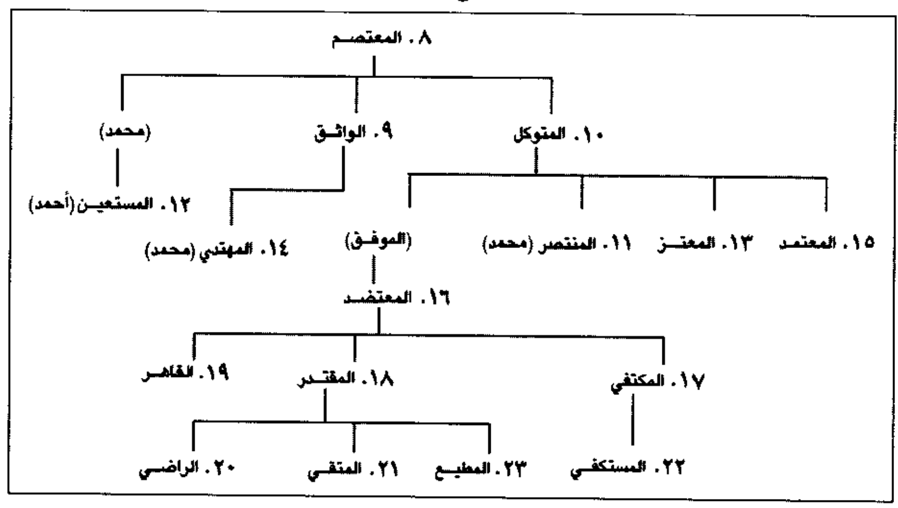
(٥١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٩٠ ـ ٩٣.

(٥٢) W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, translated from the Original Russian and revised by the author with the assistance of H. A. R. Gibb, E. J. W. Gibb Memorial Series, New Series; V, 2nd ed. (London: Luzac and Co., 1928), p. 221.

(٥٣) انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٩٨، و Edward Granville Browne, *Literary History of Persia*, 4 vols. (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1928-), vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsī*, p. 348.

ولنستطرد قليلاً فنقول إن ثورة اخرى قامت في طبرستان سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ـ ٩١٤ م برئاسة حسن بن علي الأطروش العلوي ناصر الحق الذي نشر الإسلام بصورة ناجحة بين أهالي الديلم وطبرستان (وكانوا وثنيين ومجوس)[٥٤]، وجذبهم إلى جانبه وبقوا يخلصون له إلى آخر حياته. ويثني المؤرخون على عدالته. ويظهر أنه كان لحركته صبغة شعبية كحركة الحسن بن زيد. كما إنه قضى على التنظيم الاقطاعي بين الديالمة وتقسيمهم إلى عوائل منفصلة بأراضيها يحكم كلا منها كتخدا أو رئيس[٥٥]. وبقيت طبرستان بيد عائلته حتى ٣١٤ هـ/ ٩٢٨ م حين فتح مرداويج المنطقة وانشأ الإمارة الزيارية. ومما يذكر للعلويين أنهم أثاروا روح التوسع في الديلم وقضوا على التقسيمات الإقطاعية ففتحوا المجال لتوسيع الديالمة. وسنرجع إلى ذلك في حينه[٥٦].


الشكل رقم (٣ ـ ١)
أسماء الخلفاء بين ٢٢٧ هـ/ ٣٣٤ هـ



---

(٥٤) إدوارد غرانفيل براون، **تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي**، نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربي (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٤)، ص ٢٠٧.

(٥٥) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، تحقيق إدوارد ساخو (ليبزج: [د. ن.، ١٨٧٨])، ص ٤٢٢، و Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, p. 214.

(٥٦) انظر: Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, pp. 359-360, and Stanley Lane-Poole, *The Mohammedan Dynasties: Chronological and Genealogical Tables with Historical Introductions* (Westminster: A. Constable and Company, 1894), p. 127.

الفصل الرابع

ثــورة الزنــج(*)

(*) ٢٦ رمضان ٢٥٥ هـ - ٢ صفر ٢٧٠ هـ/ ٥ آب/ أغسطس ٨٦٩ م - ١١ آب/ أغسطس ٨٨٣ م.



١ ـ كانت ثورة الزنج حركة خطرة، هددت كيان الدولة العباسية في الصميم وأشغلتها حوالى أربعة عشر عاماً. ولا يكفي لفهمها فهم طموح الرجل الذي أثارها، أو اضطراب وضع الخلافة فحسب، بل لا بد من تحليل وضع من انضوى تحت لوائه، والدوافع التي دعتهم إلى ذلك، حتى جعلتهم يكافحون بحماس عجيب طيلة الثورة.

وحركة الزنج ـ كما يدل اسمها ـ هي: ثورة العبيد في وجوه أسيادهم، مستهدفين من وراء ذلك رفع منزلتهم وتحسين وضعهم بعد أن نظمهم رجل ادعى النسب العلوي وبث فيهم دعاية لم يألفوها من قبل، ولكنها تتفق وروح العصر الذي عاشوا فيه.

لم يكن استخدام العبيد في المزارع بالأمر الجديد الذي يلفت النظر، وإنما المهم أن نلاحظ ظهور بعض الاتجاهات والأوضاع الجديدة في هذا العصر. فقد شهد القرن الثالث الهجري ـ نتيجة لتحول المجتمع من طور زراعي إلى تجاري ـ نشوء طبقة من المثرين ذات رؤوس أموال عظيمة، تستخدم من الرقيق عدداً كبيراً. ونتيجة لذلك ظهر نوع جديد من التمركز في العمل، كوجود آلاف من الرقيق يشتغلون في محل واحد. وظهرت دعاية جديدة واسعة النطاق متسترة باسم العدالة الدينية، ولكنها ليست في الحقيقة إلا تأكيداً قوياً على تحسين الوضع المالي والاجتماعي للطبقات العامة[١].

٢ ـ كان عامة الثوار عبيداً من زنوج الصومال وزنجبار الذين كانوا يستخدمون في سهول البصرة (فرات البصرة) في كسح السباخ لجعل الأرض قابلة للزراعة وللاستفادة من الأملاح المجتمعة[٢]. وانضم إليهم جماعات من العبيد الهاربين (الأُبّاق) من القرى والمدن المجاورة، تخلصاً من وضعهم السيّئ وهرباً من الضغط الشديد الذي ينوءون بثقله[٣].

---

(١) عبد العزيز الدوري، **دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥)، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧ م)، ج ١١، ص ١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٧.

كان عددهم كبيراً. وكانوا يشتغلون عادةً جماعات تتراوح بين ١٠٠٠ - ٥٠٠٠[٤]. بل قد يكون العدد أكثر من هذا بكثير؛ إذ قد بلغ عدد إحدى الجماعات التي كانت تشتغل على نهر الدجيل خمسة عشر ألفاً[٥]. مما يدل على سعة تمركز العمل بين هؤلاء الزنوج.

ويمكننا أن نقول إن هؤلاء الزنوج كانوا يشتغلون بلا مقابل تقريباً. فقد اقتصرت أجورهم على قوت قليل من الطحين والتمر والسويق[٦]، مما جعل أي وعد بتحسين وضعهم المعاشي إغراء كبيراً لهم.

واذا فقد كان هؤلاء الزنوج يرزحون تحت أوضاع اقتصادية واجتماعية سيئة. فقد كان شغلهم شاقاً، ووضعهم المعاشي سيئاً. ثم إن الشعور بالولاء الذي يربط العبد بسيده في المجتمع الإسلامي كان معدوماً عندهم. كما ساعد هذا التكتل الواسع على بعث شعور عام بينهم بالمصلحة والقيام ضد أسيادهم[٧].

٣ ـ ويظهر أن زعيمهم صاحب الزنج أدرك هذه الحقائق، فحاول أولاً معرفة دقائق وضعهم، فسأل «عن اخبار غلمان الشورجيين وما يجري لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر»[٨] وشدد التأكيد في دعوته على الناحية المادية. ففي سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م خطب الزنج خطبة «ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وانه يريد أن يرفع اقدارهم ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور»[٩].

من هذا يتضح لنا أن صاحب الزنج قصد إلى إدخال بعض التعديلات على الأوضاع الاجتماعية ولكنه لم يقصد إلى إلغاء الرق. فقد حرر العبيد كلما سنحت له الفرصة[١٠]، ولكنه استرق أسرى المسلمين[١١]. وإذاً فقد كانت حركته لفائدة طبقة

---

(٤) **دائرة المعارف الإسلامية**، مج ٤، ص ١٢١٢

(٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٧.

(٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦.

(٧) Theodor Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, tr. by John Sutherland Black (London; Edinburgh: A. and C. Black, 1892), pp. 148-149.

(٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦.

(٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٧.

(١٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ و٢١٣.

(١١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٨٢، ٢٧١ و٢٠٣، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأئمة من عهد أبي بكر الصديق إلى عهد المؤلف سنة ٩١١ هـ** (القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٥١هـ/[١٩٣٢م])، ص ٢٤٢.

العبيد ليس إلا. ولهذا فلا نستغرب فشل دعوته بين أهل البصرة رغم انقسامهم إلى حزبين متناحرين[١٢]. كما إن هذا كان السبب في إغراء أهل القرى المجاورة (بالإضافة إلى سادة الزنج) القائد رميس ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م بكميات كبيرة من المال إن هو أخمد الحركة وأرجع العبيد إلى أسيادهم[١٣].

فكل ما أراده صاحب الزنج هو تحرير العبيد وتحسين حالتهم المادية، ولم يكن ليجول في خلده إنشاء نوع من الاشتراكية كما اعتقد مؤلف **سياست نامة**[١٤]. ولعل عدم وجود برنامج اقتصادي اجتماعي شامل في حركة الزنج يلقي بعض الضوء على فشل محاولة حمدان قرمط للتفاهم مع صاحب الزنج ضد العباسيين[١٥]. ومع ذلك فهناك إشارة إلى وجود «القرماطيين» مع الزنج[١٦].

لم ينسَ صاحب الزنج أن يلبس حركته ثوباً دينياً. ومع إن عامة الزنج كانوا برابرة لا يفهمون العربية، ولا يملكون أي ثقافة[١٧]، إلا أن بعضهم لم يكن إلى هذا الحد من الجهل بالدين واللغة كالفراتية والنوبة[١٨]. وكان لا بد لصاحب الزنج من أن يزودهم بحجة شرعية للقيام ضد العباسيين. فادعى أن العناية الإلهية أرسلته لإنقاذ العبيد المظلومين، وأنها كانت ترشده وتساعده[١٩]. وادعى العلم بالغيب[٢٠] وانتحل النبوة والرسالة[٢١]. ومع أنه ادعى النسب العلوي ليكتسب شرفاً[٢٢]، إلا أنه لم يبشّر بمبادئ شيعية، بل بشّر بمبدأ الخوارج الذي ينكر مبدأ الوراثة (الذي يستند إليه العباسيون والعلويون معاً) ويرى لزوم خلافة أفضل المسلمين ولو كان عبداً حبشياً.

---

(١٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٥ و١٨٤.

(١٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٩، و A. Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century,» (Ph. D. Thesis, University of London, School of Oriental and African Studies, [n. d.]).

(١٤) انظر: قوام الدين أبو علي الحسن بن علي نظام الملك، **سياست نامة، أو، سير الملوك**، ترجمة يوسف حسين بكار، ط ٢ مزيدة ومنقحة (الدوحة: دار الثقافة، ١٩٨٧)، ص ٢٨٥ حيث يقول صاحبها إن مبادئ صاحب الزنج هي مبادئ مزدك.

(١٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٧، و Duri, Ibid.

(١٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٩.

(١٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٧، و Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, p. 174.

(١٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٩.

(١٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ و٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢٠) السيوطي، **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأئمة من عهد أبي بكر الصديق إلى عهد المؤلف سنة ٩١١ هـ**، ص ٢٤٢.

(٢١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ/[١٩٣٨ ـ ١٩٣٩])، ج ٥، ص ١٧.

(٢٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٢٢٢.

وقد صرح بذلك المسعودي بقوله: إنه كان يرى رأي الأزارقة[٢٣]. فكتب على لوائه: «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله»[٢٤]. ولهذا اكتفى بكتابة اسمه واسم أبيه على علمه دون ذكر أصله. هذا إلى أن بساطة هذا المبدأ تجعل فهمه ميسوراً على الزنج، كما إن البصرة لم تكن علوية كالكوفة[٢٥]. واتباعه لمذاهب الخوارج (الأزارقة) يفسر كيف أنه وضع السيف في رقاب أعدائه واسترق بنساءهم وأطفالهم[٢٦]. وهكذا كانت حركة الزنج متلونة بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشأت فيها.

ولننتقل الآن إلى بحث حوادث تلك الحركة والطبري مصدرنا الرئيسي:

١ ـ وقعت حوادث الحركة في السهول الواقعة بين مصب دجلة العوراء (شط العرب الحالي) وبين واسط. وهي أراضٍ تكثر فيها مجاري المياه وتزدحم الأدغال. فقد كانت البطيحة تغمر القسم الشمالي منها، بينما كانت الأراضي حول دجلة العوراء تغمرها شبكة من القنوات التي تزداد كثافة حول البصرة، حتى قدر الجغرافيون العرب عددها بمائة ألف قناة في تلك المدينة.

وطبيعي أن يساعد هذا الوضع الجغرافي على حرب العصابات ويجعل حركة الجيوش المنظمة أمراً عسيراً كما يساعد على إطالة أمد الحرب، وعلى المباغتات التي تنشأ عن جهل المهاجين بالمسالك الخفية والقنوات المتعددة. وأخيراً تجعل إقامة وسائل الدفاع أمراً سهلاً وإزالتها أمر صعب. وقد استغل الثوار هذه الأوضاع، ولم ينجح الجيش العباسي في محاربتهم وإخضاعهم إلا بعد أناة طويلة ومعرفة جيدة للمنطقة بعد خبرة طويلة وخسائر فادحة.

٢ ـ أما بطل الحركة فاسمه بهبوذ[٢٧]. واصله من ورزنين وهي قرية من قرى الري[٢٨]. فكأنه من أصل فارسي، ولكنه تسمى علي بن محمد وزعم أنه عربي.

---

(٢٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلّق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٤، ص ١٣٥.

(٢٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦.

(٢٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦، و Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, pp. 151-152.

(٢٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٣٥.

(٢٧) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ٧٠، والسيوطي، **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأئمة من عهد أبي بكر الصديق إلى عهد المؤلف سنة ٩١١ هـ**، ص ٢٤٢.

(٢٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٧٤.

فانتسب أول الأمر إلى عبد القيس[٢٩]، ثم إلى زيد بن علي (أولاً إلى عيسى بن زيد وبعد خراب البصرة إلى يحيى بن زيد)[٣٠] وقد نفى المؤرخون صحة نسبه العلوي وسكتوا عن عروبته فكأنهم يسلمون بها.

ويظهر أنه كان طموحاً ذا نفس متوثبة تسعى دوماً وراء السيادة، إلا أنه كان صبوراً هادئ التفكير. فقد بدأ يبشر بمذهبه في البحرين واتبعه ناس وقاومه آخرون مما جر إلى فتنة بين الطرفين فرحل عنها[٣١]. ومما يؤيد هذا أن بعض كبار أتباعه (ومنهم سليمان بن جامع أكبر قواده) هم من تلك المنطقة[٣٢].

ثم ورد البصرة سنة ٢٥٤ هـ ثاني مدن العراق وقلبه التجاري، وكانت مسرحاً لفتن مستمرة وخصومات دائمة بين جماعتي البلالية والسعدية ففشل في دعوته. وأحس به العامل فطلبه فهرب إلى بغداد وتتبع بعض أتباعه وأقاربه وألقاهم في السجن. ثم عاد مرة ثانية إلى البصرة سنة ٢٥٥ هـ بعد أن عزل العامل، وبعد أن خرج أهله من السجن نتيجة للاضطرابات التي تلت العزل[٣٣].

٣ ـ وجّه علي بعد رجوعه، دعايته إلى الزنج في السهول الواقعة شرق البصرة وذلك بعد أن مكث فيها مدة يدرس الأوضاع[٣٤] فلاقت دعوته نجاحاً سريعاً. إذ كان الزنج ينضمون إليه جماعات تتراوح بين الخمسين والخمسمائة في المرة الواحدة[٣٥] حتى «اجتمع إليه بشر كثير من غلمان الشورجيين»[٣٦].

ويعتبر يوم الاثنين (٦ أيلول/ سبتمبر ٨٦٩ م/ ٢٦ رمضان ٢٥٥ هـ) يوم قيامه بالثورة. إذ خطب أتباعه «فمناهم ووعدهم أن يقودهم . . . ويملكهم الاموال» وأكد لهم إخلاصه وعطفه[٣٧]. ثم خطبهم خطبة ثانية يوم عيد الفطر (١٠ أيلول/ سبتمبر) ووعدهم بتحسين حالهم وأنهم سيمتلكون الاموال والعبيد والمنازل[٣٨] ويبيّن الطبري أنه كان يستعمل المترجمين لإفهام من لم يعرف العربية من أصحابه[٣٩].

---

(٢٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٤.
(٣٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٤ و٢٢٢.
(٣١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٤.
(٣٢) Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, p. 156.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦ ـ ١٤٧، والطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٣٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦.
(٣٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦.
(٣٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦.
(٣٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٦ ـ ١٧٦.
(٣٨) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٧.
(٣٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٧.

وكان أتباعه من جماعات متنوعة من الزنج وهم أخطر أصحابه وأهمهم، والعبيد الفراتيين (من منطقة الفرات) والنوبة(٤٠).

ويظهر أن بعض الأعراب الساخطين على الخلافة حالفوا الزنج وقاتلوا معهم؛ ففي سنة ٢٥٧ هـ ساعد بعض الأعراب الزنج في الهجوم على البصرة(٤١). وفي سنة ٢٥٨ هـ عاث الباهليون في البطائح فصلب رئيسهم «فانضم باقي رؤسائهم إلى الزنج»(٤٢). وفي سنة ٢٦٦ هـ انتهب الأعراب كسوة الكعبة ثم «صار بعضهم إلى صاحب الزنج»(٤٣).

وتعاون بعض أهالي القرى (في منطقة البصرة) مع صاحب الزنج وأيدوه. فقد: «أتى عليه (صاحب الزنج) أهل الكرخ (قرية على الدجيل)... ودعوا له بخير وامدوه من الانزال بما أراد»(٤٤) وهذا دليل على تذمر الفلاحين من معاملة ملاك الأرض. ويرى نولدكه (Nöldeke) أنه «لولا مساعدة الفلاحين وتغاضيهم لصعب تموين جيوش صاحب الزنج الجرارة»(٤٥).

ومما قوّى الزنج وزاد في شكيمتهم، انضمام الجنود السود من جيوش الخلافة إليهم وخاصة بعد الهزائم المتكررة. ولعل القليل من أصحاب الحرف في المدن اشتركوا مع صاحب الزنج(٤٦).

ويظهر من مفاوضة رميس (قائد فرقة البصرة) مع صاحب الزنج أن الحكومة لم تقدر نياته وحركته حق قدرها؛ إذ عرض رميس عليه الأمان ورد الزنج إلى أسيادهم، على أن يعطيه خمسة دنانير عن كل رأس. ولكن صاحب الزنج رفض ذلك. ولما اضطرب الزنوج وخافوا المفاوضة أكد لهم إخلاصه. كما إن تهاون الحكومة أول الأمر ساعد على انتصاراته السريعة(٤٧).

٤ ـ ويمكننا أن نقسم حرب الزنج إلى فترتين. فالأولى كانت فترة انتصارات متوالية للزنج، ساعدهم عليها اضطراب شؤون الخلافة العباسية وقلة خبرة جيوشها

---

(٤٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٩.

(٤١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٨.

(٤٢) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٦.

(٤٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٤٥) Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, p. 154.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

(٤٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٩ وما بعدها.

وضعف قيادتها. والفترة الثانية وتبدأ سنة ٢٦١ هـ، أي بعد تعيين أبي أحمد الموفق للمرة الثانية لضرب تلك الحركة.

بدأ علي بن محمد أعماله بغارات على القرى المجاورة وعلى مدينة البصرة العظيمة. وقد أظهر في القيادة مقدرة فائقة. فكان رابط الجأش، بعيد البصيرة، كثير التروي مقدراً للظروف في حركاته وسكناته. وقد ساعده نظام الجاسوسية والاستطلاع اللذان كانا نشيطين عنده على معرفة أحوال أعدائه وسيرهم العسكري؛ ففي سنة ٢٥٥ هـ أخبر بتجمع جيش أكثره من أهل البصرة على نهر بيان لمقاتلته، فهاجمه ومزق صفوفه شر تمزيق بعد أن اطلع بواسطة جواسيسه على عدده وتشكيلاته العسكرية[٤٨]. ولعله كان يأمل أن ينضم إليه أحد الحزبين المتناحرين فيما بينهما في تلك المدينة. إلا أن آماله ذهبت ادراج الرياح لا سيما بعد أن اتحد الحزبان ضده[٤٩].

وبعد أن هزم فرقتين بصريتين أخريين، ألح على أصحابه بالانتظار، ولكن نشوة النصر حملت بعضهم على التعجيل فكانت العاقبة وخيمة عليهم، إذ قد مُنوْا بهزيمة منكرة (١٢ من ذي القعدة ٢٥٥ هـ/ ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ٨٦٩ م). ولكن البصريين لم يكونوا جيشاً مدرباً يعرف التعقيب كما لم تكن لهم قيادة تقارن بقيادة الزنج. فلا غرابة أن مزق الزنج جمعهم بعد يومين (١٤ من ذي القعدة) ولم ينج منهم إلا الشريد[٥٠]. وكان هذا الانتصار كافياً لتحطيم معنوية البصريين ولأن يصبح اسم الزنج مثاراً للرعب والخوف في تلك المنطقة[٥١].

وهنا ظهرت عبقرية صاحب الزنج، فلم يسمح لجنده بمهاجمة البصرة لأنه اقتنع بعدم وجود الموالين له فيها، وأدرك أن ليس باستطاعته إخضاع تلك المدينة. هذا بالإضافة إلى أن جيشه كان بحاجة إلى الراحة والاستجمام بل والاستعداد من جديد[٥٢].

ثم رأى ضرورة إنشاء مركز حصين له ولجنده، ليسهل تنظيم الجيوش وتعبئة الحملات منه. فانسحب إلى سبخة في آخر أنهار البصرة (سبخة أبي قره بين نهر أبي قره ونهر الحاجر) وأمر أصحابه بانشاء الأكواخ من سعف النخيل والطين فيها. ثم انتقل في السنة التالية إلى نهر أبي الخصيب وأنشأ على ضفته الغربية مدينة حصينة بأسوارها

---

(٤٨) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٤٩) Nöldeke, Ibid., p. 155

(٥٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٥١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٩١.

(٥٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٩١، و Nöldeke, Ibid., pp. 155-156.

وخنادقها، علاوة على الحصانة الطبيعية من الأدغال الكثيفة والقنوات العديدة وأمر أصحابه بالبناء فيها. وبنى حصوناً على الجانب الشرقي لأبي الخصيب التجأ إليها في أيامه الأخيرة. واعتنى بصورة خاصة بتموينها فكانت الأراضي التي حولها عامرة، وجعلها قريبة من البحر والبادية ليسهل الحصول على الأقوات من الجانبين. وسنرى أن قضية التموين كانت عظيمة الأهمية في حرب الزنج[٥٣].

٥ ـ استنجد البصريون بالخليفة فأرسل إليهم القائد التركي جعلان. ويدل تركيب جيشه على جهل بمنطقة الحرب. فقد كان أكثر أصحابه فرساناً، ولذلك لم يجد «إلى لقاء صاحب الزنج سبيلاً لضيق الموضع، بما فيه من النخل والدغل (ويمكن ذكر القنوات أيضاً) عن مجال الخيل»[٥٤]. فبقي ستة أشهر قابعاً في مكانه دون حركة. ولكن خصمه الداهية استغل جهله وارتباكه فبينت له وشتت أصحابه. فاضطر جعلان إلى أن ينسحب إلى البصرة[٥٥]. وبهذه المناسبة نقول إن التبييت واستعمال الكمناء كانا من أبرز أساليب الزنج في هذه الحرب. وقد لاقت منهما جيوش الخليفة الأمرّين.

وبعد هذا الانتصار تشجع الزنج (ونقلوا مركزهم إلى الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب) فهاجموا الأبلة، المرفأ التجاري العظيم (وهي على أربع ساعات من البصرة) في ٢٥ رجب سنة ٢٥٦ ـ ١٩ حزيران/ يونيو سنة ٨٧٠ وكانت دورها من الخشب. فاقتحموها ونهبوها وأضرموا النار فيها «فاحترق وقتل خلق كثير وغرق خلق كثير»[٥٦]، فزاد الرعب من خطر الزنج، حتى إن أهل عبادان (وهي مدينة على جزيرة في مصب دجلة العوراء) فتحوا له أبواب مدينتهم ليسلموا مما صارت إليه الأبلة، «فدخلها أصحابه فاخذوا من كان بها من العبيد (وحرروهم) وحملوا ما كان فيها من السلاح إليه ففرّقه عليهم»[٥٧].

وبعد أن تقوى جيشه بالرجال والسلاح والمال، صار يطمع بالأهواز فهاجم جبّى ودخلها، والإحراق والنهب يصحبه، ثم تقدم إلى مدينة الأهواز نفسها (عاصمة على نهر كارون الحالي) فانسحبت الحامية منها. ويظهر أن هذا ضمن لها شيئاً من الاعتدال في المعاملة. فدخلها في ١٢ رمضان سنة ٢٥٦/ سنة ٨٧٠ م[٥٨].

---

(٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٩١، ٢١١ ـ ٢١٢، ٢٧٦ و٣١٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١١.

(٥٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١١، و Nöldeke, Ibid., p. 157.

(٥٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٣.

(٥٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٣.

(٥٨) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٣ ـ ٢١٤، و Nöldeke, Ibid., p. 158.

وهكذا استطاع هذا المغامر على رأس عصابات الزنج أن يبسط سلطانه على أراضٍ واسعة، وكان صدى انتصارات مروعاً وخاصة لأهل البصرة، حتى «انفض كثير من أهلها عنها وتفرقوا في بلدان شتى»[٥٩]. ولم يكتف الزنوج بذلك بل تجاوزوا إلى طرق المواصلات بين بغداد والبصرة فقطعوها وأحلوا بالتجارة أضراراً فادحة.

٦ ـ ولكن وضع الخلافة بدأ يبشر بالتحسن؛ فقد قتل المهتدي وبويع للمعتمد، وانتقلت السلطة الحقيقية إلى أخيه أبي أحمد الموفق فأظهر أبو أحمد من المقدرة والكفاءة والمثابرة ما مكّنه من استرجاع هيبة الخلافة وسلطتها في المقاطعات المركزية على الأقل[٦٠].

ولعل انشغال الموفق منعه من الاشراف على حرب الزنج بنفسه فأرسل جيشاً بقيادة حاجبه سعيد الحاجب في رجب في سنة ٢٥٧ هـ واستطاع أن يهزم فرقة من الزنج قرب معقل، ولكن صاحب الزنج جاءه بغتة فهزمه وهزم خلفه في القيادة ـ وهو منصور بن جعفر الخياط ـ دون أن يجد صعوبة ما[٦١].

ثم عاد الزنج فقطعوا مواصلات البصرة بدجلة، وضربوا عليها حصاراً اقتصادياً وخربوا المدن التي حولها ثم قرروا مهاجمتها، والبصرة يومئذ تعاني الغلاء الشديد والعصبية التي كانت تمزق صفوف حاميتها الضعيفة[٦٢]. وكانت قيادة الزنج العليا إلى علي بن ابان الملهبي، يساعده يحيى بن محمد. وفي ١٧ شوال سنة ٢٥٧ هـ/ ١٨ أيلول/ سبتمبر سنة ٨٧١ م هجموا على البصرة أثناء صلاة الجمعة من ثلاث جهات واعملوا فيها النهب والسلب والقتل ثم انسحبوا خوف الكمين. ولكنهم عادوا فيها الكرّة يوم الاثنين وفتحوها وانتقموا من أهلها انتقاماً مريعاً وقتلوا ما يقارب من ٣٠٠٠٠٠ وسبوا النساء والأطفال حتى حصل كثير منهم على عشرة أرقاء أو أكثر «وهرب الناس على وجوههم» وأحرقوا المسجد الجامع. ولما فكّر علي بن ابان في التساهل مع السعدية وأرسل وفدهم إلى صاحب الزنج ولعله (كان يطمح إلى استمالتهم) رفض صاحب الزنج مقابلة الوفد ونحى علياً وأفرد يحيى بالقيادة «لموافقة ما كان يحيى أتى من القتل اياه»[٦٣].

لم يكن احتلال البصرة احتلالاً دائماً أمراً ممكناً، فانسحب الزنج منها، ولذا

---

(٥٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٥.

(٦٠) Nöldeke, Ibid., p. 158.

(٦١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٦٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٦٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢١٩ ـ ٢٣١.

استطاع جيش محمد بن المولد الذي أرسله الخليفة على أثر النكبة (ذو القعدة سنة ٢٥٧ هـ) أن يحتل البصرة والأبلة دون مقاومة تذكر. ولكن محمداً لم يكن أسعد حظاً من أسلافه، إذ بيّته صاحب الزنج وانقض عليه ومزق جيشه(٦٤).

وهكذا فشل قواد الخليفة في الصمود أمام أساليب صاحب الزنج المختلفة، مما أدى إلى إضعاف معنوية جيوشهم وزاد في ثقة أعدائهم.

٧ ـ ثم تسلم الموفق القيادة العليا وتقدم إلى البصرة مع «جيش عظيم لم يرد على الخبيث مثله» فرعب الزنج لعدده وعدته. واصطدم الجيشان في ١٢ جمادى الأولى سنة ٢٥٨ هـ فهزم جيش الموفق. ثم استدعى صاحب الزنج قائده علي بن ابان من الأهواز ليجمع قواه وليضرب الجيش العباسي الضربة الحاسمة. أما الموفق فقد عرج على الأبلة ليلم شعث جيشه وليستعد من جديد(٦٥). ولكنه عندما رأى تجمع الزنج لم يرتح لمحله فانسحب إلى واسط. ولكنه فشل من جديد في مقابلة الزنج. وزاد الوضع سوءاً التهام النار معسكره(٦٦). وربما كان لتحرج موقفه واضطراب شؤون الخلافة في سامراء، ما دعاه إلى استخلاف محمد بن المولد والعودة إلى العاصمة (٢٦ ربيع الأول ٢٥٩ هـ/ ١٣ كانون الثاني/ يناير ٨٧٣ م).

٨ ـ أرسل صاحب الزنج جيشاً إلى الأهواز بعد رجوع الموفق إلى مقر الخلافة وتمكن من احتلال العاصمة مرة أخرى. وربما كان صاحب الزنج يفكر في توسيع سلطانه إلا أنه لم يقصد الاحتلال الدائم؛ إذ كان يعلم أنه هو وزنجه في مأمن ما دام بين الأدغال والقنوات. ولعل توسعه إلى الأهواز والى جهات واسط لم يكن يقصد به احتلال منظم بقدر ما كان للحصول على الغنائم والمؤن وبث الرعب في قلوب أعدائه(٦٧).

ثم أُسندت قيادة الجيش العباسي إلى القائد التركي الكبير موسى بن بُغا (وكانت إليه ولاية الشرق) فوافى البصرة في ذي القعدة سنة ٢٥٩ هـ/ أيلول/ سبتمبر ٨٧٢ م فأرسل فرقة إلى الأهواز. ثم رجع عبد الرحمن وعسكر في بيان لمحاربة صاحب الزنج فدامت المناوشات بين الطرفين إلى أن استقال موسى بن بُغا من منصبه(٦٨). ويظهر أن موسى جعل واسطاً مركزاً له، ولكنه ضجر من محاربة الزنج، كما إن أحد الثوار

(٦٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٢٢.
(٦٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٢٥.
(٦٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٢٨.
(٦٧) Nöldeke, Ibid., p. 161.
(٦٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

احتل مقاطعة فارس وطرد نائب موسى منها. فاستعفى هذا (سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م) من محاربة الزنج ومن ولاية المشرق «لكثرة المتغلبين عليه وانه لا قوام له بهم» فانتقلت الولاية وقيادة الجيش إلى أبي أحمد الموفق.

استغل الزنج هذا الوضع المضطرب فعادوا الكرّة على الأهواز للمرة الثالثة ودخلوها واعملوا في أهلها القتل والسبي ونهبوا ما استطاعوا عليه[٦٩]، حتى يقدر عدد القتلى في هذه المرة بخمسين ألف[٧٠].

ثم هبّت زوبعة على الخلافة أشغلتها فترة من الزمن، وأفسحت المجال أمام الزنج ليوسعوا نفوذهم وليعيثوا في جنوب العراق، إذ انشغل الموفق بخطر جديد وهو الخصومة بين يعقوب بن الليث الصفّار وبين الخليفة، فأسند حرب الزنج إلى أبي مسرور البلخي. ولم تمض إلا مدة قصيرة حتى جاء يعقوب قاصداً الاستيلاء على بغداد. فقابله الموفق عند دير العاقول (بين واسط وبغداد) ٨٧٦ م ـ ٢٦٢ هـ وأسرع البلخي إلى نصرة الخليفة وتعزيز جيشه. فبقيت واسط مفتوحة أمام الزنج. وقد تعلق مصير الخلافة بتلك الفترة. ولكن الظروف أبت إلا أن ينتصر الموفق وأن يمنى يعقوب بالفشل[٧١].

لم ينجح الزنج في التفاهم مع الصفّارين. فقد جرت مناوشات بين أتباع يعقوب (بعد انسحابه إلى الأهواز) وبين علي بن ابان سنة ٢٦٣ هـ. كما رفض يعقوب اقتراح الزنج بالتحالف معهم لأنه اعتبرهم مارقين، ولكن الضرورة العسكرية جعلت الطرفين يقنعان بالهدنة[٧٢].

توسع الزنج بقيادة سليمان بن جامع في منطقة دست ميسان والبطيحة. وقد لاقوا بعض المساعدة من بعض القبائل الساكنة في البطيحة[٧٣]. ودخلوا «واسطا فخلى الناس البلد وخرجوا حفاة على وجوههم، وخرجت واسط بالنار»[٧٤] ثم تقدموا شمالاً حتى وصلوا النعمانية «فاحرقوا سوقها واكثر منازلها وسبوا» ثم وصلوا جرجرايا وصاروا على مسافة قريبة من بغداد ولا غرابة أن ترك أهل السواد قراهم والتجأوا إلى بغداد تخلصاً من أذى الزنج[٧٥].

(٦٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٣٥.

(٧٠) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١٩.

(٧١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

(٧٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٤٦.

(٧٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٢٣ ـ ٢٤٠، و Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, p. 162.

(٧٤) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ٤٥.

(٧٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

٩ ـ وتحسن وضع الموفق سنة ٢٦٥ هـ إذ توفي يعقوب وعقد خلفه الصلح معه بعد أن بذل الموفق في سبيل ذلك جهوداً كثيرة[٧٦].

تفرغ الموفق حينئذ لحرب الزنج. فحشد جيوشه وركّز قواه لضربهم الضربة القاضية. كما إن خبرته بحرب الزنج، والتجارب التي استفادها من فشل الجيوش العباسية المتكرر جعلته بصيراً بحربهم ممن تقدمه. فأدرك ضرورة التأني والتروي وأخذ يسعى إلى بلوغ غايته بهدوء وتؤدة. فلا يخاطر إلا قليلاً، بل لا يخطو خطوة لا يتأكد منها. ومنذ هذا الحين انعكست الآية وصارت الأمور تجري في صالح العباسيين[٧٧].

أرسل الموفق (بعد دخول الزنج واسطاً) ابنه أبا العباس (المعتضد فيما بعد) في ربيع الثاني ٢٦٦ هـ لحربهم بعد أن استعرض جيشه وأسطوله قرب بغداد. وكانت سفن الأسطول متنوعة، فبعضها كبار تستعمل حصوناً أو للنقل وبعضها صغار تسع الواحدة ٢٠ ـ ٤٠ رجلاً كانت أعدت للهجوم في الدرجة الأولى. وبلغ عدد جيشه رجالاً وفرساناً «عشرة آلاف رجل في أحسن زي وأكمل عدة».

ولما سمع الزنج بمقدمه غلب على أذهانهم أنه فتى غر «لم تطل ممارسته للحروب وتدريبه عليها» (كان عمره ٢٣ سنة) فقرروا حشد أكبر قواهم لصدمه بقوة ترجعه على أعقابه. ولكن أبا العباس أظهر من المقدرة والبراعة ما مكّنه من فلّ جيش سليمان بن جامع وتمزيقه[٧٨].

ثم فكر أبو العباس في بناء معسكر لجيشه يأمن فيه شر المباغتة فاختار العمر «وهو فرسخ من واسط» وقال «اجعل معسكري اسفل واسط ليأمن من قومة الزنج . . . واعرض . . . . عن مشاورة أصحابه واستماع شيء من آرائهم»[٧٩].

ولـمّ سليمان شعث جيشه وأتته نجدات جديدة. ثم اصطدم بأبي العباس فاندحر وولى هارباً[٨٠].

وأظهر أبو العباس إلى حنكته في القيادة جرأة وشجاعة. فكان يتعرف المواقف والممرات والمسالك بنفسه ويهتم كثيراً بالاستطلاع[٨١]، وأظهر بُعد نظر في معالجة

---

(٧٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٥٤.

(٧٧) Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, p. 164.

(٧٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٧٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٨٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٦٢.

(٨١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦.

الأمور. فلما شتّت فرقة من الزنج في عبدسى استبقى رئيسها وضمه إلى قواده[٨٢]. وهذا أول تطبيق لسياسة جديدة كان لها نجاح كبير في اجتذاب قواد الزنج والثوار وجنودهم. وكلما تحرج وضع صاحب الزنج، ازداد استئمان أصحابه من الموفق، مفضلين أمانه وهباته على تحمل الأخطار، بينما كان هذا يظهرهم بالخلع على مرأى من أصحابهم ليطمعهم وليفت في أعضادهم، حتى اضطر الزنج في آخر الأمر إلى اتخاذ تدابير فعالة لمنع تسلل اتباعه إلى الموفق.

لاحظ صاحب الزنج قوة أبي العباس وكثرة جيوشه، فأرسل إلى علي بن ابان أن يترك الأهواز ويصير بجميع من معه إلى ناحية سليمان بن جامع ليجتمعا على حرب الجيش العباسي. فلما سمع الموفق بذلك توجه (صفر سنة ٢٦٧ هـ/ تشرين الأول/ أكتوبر ٨٨٠ م) إلى ساحة القتال بجيش كبير وتراجع أبو العباس إلى مقره بجوار واسط لينتظر والده[٨٣].

سار الموفق وابنه لمهاجمة حصن الزنج الشمالي (المدينة المنيعة) الذي بنوه قرب واسط. فهزم جيشهم في ٨ ربيع الثاني واحتل الحصن واستنقذ (٥٠٠٠) أسيرة مسلمة. وهكذا صار تحرير الأسيرات المسلمات يتكرر حتى نهاية الحرب. ثم «اذن للناس . . . في أخذ ما كان فيها اجمع، وأمر بهدم سورها وطم خندقها واحراق ما كان بقي فيها من السفن»[٨٤].

ثم أخذ الموفق يستعد لضرب حصن الزنج الثاني (المدينة المنصورة) بجوار طهيثا «وكان الزنج قد حصنوها بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يمتنعون به»[٨٥]. فأمر بإصلاح سفن الجسور ليحدرها معه واستكثر من العمال والآلات التي يسد بها الأنهار ويصلح بها الطرق للخيل[٨٦]. ولعل من المفيد أن نذكر أن الموفق كان يهتم كثيراً في كل تقدم يقوم به بضمان مواصلاته الخلفية. وهذا ولا شك يتطلب كثيراً من الهندسة. فكان المهندسون (المدنيون) يلعبون دوراً هاماً في هذه الحرب[٨٧].

وفي ٢٧ ربيع الثاني دخل العباسيون طهيثا، وأجلوا الزنج عنها «وأفلت

---

(٨٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٦٥.
(٨٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٦٦.
(٨٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٨٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧١.
(٨٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٦٩.
(٨٧) Nöldeke, Ibid., pp. 170-171.

سليمان بن جامع في نفر من أصحابه» كما «استنقذ الموفق من نساء أهل واسط وصبيانهم ومما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة زهاء ١٠,٠٠٠ . . . حملوا إلى واسط ودفعوا إلى أهلهم»[٨٨]. وأمر الموفق بهدم سورها وطم خنادقها، كما أمر بتتبع الزنج اللاجئين إلى الآجام، والعفو عنهم وإكرامهم بدل التنكيل بهم «لما دبر من استمالتهم وصرفهم عن طاعة صاحبهم»، وأرسل فرقة لتتبّع سليمان «والهرب معه» وأن يستمر في طلبهم حتى يوافي دجلة العوراء، ثم أمر «بفتح السكور التي كان الفاسق أحدثها ليقطع بها الشذا (القوارب الحربية) عن دجلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبي الخصيب»[٨٩]. وقد كان إنشاء السدود في الأنهار والقنوات من أساليب الزنج المشهورة لمنع سفن أعدائهم من المرور ولعرقلة حركات جيوشهم.

ثم خلّف الموفق ابنه أبا العباس في واسط، وسار إلى الأهواز لينقذ أهلها من المهلبي. أما صاحب الزنج فاضطرب لما حل بجماعته وكتب إلى المهلبي وإلى بهبوذ بن عبد الوهاب (وإليه يومئذ ولاية ما بين الأهواز وفارس) بالقدوم وذلك حذراً من هجوم الموفق على مدينته[٩٠].

وبعد أن وطد الموفق الوضع في الأهواز وجمع الذخائر والمؤن دعا ابنه وقائديه في منطقة البطيحة إلى نهر المبارك. فاجتمع كلهم هناك في ١٥ رجب سنة ٢٦٧ هـ/ ١٨ شباط/ فبراير ٨٨٦ م[٩١].

١٠ ـ ومنذ هذا الوقت اقتصر الزنج على مدينتهم المختارة وأصبحت الحرب تدور حولها حتى انتهت بتدميرها وتمزيق شمل الزنج.

بدأت المناوشات بحملة استطلاعية قام بها أبو العباس. ومما يذكر أن أحد قواد الزنج واسمه منتاب استأمن أثناء هذه الحملة مع جماعة من أصحابه «فكان ذلك مما كسر الخبيث وأصحابه»[٩٢] وهذا أول قائد استأمن.

ثم كتب الموفق **مراعاة التعاليم الإسلامية** كتاباً إلى صاحب الزنج يدعوه فيه إلى التوبة والكف عن القتال «ويعلمه أن التوبة له مبسوطة والأمان له موجود، فإن هو نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخطها الله ودخل في جماعة المسلمين محا ذلك ما

(٨٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧١.
(٨٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧١.
(٩٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٩١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧٤.
(٩٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧٥.

سلف من عظيم جرائمه وكان له به الحظ الجزيل في دنياه»[٩٣]، فلم يزده الكتاب إلا نفوراً وإصراراً ولعله كان يأمل أن تحصل فتن تشغل عدوه.

قضى الموفق خمسة أيام في الاستعداد، وفي اليوم السادس سار إلى المختارة «فأشرف عليها وتأملها فرأى من منعتها وحصانتها بالحصون والخنادق المحيطة بها وما عور من الطرق المؤدية إليها واعد من المجانيق والعرادات والقسي الناوكية وسائر الآلات على سورها ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعي السلطان. ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلط أمره»[٩٤]. ولم يكتف الزنج بهذه التحصينات بل استمروا بإنشاء وسائل دفاع جديدة من أنواع مختلفة طيلة فترة الحصار حتى كانوا يلجأون إلى بثق القنوات أحياناً[٩٥]. وكان الزنج (٣٠٠,٠٠٠) أكثر عدداً من جيش الموفق (٥٠,٠٠٠) ولكن تجهيزات الموفق كانت أحسن، وتموينه أنظم، وكان جيشه يزداد باستمرار بانضمام فرق جديدة إليه.

وبعد مناوشات أولية استأمن أصحاب سمير يتين، فأكرمهم الموفق وخلع عليهم «وأمر بادنائهم من الموضع الذي يراهم فيه نظراؤهم فكان ذلك من أنجع المكايد التي كيد بها الفاسق، فلما رأى الباقون ما صار إليه أصحابهم من العفو عنهم والاحسان إليهم رغبوا في الأمان وتنافسوا فيه»[٩٦]. وتوالت حوادث الاستئمان كثيراً. وكان لها أثر سيئ على وضع الزنج، إذ تقوى جيش عدوهم على حسابهم وليس ذلك لقوة المستأمنين العسكرية فقط بل لاطلاعهم على وضع الثوار ومعرفتهم الدقيقة بمنطقة الحرب وخططهم العسكرية. وهذا الأثر المعنوي كان له المفعول القوي على نفوس الباقين، وعلى علاقة صاحب الزنج بأتباعه، حتى صار يشك في ولائهم[٩٧].

لاحظ الموفق حصانة المختارة، إلا أنه لم يفكر في أن يأخذها بهجوم مفاجئ بل قرر المطاولة. فانتقل يوم ١٥ شعبان سنة ٢٦٧ هـ إلى معسكر جديد بإزاء المختارة وأنشأ هناك المدينة الموفقية؛ وأخذ يقوي نفسه. ويصف الطبري استعداداته بتفصيل فيقول: «واحتاج إلى الاستكثار من الشذا وما يحارب به في الماء، فأمر بإنفاذ الرسل في حمل المير في البر والبحر وإدرارها إلى معسكر بالمدينة التي سماها الموفقية. وكتب

---

(٩٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٩٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧٦.

(٩٥) Nöldeke, Ibid., p. 167.

(٩٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧٦.

(٩٧) Nöldeke, Ibid., p. 167.

إلى عماله في النواحي في حمل أموال إلى بيت ماله في هذه المدينة. وأنفذ رسولاً إلى سيراف وجنابا في بناء الشذا والاستكثار منها لما احتاج إليه من ترتيبها في المواضع التي يقطع بها المير عن الخائن وأشياعه، وأمر بالكتابة إلى عماله في النواحي بإنفاذ كل من يصلح للاثبات في الديوان ويرغب في ذلك»[٩٨]. ومن هذا يتضح أنه جعل لمشكلة التموين أهمية كبرى في خطته الحربية.

ولقد نجح في قضية التموين فعلاً، إذ «وردت المير (بعد شهر أو نحوه) متتابعة يتلو بعضها بعضاً، وجهز التجار صنوف التجارات والأمتعة وحملوها إلى المدينة الموفقية، واتخذت بها الأسواق وكثر بها التجار والمتجهزون من كل بلد». وكذالك فتح طريق التجارة البحرية فوردت المراكب بعد أن قطعها الزنج «قبل ذلك بأكثر من عشرين سنين» واتخذ الموفق دوراً لضرب الدراهم والدنانير[٩٩].

وكما اعتنى الموفق بتأمين تموينه، اهتم اهتماماً خاصاً بفرض حصار اقتصادي على الزنج لأنه رأى ذلك أنجع طريق للقضاء عليهم[١٠٠]. فقطع سيل الاتصال بينهم وبين الخارج، ولما سمع بورود سمك من البطيحة، وبوصول أعراب من البادية إلى معسكرهم بحجة شراء التمر، منع جلب السمك منعاً باتاً وأنشأ سوقاً خاصاً للأعراب في البصرة يستطيعون أن يأخذوا منها ما يشاؤون من التمر. وشدد الحصار في السنة التالية في البر والبحر والنهر «فلم يكن للزنج سبيل إلى بر ولا بحر، فضاقت عليهم المذاهب واشتد عليهم الحصار»[١٠١].

وحاول صاحب الزنج اختراق الحصار الاقتصادي وتهديد تموين الموفق فأرسل حملة (من ١٠,٠٠٠) إلى جهة البطيحة لأخذ ما وجدوا من طعام وميرة وليقطع الميرة الواردة من مدينة السلام وواسط عن الموفق ولأنه «انقطعت عن الخبيث مادة الميرة وسدت عليه» فأسرع الموفق بإرسال فرقة مزقتها[١٠٢]. وهكذا فشلت المحاولة الهامة الوحيدة لرفع الحصار الاقتصادي.

وقد ظهر أثر الحصار الاقتصادي على الزنج بوضوح. فقد ازداد استئمان الزنج هرباً من سوء الوضع المعاشي. فما أن جاء ذو الحجة سنة ٢٦٧ هـ حتى «جعل الزنج يهربون في كل وجه ويخرجون إلى أبي أحمد في الأمان». ولما سد صاحب الزنج

---

(٩٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧٩.
(٩٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(١٠٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٨٠.
(١٠١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٩١.
(١٠٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٨٤.

المسالك على أتباعه ووكل بفوهة الأنهار ليمنع خروج السفن المستأمنة هرب بعض الزنج خلال المعارك إلى جيش الموفق[١٠٣].

فافتضحت خطط الزنج لتبييت عسكر الموفق أكثر من مرة، لكثرة هذا الانضمام بل لقد صرنا نسمع بمباغتة فرقهم وتشتيتها[١٠٤]. واضطر آخرون إلى أن «تفرقوا في القرى والأنهار النائية عن عسكرهم في طلب القوت» فأمر الموفق جماعة من قواد غلمانه السودان بمطاردتهم[١٠٥].

وفي ذي القعدة سنة ٢٦٧ هـ/ تموز/ يوليو ٨٨١ م قام الموفق بهجوم على المختارة ونجح أصحابه في دخولها ثم تراجعوا عنها ليلاً[١٠٦]. وفي ربيع الثاني سنة ٢٦٨ هـ هاجم الموفق المختارة وأمر أصحابه بهدم السور وأن لا يدخلوا المدينة. فلما خالفوا أصيبوا بخسارة فادحة[١٠٧]. ولنلاحظ أن هذه الهجمات كان يقصد منها الدرجة الأولى تخريب الجسور والقناطر وإزالة وسائل الدفاع، وكانت النار اليونانية والرصاص المذاب تستعملان في الهجوم، كما إن سفن الحريق كانت تستعمل لتخريب القناطر[١٠٨]. وتقدم الموفق بهدم أسوار المختارة بالتدريج حتى أضعف تحصينها، ولكن الحوادث أسعفتها مؤقتاً؛ إذ أصيب الموفق (٢٥ جُمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) بسهم في صدره فأعاقه عن الإشراف على القتال حتى شفي في شعبان[١٠٩]. ثم شغل الموفق بمشكلة المعتمد الذي هرب في ٤ شعبان سنة ٢٦٩ هـ/ ٨٨٢ م من سامراء قاصداً اللجوء إلى ابن طولون. ولكن اسحق بن كنداج عامل الموفق على الموصل، قبض عليه وأرجعه إلى سامراء. وبذلك تخلص الموفق من هذه المشكلة.

وسرعان ما استغل صاحب الزنج هذه الفرصة لتقوية وسائل دفاعه وإعادة بناء بعض الثلم التي ثلمت في السور[١١٠].

ثم رجع الموفق إلى متابعة القتال. ففي ١٩ شعبان سنة ٢٦٩ هـ/ شباط/ فبراير

(١٠٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(١٠٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(١٠٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(١٠٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٨٦.
(١٠٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٨٧.
(١٠٨) Nöldeke, Ibid., p. 162.
(١٠٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٩٩.
(١١٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٠١.

٨٨٣ م هاجمت شذواته وسميرياته (مراكب حربية) المختارة حتى وصلت قصر صاحب الزنج فأحرقته وخرج هارباً[١١١]. ثم اعتل الموفق بوجع المفاصل فأعاقه عن متابعة القتال حوالى شهرين فاستفاد صاحب الزنج من ذلك في بناء قنطرة وجسرين على نهر أبي الخصيب ولكن الموفق دمرها بعد شفائه[١١٢].

وهاجم الموفق جيش الزنج في غرب نهر أبي الخصيب فمزقه وأحرق الجسر الثاني على النهر[١١٣]. وأفلت ابن صاحب الزنج انكلاي سليمان بن جامع إلى الجانب الشرقي.

لقد وصلت حوادث الاستئمان الآن إلى حد بعيد؛ ففي ٢٦٨ هـ قتل صاحب الزنج ابن ملك الزنج لما عرف أنه يريد اللحاق بالموفق[١١٤]. والآن (سنة ٢٦٩) تقدم انكلاي نفسه بطلب الأمان. فأجابه الموفق إلى كل ما سأل، ولكن والده عذله وثناه عن رأيه[١١٥]. ثم استأمن الشعراني ـ قائد مؤخرة جيش صاحب الزنج ـ (تردد الموفق في منحه ذلك لفظاعة أعماله فتنكر الزنج فقبل أمانه. وكان التحاق الشعراني بجيش الموفق ضربة لجيش صاحب الزنج[١١٦]. ولما عين صاحب الزنج محله شبل بن سالم استأمن أيضاً بدوره. «وكان شبل هذا من عدد الخبيث وقدماء أصحابه وذوي الغناء والبلاء في نصرته»[١١٧].

وأخذ الموفق يكثر من إرسال الفرق لإلقاء الرعب في نفوس الزنج وللاطلاع على دقائق مسالكهم. ثم اقتنع بأن الوقت قد حان لشن الهجوم الأخير. فجمع المستأمنة من الزنج وذكّرهم بفضله وإحسانه «وأنهم من الخبرة بمسالك عسكر الخبيث ومضايق طرق مدينته والمعاقل التي أعدها للهرب إليها على ما ليس عليه غيرهم. فهم أحرياء أن يمحضوه نصيحتهم ويجتهدوا في الولوج على الخبيث والتوغل إليه في حصونه حتى يمكنهم الله منه ومن أتباعه». فشكروه وأقسموا له يمين الإخلاص[١١٨].

انتقل صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب دون أن يهمل

---

(١١١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.
(١١٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(١١٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٢ ـ ٣١٣.
(١١٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٩٥.
(١١٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٣.
(١١٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٤.
(١١٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٤.
(١١٨) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

الجانب الغربي. وجمع الموفق السفن في البطيحة ودجلة. ولما أتم استعداداته هجم في ٧ ذي القعدة من أماكن متعددة على شرق نهر أبي الخصيب وغربه. وكان عدد جيشه خمسين ألفاً «من الرجالة والفرسان في أحسن زي وأكمل هيئة»(١١٩). فدخلوا المدينة المختارة واستولوا على قصر صاحب الزنج ونهبوه وسبوا أهله. فانتقل إلى قلعة أخرى (لعلها في المدينة نفسها) وهي قصر المهلبي. ثم خطا آخر خطوة في ضرب تموين صاحب الزنج، إذ أحرق بيادره «وكان إحراق ذلك من أقوى الأشياء على إدخال الضعف على الفاسق وأصحابه إذ لم يكن له معول في قوتهم غيره»(١٢٠).

وردت للموفق في هذا الوقت نجدات جديدة. فقد في ٢ ذي الحجة عشرة آلاف بين فارس وراجل من سامراء. كما إن لؤلؤ قائد شمال سوريا انفصل عن سيده أحمد بن طولون وفاوض الموفق في الانضمام إليه وجاء «بجيش عظيم من الفراغنة والأتراك والروم والبربر والسودان وغيرهم»(١٢١).

واستمرت الأموال تتوارد على الموفق، وجاءه كثير من المتطوّعة للجهاد، مثل عامل ايذج أحمد بن دينار في الأهواز ومعه جمع كثير من الرجال والفرسان وألفي رجل من البحرين وبعض المتطوعة من فارس وبلدان أخرى(١٢٢).

وكان الهجوم العام على شرق أبي الخصيب وغربه وفي النهر يوم ٢٧ محرم سنة ٢٧٠ هـ/ ٥ آب/ أغسطس ٨٨٣. وكان عدد الرجالة حوالى ٥٠,٠٠٠ والفرسان ٢,٠٠٠ «سوى من عبر من المطوعة وأهل العسكر من لا ديوان له». ومع إن الموفق أزال السكر الذي أحدثه الزنج أخيراً في نهر أبي الخصيب(١٢٣). إلا أن ضيق المواضع وكثرة الخنادق والأنهار بقيت عائقاً أمام عسكر الموفق حتى في هذا الهجوم.

وعلى كل حال فقد مزقت قوة الزنج وهرب رئيسهم وابنه وسليمان(١٢٤). ثم أعاد الموفق الكرّة يوم ٢ صفر ٢٧٠ هـ/ ١١ آب/ أغسطس ٨٨٣ م. فحطم البقية من عصاباتهم وقتل رئيسهم وأسر سليمان بن جامع وعلي بن ابان المهلبي فصلبا. ولم يبق

---

(١١٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٧.
(١٢٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٨.
(١٢١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٨ ـ ٣١٩، و Nöldeke, Ibid., p. 172.
(١٢٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٢١.
(١٢٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١٨ ـ ٣١٩
(١٢٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٢٢.

إلا شرذمة استعصت في أدغال البصرة وعاشت فيها ثم اضطرت إلى طلب الأمان[١٢٥].

وأصدر الموفق منشوراً إلى العالم الإسلامي يبشرهم بانتهاء الخطر ويدعو «أهل البصرة والأبلة وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها» للرجوع إلى مدنهم المهجورة[١٢٦].

وهكذا انتهت حركة الزنج بعد أن تركت وراءها آثاراً فظيعة من التدمير والتخريب. ولعل أهم ما فيها الروح الطبقية التي اتصفت بها، والدور الكبير الذي لعبته الحرب الاقتصادية خلالها، وأهمية الهندسة المدنية في أعمالها، وانكشاف ضعف الخلافة وقواها الكامنة في وقت واحد.

---

(١٢٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٢٦.

(١٢٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٢٦.

الفصل الخامس

الإمـــارات الفارسيـــة

تمهيـد

لم ينس المأمون أنه مدين للفرس بانتصاره على أخيه الأمين، فاعتمد عليهم في إدارة الولايات الشرقية أكثر من أسلافه. ولكن سياسة بني سهل أكدت له شكوك أسلافه في ولاء الأرستقراطية الفارسية فنكّل بهم وبذلك فشلت آخر محاولة للتعاون الوثيق بين العباسيين وبين أرستقراطية الفرس، وأصبح كل منهم يخشى الآخر. ثم إن رجوع المأمون إلى بغداد واقتفاءه خطة أسلافه خيب أمل جماهير الفرس في إحياء حكم العدل الذي وعد به العباسيون. ولذلك حصل بعض الوئام بين مصلحة الأرستقراطية الفارسية ومصلحة الجماهير ضد السيادة العباسية. ولعل هذه الأوضاع تلقي بعض الضوء على ظهور الإمارات الفارسية (كالطاهرية والصفارية والسامانية) في القرن الثالث للهجرة. ومع إن من الممكن اعتبارها الثمرة الأولى للوعي الفارسي، إلا أنها لم تتخذ سياسة قومية كما سنرى.

أولاً: الطاهريون

طاهر بن الحسين ٢٠٥ ـ ٢٠٧ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٢٢ م

طلحة بن طاهر ٢٠٧ ـ ٢١٣ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٢٧ م

عبد الله بن طاهر ٢١٣ ـ ٢٣٠ هـ/ ٨٢٨ ـ ٨٤٤ م

طاهر بن عبد الله ٢٣٠ ـ ٢٤٨ هـ/ ٨٤٤ ـ ٨٦٢ م

محمد بن طاهر ٢٤٨ ـ ٢٥٩ هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٧٢ م

١ ـ كان لبني طاهر نفوذ محلي في خراسان قبل خلافة المأمون. فقد عيّن مصعب جد طاهر لولاية بوشنج (في منطقة هرات) ثم خلفه ابنه الحسين (المتوفى سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٤ ـ ٨١٥ م) وتلاه حفيده طاهر في الولاية.

ولعب طاهر وابنه عبد الله دوراً كبيراً في خلافة المأمون. فهو مدين لهما بالدرجة الأولى في انتصاره على الأمين وفي تهدئة مملكته المضطربة. ومع إن المأمون

عرف لهما ذلك وكافأهما بالمناصب الرفيعة، إلا أنه حاول إبعادهما عن خراسان لأنه خشي نفوذهما هناك وخاف طموح طاهر. ولكن طاهراً لم يقنع بتعيينه والياً على الجزيرة وبرئاسة شرطة بغداد والإشراف على المعاون في السواد بل كان يتطلع إلى خراسان، وقد نجح بالتآمر مع الوزير أحمد بن أبي خالد في الحصول على رغبته. وتظهر قلة ثقة الخليفة بطاهر من أن التوالية لم تتم إلا بضمان شخصي من الوزير بحسن سلوكه.

وتحققت شكوك المأمون في طاهر إذ أسقط هذا اسم الخليفة من الخطبة سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م، معلنا بذلك الانفصال عن بغداد ولكنه توفي فجأة. وربما كان للمأمون أو لوزيره يد في ذلك. ثم عيّن المأمون طلحة بن طاهر محل والده. ولعل ذلك كان بدافع رغبة الخليفة في إزالة الشكوك التي حامت حول وفاة طاهر الفجائية. ولكن التوالية بحد ذاتها تدل على النفوذ المحلي القوي الذي كان لآل طاهر في خراسان.

أما تولية عبد الله بن طاهر بعد أخيه، فربما كانت نتيجة لثقة المأمون بقابليته وبإخلاصه. ولكنها أكسبت العائلة صفة وراثية في الحكم ونفوذاً وسلطة محلية لم يتمتع بها أحد قبلهم. وفي خلال حكم عبد الله وصلت العائلة أوج قوتها وثبتت أصولها لدرجة لم يعد معها ممكناً نقلهم إلى أية ولاية أخرى. حتى أن المعتصم رغم كرهه لعبد الله لم يجرؤ على عزله بل اكتفى بتشجيع الخطط السرية لقتله. ومن الجهة الأخرى، كان عبد الله أكيس من والده فلم يخن الثقة عندما اطّلع على مؤامرة المعتصم، ولكنه كان حازماً يعرف أنه آمن ما دام في بلاده ولذلك لم يذهب إلى الحج رغم تدينه[1].

ولما توفي عبد الله، فكر الواثق في تولية اسحق بن إبراهيم المصعبي على خراسان، ولكنه عدل عن ذلك قبل سفر الوالي الجديد وعيّن طاهراً بن عبد الله محل والده. وأخيراً ولي محمداً بن طاهر (وكان يميل إلى اللهو والمجون) فخسر إمارته وبلاده ليعقوب الصفّار سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م.

٢ ـ كان الطاهريون من الأرستقراطية وبنفس الوقت كانوا الممثلين الرسميين لسلطان العرب (نظرياً على الأقل) فلم يكونوا يمثلون الميول القومية أو الشعبية كما كان أبو مسلم والدعاة الآخرون. ولعل خير وصف لحكمهم أنه «الاستبداد المهذب» ولكنهم في محاولتهم لإنشاء حكم مستقر، ولإعادة السلم إلى البلاد، لم يغفلوا العامة،

---

(١) فكّر مرة في الحج واستشار كاتبه فقال له: «أيها الأمير أنت أحزم من أن تقوم بعمل غير متزن كهذا». فوافقه، أوضح وأنه إنما أراد أن يختبره.

بل اتخذوا موقف الحماة لها ضد ظلم الطبقات الأرستقراطية، فشجعوا التعليم وعنوا بالأمور الزراعية. كما أنهم قاوموا عناصر الاضطراب والثورة بين الطبقات العامة.

وتظهر هذه الاتجاهات جلية في حكم عبد الله بن طاهر الذي اهتم بشؤون الزراع كثيراً. فعندما لاحظ كثرة الخصومات بينهم على توزيع المياه، دعا إليه جماعة من الفقهاء وطلب إليهم شرح الأسس الفقهية لمشاكل الري. فوضعوا له كتاب **القني** الذي صار دليل الزراع فيما بعد. كما إنه أوصى عماله بحفظ مصالح الفلاحين لأن «الله يطعمنا بأيديهم ويرحمنا بدعائمهم ويمنع الإساءة إليهم». واهتم بنشر التعليم بين الطبقات الواطئة، مما يدل على مدى عطفه عليهم.

٣ ـ أما صلات الطاهريين ببني العباس، فكانت حسنة على العموم وكانوا يدفعون جزية سنوية إلى الخلفاء بصورة منتظمة[٢] وبقوا أنصاراً مخلصين للعباسيين بحكم ظروفهم ومصالحهم. فقد حكموا (حكماً مستقلاً عملياً) أهم الولايات (كرمان، الري، خراسان، ما وراء النهر) هذا بالإضافة إلى أن شرطة بغداد وولايتها كانت بيدهم[٣]. وقد رفع المنصب الأخير من قدرهم كثيراً حتى أن محمداً لعب دوراً هاماً في النزاع بين المستعين والمعتز (٢٥١هـ/ ٨٥٦م). وقد وافق دور قوتهم وسيطرتهم (زمن عبد الله بن طاهر) عهد قوة الخلافة، كما كان دور ضعفهم وانحطاطهم موافقاً لدور تضعضع الخلافة.

وقد حملت الظروف بني طاهر على التعاون مع الخلافة أحياناً فلما ادعى محمد بن القاسم العلوي الإمامة في خراسان، طارده عبد الله وأسره وأرسله إلى المعتصم سنة ٢١٩هـ/ ٨٣٤م. ولما ثار المازيار بن قارن في طبرستان تعاون المعتصم وعبد الله بن طاهر على ضربه. ولا ننسى أن كون الطاهريين سُنّة جعل مصالحهم الدينية تتفق ومصالح العباسيين. ففي مقاومتهم المستمرة للعلويين في طبرستان وللخوارج في سجستان كانوا يخدمون القضية العباسية وقضيتهم في آن واحد لأن القضاء على الحركات الدينية في بلادهم كان ضرورة سياسية. هذا إلى أن العباسيين كانوا يقدرون خدمات الطاهريين ويقربونهم. فنجدهم على الأكثر يأخذون جانبهم في النزاع مع

---

(٢) بلغ مقدار الجزية التي يدفعها الطاهريون (٣٨,٠٠٠,٠٠٠) درهم سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م من وارد (٤٨,٠٠٠,٠٠٠) على قول قدامة. انظر: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، **كتاب المسالك والممالك**، باعتناء ميخائيل جان دوغويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩)، ص ٣٨؛ أبو الفرج قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩)، ص ٢٥٠، وأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **البلدان**، باعتناء ميخائيل جان دوغويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٧ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢).

(٣) كان محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بين ٢٣٧ ـ ٢٥٣هـ.

الصفّارين ويبقون شرطة بغداد في أيديهم (على الأغلب). حتى سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م.

وفي الأخير نقول إن الطاهريين رغم تمتعهم بحكم ولاياتهم بشكل وراثي واستقرار مراكزهم إلا أنه لا يمكن اعتبارهم مستقلين تماماً عن بغداد.

ثانياً: الصفّارون

١ ـ كانت سجستان ولاية تابعة للطاهريين، وكان سكانها شديدي الشكيمة مما ساعد على انتشار المذهب الخارجي بينهم. ولم يستطع الطاهريون إخضاعهم بل على العكس ازدادت فعاليتهم بضعف هؤلاء. وأصبح الخوارج مصدراً للفوضى والاضطراب في البلاد. فتشكلت فرق من المتطوعة لحماية السكان من عبثهم ومن بين صفوف المتطوعة هذه ظهرت السلالة الصفارية.

٢ ـ كان يعقوب بن الليث (بن معدل) وأخوته من بلدة قرنين على فرسخ من زرنج عاصمة سجستان. وكان يعقوب يشتغل عند أحد الصفّارين كصانع ليس غير وبأجرة قدرها ١٥ درهماً في الشهر. أما أخوه عمرو فكان نجاراً أو مكاراً. ثم انخرطوا في سلك المتطوعة واستطاعوا جمع بعض الأتباع حولهم وحسبك أن تعلم أنهم اشتركوا في إحدى فرق الغزاة وعلى رأسها درهم بن نصر بن صالح.

وقد أقلق الغزاة والي سجستان حتى اضطر إلى التخلي عنها. فصار درهم الحاكم الحقيقي، وعيّن يعقوب حاكماً لبست، ولكن مآثر هذا وشخصيته غطت على درهم بنظر الجيش، فتخلى له عن الرئاسة (الأحد ٦ محرم ٢٤٧هـ/ ٢٢ آذار/ مارس (٨٨٦م).

وطد يعقوب نفوذه في سجستان وأخضع الخوارج ونشر الأمن والسلام في البلاد لضمان المواصلات والاستقرار. ثم بسط نفوذه على وادي كابل والسند ومكران، أخيراً فتح (سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م) ميرات وبوشنج. ثم استولى على كرمان سنة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م وقد كان المعتز أعطاها له ولوالي فارس علي بن حسن في الوقت نفسه ليوقع الخصومة بينهما. فدحر يعقوب خصمه وأخذ فارس (مؤقتاً) بالإضافة إلى كرمان. وأرسل إلى الخليفة بعض الهدايا مؤكداً ولاءه.

وفي آذار/ مارس سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م أرسل يعقوب وفداً إلى الخليفة مع بعض الهدايا للمفاوضة على بعض الولايات. وكان الموفق يود تشجيع يعقوب للتوسع شرقاً مستهدفاً إبعاده عن جواره. فلما أراد يعقوب سنة ٨٧١م فتح فارس من جديد وصلته رسالة بتوليته على بلخ والأراضي الشرقية حتى الهند بالإضافة إلى كرمان وسجستان. وفعلاً ضم يعقوب (إن لم يكن فعل ذلك من قبل) ولاية بلخ واستولى على غزنة وكابل. ولما لاحظ ضعف محمد بن طاهر، قرر فتح خراسان، ولم يعد حجة لذلك؛

إذ ادعى أن محمداً بن طاهر لجّأ أحد أعدائه. فدخل نيسابور في ٢ آب/ أغسطس سنة ٨٧٣م/ ٢٦٠هـ وأسر محمداً بن طاهر.

ويعطي غرديزي رواية ممتعة عن المفاوضة بين محمد وبين يعقوب قبل فتح نيسابور، إذ كتب محمد إلى خصمه، إن أتيت بعهد من الخليفة فأظهره لأسلم البلاد إليك، وإلا فأرجع. فافتضى يعقوب سيفه من تحت سجادته وقال: «هذا عهدي وهذا لوائي». ثم كتب للخليفة مبيّناً أنه إنما فعل ذلك لطلب الخراسانيين، لأنهم ملّوا الفوضى الناتجة عن ضعف محمد. وكرمز لولائه للخلافة أرسل رأساً خارجياً تمكن مدة ثلاثين سنة أن يدعو نفسه أمير المؤمنين (بجوار هيرات). وفي السنة التالية دحر الحسن بن زيد أمير طبرستان قرب سارى، ولكنه لم يستطع فتح المنطقة لبرودة ولصعوبة المواصلات، وأعقب هذا ببعث رسالة إلى الخليفة مبيّناً له فيها أنه كسر الخارجيين من العلويين وأنه أسر ستين من آل علي.

(٣) ولكن نفوذ الطاهريين كان قوياً في بغداد، مما جعل الخليفة ينحاز إلى جانب محمد بن طاهر. ففي سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م جمع حجاج الولايات الشرقية وقرأ عليهم منشوراً صرح فيه بأن يعقوب مغتصب وخارج عن الدولة. فما كان هذا التصريح إلا ليحثّ الصفّار على الاستمرار بمشاريعه. فسار إلى فارس (صيف سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٥م) وهزم وإليها ثم تقدم إلى الأهواز، ودخل رامهرمز فاضطربت بغداد وحاولت استرضاءه بمختلف الوسائل. فدعا الموفق تجار الولايات الشرقية وتلا عليهم عهد تولية يعقوب على خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس وشرطة بغداد. وأرسل إليه سفاره. ولكن يعقوب الذي فقد كل احترام وإجلال للخليفة رفض طلب الخليفة وأجاب بكل وقاحة أنه سيقرر في بغداد نفسها ما يريد.

تقدم يعقوب في منطقة ميسان، فقابله الموفق (يصحبه الخليفة وعليه بردة الرسول وفي يده القضيب) عند دير العاقول (٥٠ ميلاً من بغداد) ودارت على يعقوب الدائرة. (الأحد ٢١ رجب ٢٦٢هـ ٨ نيسان/ أبريل ٨٧٦م) وأنقذ محمداً بن طاهر من الأسر، وعيّن محمداً جديداً والياً على خراسان ولكنها كانت ولاية صورية فلم يترك ابن طاهر بغداد.

انسحب يعقوب إلى جنديسابور ولكنه تردد في الهجوم ثانية. وحاول الموفق التفاهم معه لأنه كان مهدداً من قبل الزنج. فرفض يعقوب ومات يوم ١٥ شوال سنة ٢٥٦هـ/ ٩ حزيران/ يونيو ٨٧٩م بعد أن نجح في تثبيت سلطانه في جنوب إيران فقط.

كان يعقوب جندياً قديراً، ذا شخصية جبارة، محبوباً من جنده ولم يحاول

اختلاق الحيل الشرعية لتبرير أعماله، بل اعتبر السيف أساس حقه. ووجه جل اهتمامه لتكوين جيش مطيع له، والحصول على المال الضروري لإتمام حروبه. فأثقل ولاياته بالضرائب، ولجأ أحياناً إلى مصادرة أموال بعض المثرين.

وكان يقرر الأمور بنفسه، ولكنه لم يظهر مقدرة في الإدارة؛ إذ لم يربط ولاياته بنظام موحد. وبقي في حياته الخاصة جندياً بسيط الذوق يرتدي ملابس القطن ويجلس على الأرض وينام ورأسه على الدرع، إلا أنه كان يظهر الأبهة في الحفلات.

أما ميوله فليست واضحة. فمن المؤرخين (القزويني ونظام الملك) من يعتبره شيعياً. ولكن يظهر أنه جمع حوله كل المتذمرين من الطبقات الواطئة.

٤ ـ بايع الجند لعمرو (٢٦٥ ـ ٢٨٧هـ/ ٨٧٩ ـ ٩٠٠م) بعد أخيه فجنح إلى السلم مراعاة للظروف، وصالح الخليفة. فعيّن والياً على خراسان وفارس، وأصفهان، وسجستان، وكرمان والسند وحاكماً عسكرياً لبغداد وسامراء. وبذلك أصبح الحاكم الشرعي (في نظر الفقهاء والمتطوعة) لهذه الولايات[٤] وتمكن من إخضاع فارس سنة ٨٨١ وخرسان سنة ٨٨٢ بعد القضاء على الثورات فيها.

ثم ساءت علاقته ببغداد. إذ أراد الموفق (بعد ضرب الزنج) استرجاع فارس وفاوض عمرواً في ذلك ولكن دون جدوى. وفي سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٥م جمع المعتمد حجاج خراسان وقرأ عليهم كتاباً بإقالة عمرو من ولايته ثم أمر بلعنه على المنابر. وبعد سنتين فتح الموفق فارس وهزم عمرواً بن الليث. ولكن الموفق كان يعرف قوة الصفّارين. فأعاد توليته سنة ٨٨٩ على كل ولاياته (حتى فارس) ثم نحاه عن منصبه في شباط سنة ٢٧٦هـ/ ٨٩٠م.

جاء المعتضد سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م إلى الحكم فاعترف بعمرو نهائياً حاكماً شرعياً لخراسان. وأرسل إليه العهد مع لواء أظهره عمرو في صحن داره بنيسابور ثلاثة أيام ليراه الناس.

٥ ـ وطمع عمرو في بلاد ما وراء النهر، ولكن مركز السامانيين فيها كان قوياً. أما الخليفة فاضطر بطلب من عمرو إلى أن يقرأ على الحجاج الخراسانيين (شباط/ فبراير سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) بياناً بعزل إسماعيل بن أحمد الساماني عن ما وراء النهر وتولية عمرو محله. ثم أرسل رسولاً يحمل الهدايا والعهد إلى نيسابور. فلما وضع

---

(٤) وهناك ما يدل على أنه حاول التفاهم مع الطاهريين. فعيّن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائباً عنه في بغداد. ولكن أحد الثوار في خراسان فتح نيسابور سنة ٢٦٦هـ/ ٨٨٠م، ودعا إلى إرجاع الطاهريين أصحاب الحق الشرعي وخطب باسمهم فأفسد هذا علاقة عمرو بالطاهريين.

العهد بين يدي عمرو قال: «ما هذا؟» فقال الرسول: «هذا الذي سألته» فقال عمرو: «وما أصنع به، فإن إسماعيل بن أحمد لا يسلم إلى ذلك إلا بمئة ألف سيف!» فقال «أنت سألته فشمر الآن لتتولى العمل في ناحيته».

وفي ربيع سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م حطم جيش عمرو قرب بلخ، وأسر عمرو نفسه ثم أرسل إلى بغداد، فسر الخليفة بذلك. ثم قتل (نيسان/أبريل سنة ٩٠٢) والخليفة على فراش الموت. ولعل حكومة بغداد كانت تشجع إسماعيل سراً على المقاومة.

٦ ـ كانت سلطة عمرو تستند إلى السيف. ولذا اهتم بضمان الموارد الكافية لحكومته. وكانت عنده ثلاثة بيوت للأموال: الأول وارده من الخارج والضرائب الأخرى ومنه نفقات الجيش. والثاني وارده من الضياع والأملاك الخاصة ومنه تصرف نفقات البلاط. أما الثالث فوارده من المكوس والأحداث والمصادرات، ومنه كانت تدفع الهدايا للمخلصين المقربين. وقد ضبط رعيته بواسطة نظام الجاسوسية القوي الذي كان يتبعه.

٧ ـ طبق الصفّارون مبادئ العدل والمساواة بين أتباعهم، فأدى ذلك إلى تأييد الطبقات الفقيرة في سجستان لهم. كما أرضى كبرياء السجستانيين القومي كون الزعيم من بينهم.

ودعا الصفّارون للخليفة، لقوة نفوذه الديني، وطلباً لجلب رضاء الجماهير. فنجد مثلاً أن العلماء والمتطوعة لم يعترفوا بشرعية ولاية عمرو إلا بعد وصول عهد الخليفة إليه. لذا استمر الصفّارون يذكرون اسم الخليفة في الخطبة وعلى النقود حتى بعد قطع علاقتهم ببغداد.

ومع ذلك حاول الصفّارون تحديد سلطة الخليفة، رغم كونها اسمية. فكان يعقوب أول من أدخل اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة، وعمرو أول من نقش اسمه على الدنانير (بينما حرم الطاهريون من ذلك). ويظهر أنهم لم يدفعوا جزية منتظمة للخلافة.

والصفّارون أول من هاجم سلطة العباسيين في إيران، وحاول إنقاص سلطتهم الدنيوية إلى أدنى حد. ومع أن عمرواً ويعقوب لم يحققا كل مطامحهما إلا أنهما نجحا في التأكيد على حق الأمراء التابعين ليشاركوا الخليفة في شارتي السلطان ـ الخطبة والسكة. وأنشأوا سُنّة عدم دفع جزية منتظمة لحكومة لبغداد. وما أخذوه غصباً سمحت به الخلافة طوعاً لمن أتى بعدهم.

كان الصفّارون سُنّةً، ولهذا كانوا حلفاء بغداد الطبيعيين ضد العلويين والخوارج.

ثالثاً: السامانيون[5]

١ ـ أصلهم من عائلة زردشتية نبيلة في بلخ. أسلم جدهم سامان خدات على يد الوالي الأموي أسد بن عبد الله القسري وسمى ابنه أسداً. وقد سطع نجم أبناء أسد في خلافة المأمون، فعيّنهم والي خراسان غسان بن عباد (٨١٩ ـ ٨٢١) حسب رغبة الخليفة ـ لبعض الولايات. فكان نوح على سمرقند وأحمد على فرغانه، ويحيى على الشاش والياس على هيرات. ثم توفي الياس ففقدوا هيرات، ولكنهم حافظوا على سلطانهم في ما وراء النهر.

وعمّر أحمد أكثر الأخوة فصار إليه حكم سمرقند وفرغانة والشاش وقسمٌ من الصفد وبعض المدن التركية (سنة ٨٥٥م). وبوفاته سنة ٨٦٤م أصبح ابنه نصر رئيساً للعائلة واتخذ سمرقند مركزاً له.

وفي سنة ٨٧٤م ضم السامانيون بُخارى إذ اضطرب فيها الوضع وصارت غرضاً للطامعين فدعا أهلها نصراً الساماني، فأرسل أخاه إسماعيل وأسند إليه حكمها بالنيابة عنه (٢٥ حزيران/ يونيو ٨٧٤). وفي السنة التالية (٨٧٥) حصل نصر على عهد من الخليفة المعتمد بولاية ما وراء النهر بكاملها.

واستطاع إسماعيل أن يقضي على عصابات اللصوص التي كانت تتشكل من الفلاحين المتذمرين، وأن يسترضي النبلاء دون أن يعتمد عليهم. فلما قوي مركزه دب الشك في تصرفاته إلى أخيه نصر وأدى ذلك أخيراً إلى نزاع طويل انتهى سنة ٨٨٨م بأسر نصر، فعامله إسماعيل بكل احترام وخاطبه كرئيس لا كأسير ثم رجع إلى سمرقند وبقي يحكمها كرئيس اسمي للعائلة حتى وافته المنية في ٢١ آب/ أغسطس ٨٩٢.

٢ ـ ولما توفي نصر أوصى أن يخلفه أخوه إسماعيل. وفي السنة التالية جاء عهد الخليفة بتولية هذا على بلاد ما وراء النهر وفي الوقت نفسه قضى إسماعيل على إمارة أشروسنه وضمها إلى ولايته. وأصبحت خراسان ولاية تابعة له بعد أن قضى على عمرو بن الليث. ثم هزم محمداً بن زيد العلوي في طبرستان واستولى على بلاده.

٣ ـ لم يظهر بعد إسماعيل أمير قدير، ولكن متانة الإدارة السامانية، وتوطد حكمهم في ما وراء النهر خاصة، مكّنهم من المحافظة على ملكهم مدة مئة سنة.

ومما يسترعي الانتباه قبل انحلال سلطان السامانيين، أن نصراً (الثاني) حفيد أحمد اتهم بميول إسماعيلية، فاضطر إلى أن يتنازل تجاه مؤامرة الحرس ضده لابنه نوح

---

(٥) ٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩م.

سنة ٩٤٣م. ومنذ ولاية نوح أخذت بوادر الانحلال تظهر في الأسرة السامانية وأخذ نجمهم في الأفول، لضعف الأمراء ولتعاظم نفوذ الحرس التركي (الذي أكثر منه السامانيون فصاروا يتلاعبون بالأمراء ويتدخلون في السياسة، وأسقطوا هيبة الوزارة وأهميتها) لاختلال الإدارة واضطراب الأمور المالية حتى أصبحت الخزينة تشكو الإفلاس المزمن.

وتقلص حكم السامانيين بتأثير الثورات الداخلية التي كان لمطامع الحرس التركي اليد الطولى فيها، ولظهور البويهيين في الغرب والقرخانيين (الذين تزعموا القبائل التركية بين فرغانة وحدود الصين) في الشرق وأنشأ السبكتكين ـ أحد قوات السامانيين ـ إمارة مستقلة في غزنة سنة ٩٦٢م. وفي سنة ٩٧٧ أصبح سبكتكين (مولى السبكتكين) أمير غزنة. وأظهر سبكتكين ولاءه للسامانيين، ولذا أخذوا يستعينون به في إخماد الثوارت الداخلية. وعندما أخمد ثورة خطرة سنة ٩٩٤ عيّنوا ابنه محموداً لولايات خراسان.

إلا أن الخطر العظيم كان من جانب القراخانيين الذين هاجموا أراضي السامانيين سنة ٩٩٦، فاستنجد هؤلاء بسبكتكين، ووفق هذا الأمير إلى عقد صلح مع القرخانيين على أن تكون سهول قطوان هي المنطقة الفاصلة بين أملاك الاثنين. وكنتيجة لهذه النجدة صار لسبكتكين نفوذ عظيم، وانتقلت جميع الأراضي جنوب نهر جيحون إلى يده دون أن يكون للسامانيين نفوذ فيها.

ومع أن السامانيين هاجموا خراسان بعد وفاة سبكتكين (سنة ٩٩٧) حين انشغال محمود بشؤون غزنة، إلا أن هذا استغل خيانة الجيش الساماني لأميره، فحمل على الجيش الساماني ودحره في أيار/ مايو سنة ٩٩٩ وفتح خراسان.

وأخيراً دخل الترك القرخانيون بُخارى في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ٩٩٩ وقضوا على السامانيين.

٤ ـ ومن المهم أن نتعرف على العلاقة بين الخليفة والسامانيين في الفترة التي سبقت فتح البويهيين للعراق (سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م). فليس هناك ما يدل على أن السامانيين دفعوا جزية منتظمة للخليفة منذ انتصارهم على عمرو. وهذا يظهر أكيداً سنة ٣٠٦هـ من خلو قائمة علي بن عيسى من أية إشارة إلى وارد من خراسان وما وراء النهر.

ومنح الخليفة السامانيين حق ذكر اسمهم في الخطبة كما نقش هؤلاء الأمراء أسماءهم على الدنانير بجنب اسم الخليفة (وهذا رمز الاستقلال السياسي).

ولما كان السامانيون على المذهب السُنّي، كانوا بحاجة إلى عهود تولية من الخلفاء

كي يصبح حكمهم شرعياً بنظر الناس. فكان الخليفة مصدر السلطة شرعياً ولكن السامانيين كانوا أصحاب السلطة عملياً. فلم تكن للخليفة يد في تولية الأمراء وعزلهم.

وكانت عهود التولية تحتوي على كثير من الواجبات الدينية والسياسية التي يوصي الخلفاء الأمراء بتنفيذها[٦] فكان ينتظر من السامانيين مثلاً ضرب أهل البدع، وإعلان الجهاد وتسهيل أمور الحج.

ولما دخل الترك بلاد ما وراء النهر سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٣م أعلن إسماعيل الجهاد ضدهم، وتمكن بواسطة المتطوعة من القضاء عليهم تقريباً، وأرسل يبشّر الخليفة بذلك. ولا شك في أن وقوف السامانيين ضد المذاهب غير السُنية كان في مصلحتهم السياسية. ولهذا طارد نوح بن نصر الثاني الإسماعيلية في مملكته واضطهد نصّارها وصادر أملاكهم وقمع حركتهم الظاهرة.

كانت علاقة السامانيين بالخليفة حسنة، أساسها التفاهم والثقة المتبادلة حتى إن الوزير علي بن عيسى اقترح على المقتدر الذهاب إلى خرسان عندما هدد القرامطة بغداد.

٥ ـ ولكون السامانيين من النبلاء لم يستطيعوا تمثيل النزعات الشعبية كما مثلها أبو مسلم. ولكنهم كانوا يهتمون بحماية الزراع والفلاحين من إرهاق النبلاء الإقطاعيين ليضمنوا السلام والرفاه في البلاد وليوطدوا حكمهم. وهذا يمكن اعتباره حكماً «مستبداً عادلاً» وفي وقت واحد.

ويمكن إرجاع مبدأ النهضة الفارسية الفعلي إلى هذا الدور. فقد ادعى السامانيون أنهم من نسل بهرام جوبين الزعيم الساساني الذي هرب إلى الترك سنة ٥٩١م. وكانت اللغة الفارسية هي الرسمّية في عهد معظم أمرائهم. وأفتى العلماء بجواز الصلاة باللغة الفارسية. وشجع السامانيون الشعراء الفرس حتى إن بعضهم صرح بآراء لا تتفق وروح الإسلام، فالشاعر الرودكي السمرقندي يقول: «لا معنى لتولية الوجه نحو القبلة والقلب منذجب إلى القدسية المجوسية». وصرح الدقيقي ـ الذي كان أول من حاول نظم الأساطير الإيرانية ـ بعلاقته بالزرادشية فيقول: «اختار أربعة أشياء من كل الخير والشر في الدنيا: شفة (الحبيب) بلون الياقوت، وزمزمة العود، والخمرة القانية، ودين زرادشت». وفي زمنهم ترجم تفسير الطبري إلى الفارسية.

---

(٦) الحسين هلال بن المحسن أبو الصابئ، **رسائل الصابي**، [اعتنى برسائل الجزء الأول شكيب أرسلان] (بعبدا، لبنان: [د. ن.]، ١٨٩٨).

الفصل السادس

الإسماعيليــــة والقرامطـــة



١ ـ زلزل العالم الإسلامي بحركة متشعبة النواحي ـ دينية، اجتماعية، فلسفية، سياسية هددت أسس كيانه ولعبت دوراً مهماً في تاريخه. تلك هي الحركة الإسماعيلية التي بدأت في القرن الثاني للهجرة بتمازج عدة فرق من الغلاة. ولعل بعضها كان من أصل فارسي. كما إن فيها أصولاً سريانية وغنوصية.

على أن الحركة الإسماعيلية لم تتخذ شكلاً واحداً، ولا اقتصرت على اسم معيّن، بل ظهرت بأشكال وصور متعددة في نظرياتها وتنظيماتها. فكانت دائبة على ضم فرق جديدة إلى صفوفها، وإضافة آراء جديدة إلى مذهبها. وزيادةً على ذلك كانت تتجزأ إلى شعب متناحرة في الغالب.

وقد استطاعت أن تنظم وتوجه السخط الاجتماعي والديني في البلاد الإسلامية باتخاذها حق العلويين الشرعي في الحكم هدفاً للدعاية السياسية، وبمزجها الداخلي لمبادئ من جميع الأديان والفلسفات، مع نزعة قوية لتحكيم العقل في مذهبها الديني، وباستغلالها التذمر الاجتماعي، والاقتصادي، وبتنظيماتها الدقيقة كجزء أساسي من فعاليتها[١].

ولا شكّ في أن وضع الخلافة كان مساعداً على انتشار هذه الحركة فهناك ضعف العباسيين السياسي وتقلص سلطانهم، إلى جانب خيبة أمل الناس فيهم لأن حكمهم لم يحقق السعادة والسلم للموعودين. وهناك تذمر الطوائف من العناصر غير العربية من حكم العرب ومن سيادة دينهم ومحاولتها التخلص من الكابوس الأجنبي السياسي الروحي. وهناك انتشار الفلسفة اليونانية التي قوّت الشك وفتحت باباً لمقاومة الدين، وهناك قلة ثقافة الطبقة العامة وتسرب الخرافات إليهم مما سهل عليهم قبول أي مبدأ. وهناك التبدل الاقتصادي الجديد الناتج عن انتقال المجتمع من طور زراعي إلى تجاري، والذي أدى إلى الاتحاد بين مصالح الأغنياء العرب وغيرهم من جهة وبين مصالح الفقراء من موالي وعرب على أساس اقتصادي. وهناك بذور الغلو التي لعبت

---

(١) Bernard Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate* (Cambridge, [Eng.]: W. Heffer, [1940]), p. 2.

دورها في الدعوة العباسية، ولكن حيويتها الكامنة أكسبت شكلاً واتجاهاً جديدين عن طريق خبرتها المكتسبة من صلتها بالمجتمع ومن فشلها المتكرر منذ مجيء العباسيين.

أدرك رجال الحركة هذه الظروف فاستغلوها بشكل عجيب وسنقتصر في بحثنا هذا على عرض موجز للحركة، مراعين في ذلك تبيان بعض مظاهرها الهامة.

٢ ـ ترجع بذور الحركة إلى الغلو، وإلى بيئة الكوفة التي التقت فيها المذاهب من كل نوع. والغلو كان يحمل في ثناياه الثورة الاجتماعية، فهو ستار كل ساخط وتحت لوائه انضم كل متبرم بالمجتمع القائم وبنظامه[٢].

ومع أنه يصعب تحديد مبدأ لهذه الحركة، ومع شعورنا بأنها متممة للحركات الثورية السابقة، وأنها نتيجة تضافر تيارات وظروف اجتماعية معقدة، إلا أننا نلحظ أن أولياتها ظهرت في حياة جعفر الصادق وفي الكوفة. وتجمع أكثر المصادر على أن أبا الخطاب كان أول منظم لحركة لها صفة باطنية واضحة.

كان أبو الخطاب من أتباع الصادق، ثم غلا في ادعاءاته، فنسب إلى الصادق قوى آلهية، وادعى النبوة وأنه خليفة الصادق. وبشّر بمبادئ غريبة كالإباحة والتنوير (أو تكرر الحلول). وإليه ينسب المبدأ الإسماعيلي في الإمام الناطق والصامت[٣]. وقال بالتأويل فلا غرو إن تبرأ الصادق منه. ولكنه نجح في تكوين فرقة تسمى الخطابية ومركزها الكوفة. وقد قتل في سنة ١٣٨/ ٧٥٥[٤].

وتؤكد كثير من المصادر على الصلة بين الخطابية والإسماعيلية فتبيّن أن ميمون القداح وأتباعه هم تلاميذ أبي الخطاب، وأن حركة ميمون وابنه عبد الله (وإليهما ينسب تكوين الحركة الإسماعيلية) هي الحركة الخطابية نفسها. وتعترف كتب الإسماعيلية

---

(٢) انظر: عبد العزيز الدوري، **العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي** (بغداد: [د. ن.]، ١٩٤٥)، ص ١٥ و١٨ ـ ١٩. وقد صدرت الطبعة الأولى عن مركز دراسات الوحدة العربية عام ٢٠٠٦ ضمن سلسلة الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري (٣).

(٣) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، حقق أصوله، وفصله، وضبط مشكله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة المعارف، ١٩١٠)، ص ٢٣٦؛ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تصحيح هـ. ريتر، ٢ ج (استانبول: [د. ن.]، ١٩٣٠)، ج ١، ص ١٠، و Paul Casanova, *La Doctrine Secrete des Fatimides d'Egypte* (Le Caire: Imprimerie de l'institut français d'archeologie orientale, 1910), p. 19, note 1.

(٤) أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي، **اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي**، تصحيح وتعليق ميراماد الاسترابادي؛ تحقيق مهدي الرجائي، ٢ ج (طهران: [د. ن.]، ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م)، ص ١٨٨ وما بعدها؛ أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي، **فرق الشيعة**، عني بتصحيحه هـ. ريتر (النجف: [د. ن.]، ١٩٣٦)، ص ٦٩ ـ ٧١؛ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ٥ ج (القاهرة: المطبعة الأدبية، ١٣١٧ ـ ١٣٢١هـ/[١٨٩٩ ـ ١٩٠٣م])، ص ١٣٦، و Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*, pp. 32-33.

الأولى وبعض كتب النصيرية بدور أبي الخطاب وتعتبره منشئ المذهب الإسماعيلي(٥).

وقد تبرأ جعفر الصادق من ابنه إسماعيل كما تبرأ من أبي الخطاب، ويروى أنه فعل ذلك لاستهتار إسماعيل بالشراب. ولكن هناك ما يشير إلى سبب أخطر من ذلك وهو وجود صلة بين إسماعيل والخطابية. روى الكشي أن الصادق قال للمفضل بن عمر الجعفي، وهو خطابي: «يا كافر يا مشرك ما لك ولابني يعني إسماعيل بن جعفر. وكان منقطعاً إليه يقول فيه مع الخطابية». وقال الصادق لإسماعيل «ايت الفضل وقل له يا كافر يا مشرك. ما تريد إلى ابني؟ تريد أن تقتله؟»(٦). ومن هذا نرى وجود صلة قوية بين إسماعيل ودوائر الغلاة للثوريين وأن أباه تبرأ منه لهذه العلاقة. ويؤيد ذلك الصلة الوثيقة بين محمد بن إسماعيل وميمون القداح وابنه عبد الله، والأخيران من أتباع أبي الخطاب.

وتوفي إسماعيل قبل والده بعد أن التفّت حوله جماعة من الأتباع. ثم انقسم أتباع إسماعيل بعد وفاة الصادق (سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م) إلى طائفتين:

أ ـ فرقة قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر بعد أبيه «وأنكرت موت إسماعيل في حكاية أبيه وقالوا كان ذلك على جهة التلبيس من أبيه على الناس لأنه خاف فغيبه عنهم.. وأنه هو القائم.. وهذه الفرقة هي الإسماعيلية الخالصة».

ب ـ فرقة قالت بإمامة محمد بن إسماعيل بعد والده «ولا يجوز غير ذلك لأنها (الإمامة) لا تنتقل من أخ إلى أخ». وهذه تدعى المباركية نسبة إلى المبارك مولى إسماعيل. وإليهم انضم قسم من الخطابية. ومن هذه الفرقة تشعب القرامطة(٧).

ويذكر المجلسي فرقة ثالثة من الإسماعيلية تقول بأن الصادق عهد بالإمامة إلى محمد بن إسماعيل رأساً. وهو يتفق مع النوبختي في أن القرامطة من المباركية(٨). ويبيّن الإمام الزيدي المتوكلي (٥٣٢هـ/ ٥٦٦م) أن الإسماعيلية يتكوّنون من الخطابية والمباركية(٩).

---

(٥) Lewis, Ibid., pp.34-36.

(٦) الكشي، المصدر نفسه، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٧) النوبختي، **فرق الشيعة**، ص ٦٨ ـ ٧٢، وسعد بن عبد الله الأشعري القمي، **المقالات والفرق**، ص ٨٠ ـ ٨٢.

(٨) محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٠ ج في ١٦ (تبريز: [د. ن.]، ١٨٩٨)، ج ٩ ص ١٧٥.

(٩) انظر: Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*, p. 41.

ومن هذا تظهر أهمية المبارك. فإليه ينسب تنظيم الفرقة الإسماعيلية واجتماعها حول محمد بن إسماعيل. وهذه الفرقة باستيعابها القسم الأكبر من الخطابية والفرق الإسماعيلية الأخرى كوّنت الحركة الإسماعيلية الكبرى التي قامت بدور مهم في التأريخ الإسلامي[١٠].

وينسب الدور الأكبر في تنظيم الحركة الإسماعيلية وفي وضع مبادئها إلى عبد الله بن ميمون القداح. وهو ذو شخصية أحاطتها الروايات بضباب من الاضطراب والإبهام.

يخبرنا ابن رزام[١١] بأن عبد الله القداح كان واسع الاطلاع في جميع المذاهب والأديان وأنه ادعى معرفة الغيب واستعمل الحمام لنقل الأخبار بسرعة. كما إنه وضع نظام التنشئة على سبع درجات في الدعوة. أما أصله فمن قورج العباس في الأهواز، ولكنه سكن عسكر مكرم فأخرج منها إلى ساباط أبي نوح وفيها اكتشف الناس زيف ادعاءاته. وأخرجه الشيعة والمعتزلة إلى البصرة حيث التجأ إلى آل عقيل ابن أبي طالب ودعا إلى محمد بن إسماعيل. وكان يصحبه في طريقه إلى البصرة أحد رجاله وهو الحسين الأهوازي، ثم طاردته الحكومة في البصرة فهرب مع الأهوازي إلى سلمية وبقي مختفياً فيها حتى وفاته. وكان يرسل الدعاة من مخبئه إلى العراق لبثّ دعوته واقتفى أولاده أثره في توجيه الدعوة بعد وفاته حتى نجح أحدهم في إنشاء الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا. ويؤكد مؤرخو العرب وبعض المستشرقين مثل دي ساسي، دي غوج (De Sacy, De Goeje) وجود دافع سياسي لدى عبد الله بن ميمون وهو رغبته في القضاء على سلطان العرب وعلى الدين الإسلامي الذي جلب إليهم تلك السلطة وإرجاع مجد إيران مرة ثانية[١٢].

ويسمي إيفانوف مجموع الروايات عن عبد الله القداح بـ «أسطورة القداح» ويرى أنها من أصل متأخر، ويرجح أنها من النصف الثاني للقرن الرابع الهجري

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ٤١.

(١١) تجد روايته في **الفهرست والاتعاظ** للمقريزي، والنويري وقد كتب ابن رزام حوالى ٣٦٥هـ. ويرى ماسنيون أن المؤرخين الذين وضعا نظرية السنة عن القرامطة والفاطميين هما محمد بن رزام الطائي، صاحب **ديوان المظالم** سنة ٣٢٩هـ في بغداد ومحمد أخو محسن بن العابد وهو علوي من دمشق توفي سنة ٣٧٥هـ. انظر: *Encyclopedia of Islam*, vol. 2, p. 768.

(١٢) ينفرد براون (Browne) (ج١، ص ٧٠٤) بالقول بأن العنصر السياسي مبالغ فيه ويرى أن المذهب الإسماعيلي يرجع في أصوله إلى مبادئ متأصلة في إيران وأن تلك الروح الفارسية في المذهب هي التي أثارت اهتمام عبد الله وليس التعصب للفرس. انظر: Edward Granville Browne, *Literary History of Persia*, 4 vols. (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1928-), vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 704.

وأنها من اختراع ابن رزام، ثم انتشرت من كتبه في كل مكان[١٣].

ثم يناقش دور المداح، ويبيّن أن عبد الله بن ميمون لم يقم بدور ما في الحوادث التاريخية، وأنه وإن كان على صلة بالخطابية وبالغلاة الآخرين إلا أنه لا توجد أية إشارة إلى مشاركته لهم في آرائهم أو التبشير بآراء أخرى[١٤]. ثم ينفي النظرية التقليدية التي مضمونها أن القداح أراد أن يقوض الإسلام فاستغل الشعور الشيعي عند الجماهير وكوّن المذهب القرمطي المؤدي إلى الإلحاد واستغل اسم إسماعيل بن جعفر في إثارة حركة شعبية قوية نقلت الملك إلى أحد أحفاده باسم المهدي[١٥].

ثم يفسر نشوء تلك «الأسطورة» بأن العقل في القرون الوسطى لم يكن يفكر في التطور أو في العمل المجتمع للأجيال، وأنه لم يدرك التدرج المعقد الذي أنتج المذهب الإسماعيلي المنظم ويبيّن أن المذهب كان وثيق الصلة في شكله وجوهره بنجاح الحركة السياسية وتوسعها وغاياتها السياسية[١٦].

وهكذا ينفي إيفانوف أثر عبد الله بن ميمون في الحركة الإسماعيلية، ويرى أن الروايات نسبت إليه تطور الحركة خلال أجيال ويخمن وفاته بين ١٦٠ ـ ١٨٠هـ.

ومع أني أوافق إيفانوف في عدم الاطمئنان إلى التطرف والتناقض الموجود في الروايات بشأن القداح، وفي لومه إلى الباحثين على إهمال كتب الإسماعيلية إلا أنني أرى في رأيه تطرفاً وثورة على الروايات التي تؤكد دور القداح. وقد تكون نتائج لويس في الموضوع أقرب إلى القبول، بعد أن ناقش مختلف أصناف الروايات. وقد توصل لويس بشأن القداحين إلى ما يأتي:

كان ميمون وابنه عبد الله من أتباع الصادق المحترمين. وفي وقت ما اتصل ميمون بالغلاة الذين كان يتزعمهم أبو الخطاب وإسماعيل فقام بدور يذكر في تكوين مبادئ تلك الفرقة وتنظيم دعوتها. وبعد مقتل أبي الخطاب، صارت إليه الرئاسة، وقام بتربية محمد بن إسماعيل، فنشّأه على مذهب الباطن. أما عبد الله بن ميمون فتخرج على والده، وتثقف وصار الحجة بعد وفاته. وقد توفي عبد الله في أوائل القرن الثالث الهجري[١٧].

---

(١٣) Wladimir Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids* (Calcutta: [n. pb.], 1942), p. 172.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٢٨ ـ ١٣٠.

(١٦) Ibid., pp.xix-xx.

(١٧) Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate,* pp. 45-46 and 66-67.

إذن فقد كان لعبد الله بن ميمون دور مهم في أوائل الدعوة الإسماعيلية، وهذا ما جعل المؤرخين ـ شأنهم في كثير من الأدوار التاريخية ـ ينسبون إليه تطورات ظهرت بعده. ومما ساعد على ذلك، كما يظهر، أن عبد الله أخرج الدعوة من نطاقها الضيق، وبث لها الدعاة في أنحاء الشرق الأدنى، فاعتقد بعضهم أنه هو مكوّنها.

٣ ـ وعلى كل حال، فقد بدأ المؤرخون بالكتابة عن الحركة الإسماعيلية حين أخذت تهدد الوضع القائم. ويمكن إدراك خطورتها واتساع رقعتها من إلقاء نظرة على فروعها المختلفة. فمن ألقابها «الإسماعيلية، والباطنية، والقرامطة، والسبعية، والتعليمية». وهذه الأسماء شبه مترادفات تؤكد شعبة أو مظهراً للحركة العامة. فالقرامطة الذين روّعوا الخلافة في العراق والبحرين في القرن الرابع، والحركة الإسماعيلية في اليمن، والحركة الفاطمية في شمال أفريقيا والانسكلوبيديون ـ إخوان الصفا ـ الذين حاولوا نشر المعارف الفلسفية بشكل مبسط بين الجماهير، والحشاشون المرعبون في سوريا وإيران في القرنين الخامس والسادس كلهم فروع للحركة نفسها.

ومع أنه «كانت لهم دعوة في كل زمان، ومقالة جديدة بكل لسان»[١٨]. إلا أن ذلك لا يمنع من أن تكون لهم مبادئ عامة مشتركة، سنكتفي بسرد بعضها مما كان له الأثر الفعال في حركتهم:

فأهمها مبدأ الباطن. وكان له الدور الرئيس في نشر الدعوة بين جماعات مختلفة المذاهب والأديان. فيقول الشهرستاني: «أشهر ألقابهم الباطنية. وإنما لزمهم هذا اللفظ لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً»[١٩]. ويقول الديلمي إنهم إنما لقبوا بالباطنية «لأنهم ينسبون لكل ظاهر باطناً ويقولون الظاهر بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب»[٢٠]. أما البغدادي فيقول: «وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي (ع) على موافقة أساسهم»[٢١]. ويرى ابن الجوزي «أنهم ادعوا لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري مجرى اللب من القشر، وأنها توهم الأغبياء صوراً وتفهم الفطناء رموزاً وإشارات إلى حقائق خفية، وأن من تقاعد عن العرض على الخفايا والبواطن متعثر، ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من

---

(١٨) الشهرستاني، **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ج ٢، ص ٢٩.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) محمد بن الحسن الديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، عني بتصحيحه ر. شتروطمان، النشرات الإسلامية؛ ١١ (استانبول: مطبعة الدولة، ١٩٣٨)، ص ٢٢.

(٢١) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٦٩.

أعبائه. . . قالوا والجهال بذلك هم المرادون»[٢٢]. وأخيراً يذكر النوبختي أنهم «زعموا أن جميع الأشياء التي فرضها الله تعالى على عباده وسنّها نبيه (ﷺ) وأمر بها لها ظاهر وباطن. وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة أمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها وعليها العمل وفيها النجاة»[٢٣].

وهكذا كانت النصوص المقدسة لا تفقه بمعناها المفهوم (الظاهر) وإنما كان يفهم منها أنها رموز إلى معانٍ خفية (باطنية). وأن المعنى الظاهر للعامة والجهال، ممن تمسك به لاقى صنوف العذاب والعناء، ومن أدرك الباطن لقي السعادة في الدارين وعاش عيشة راضية. ولذلك فيجب تأويل النصوص ومعرفة دخيلتها لكي نفهم الشرائع فهماً صحيحاً. ويرى مؤرخو الفرق أن الغرض من التأكيد على الباطن هو إبطال الشرائع والانسلاخ من الدين[٢٤]. ونحن نرى أن غايتهم الأساسية سياسية اجتماعية، وأن تطبيق طريقة التأويل كان خير وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الأديان لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة.

ولكن الباطن لا يعرفه «إلا قليل من الخواص»[٢٥]. فهذا النفر القليل يستقي معلوماته من الباطن من مصدر مقدس واحد «يرجع إليه في جميع العلوم ولا يلتفت إلى العقل أصلاً». وذلك هو الإمام. فـ «للشرائع باطن لا يعرفه إلا الإمام» الذي «يساوي النبي في العصمة والاطلاع على حقيقة كل شيء»[٢٦]. فالشريعة إذن، معرفة الإمام والاستنارة بعلمه الباطن. ولذلك اتفق الإسماعيلية على أنه «لا بد في كل عصر من إمام معصوم يرجع إليه»[٢٧] ليهدي الناس إلى سواء السبيل، ويجب أن نتذكر أن الإمام لا ينزل عليه وحي، بل يتلقى علمه عن النبي (ﷺ) لأنه خليفته[٢٨].

ويظهر أن الإسماعيلية اكتفوا أول أمرهم بالقول بإمامة إسماعيل وابنه محمد، ولكن نظرتهم تطورت وأصبحت شاملة يتضح فيها اطلاعهم على الأديان المختلفة ورغبتهم في جمع أنصارها تحت رايتهم؛ فقد قسموا تاريخ البشرية إلى حلقات نبوة

---

(٢٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ/[١٩٣٨ ـ ١٩٣٩])، ج ٥، ص ١١٤.

(٢٣) النوبختي، **فرق الشيعة**، ص ٧٥.

(٢٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٤؛ الديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، ص ٢١، والبغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٧٠.

(٢٥) الديلمي، المصدر نفسه، ص ١٧.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٦.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) المصدر نفسه.

عددها سبع. إذ قالوا إن «العقل الكلي» يتجسد بين حين وآخر في شخص نبي (الناطق) وكل نبي يخلفه سبعة أئمة (الإمام = الصامت)، أوّلهم يدعى الأساس وهو الملازم الحميم للنطاق ومستودع علمه. وكل نبي (أي عند كل تجسد جديد) يعلّم الناس الحقائق الروحية اللازمة لهدايتهم بشكل أكمل كما يقتضي تطور الفهم البشري. وآخر حلقة نبوة هي دورة محمد بن القائم وفيها ظهر لأول مرة علم الباطن أو حقيقة نواميس الأنبياء. فمحمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين[٢٩].

جاء في كتاب إسماعيلي سري: «وكان محمد بن إسماعيل متمم الدور الأول المنتهية إليه غاية الشرائع المختومة به المشتمل على مراتب حدودها، المحيطة بعلومها، وهو القائم بالقوة صاحب الكشف الأول» وأنه «ناسخ شريعة صاحب الدور السادس (أي محمد (ﷺ)) ببيان معانيها. . وإظهار باطنها المبطن فيها». وقال الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله عن محمد بن إسماعيل أنه «سابع الرسل من آدم. وختم به عالم الطبائع، وعطل بقيامه ظاهر شريعة محمد». ويشرح سيدنا إدريس ذلك قائلا: «عطل بقيامه ظاهر شريعة محمد لما كان لمعانيها مبيناً ولأسرارها كاشفاً ومجلياً»[٣٠].

والأئمة لا يكونون ظاهرين جميعاً بل يستتر قسم منهم بتأثير الظروف. ولهذا نجد سلسلة من الأئمة المستورين بين محمد بن إسماعيل وبين ظهور الفاطميين[٣١]. وإذا كان الإمام مستوراً فلا بد من أن تكون حجته ودعاته ظاهرين «ليبشروا بدعوته»[٣٢].

ويرى لويس أن هذا الاختفاء مع وجود فكرة الأبوة والبنوة الروحية عند الإسماعيلية كان مدعاة لتكوّن سلسلتين من الأئمة في تلك الفترة (بين بن إسماعيل وعبيد الله المهدي) الأئمة المستودعين والأئمة المستقرين؛ فالإمام المستقر هو الإمام

---

(٢٩) انظر: النوبختي، **فرق الشيعة**، ص ٧٤، و Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, pp. 409-410.

والدورة السادسة: النبي (الناطق) محمد. الأساس ـ علي، يخلفه الحسن، الحسين، علي زين العابدين، محمد الباقر، جعفر الصادق، وإسماعيل. الدورة السابعة: الناطق ـ محمد بن إسماعيل. والأئمة ـ عبد الله بن محمد، أحمد بن محمد، الحسين بن أحمد، علي بن الحسين (القائم)، المنصور، المعز، العزيز. أما الدورات السابقة فهي دورات (١) آدم (٢) نوح (٣) إبراهيم (٤) موسى (٥) عيسى. انظر: أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحرير جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد، مكتبة المقريزي الصغيرة؛ ٢، ٣ ج (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٣)، ج ٢، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١، و Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*, pp. 72-73.

(٣٠) زهر المعاني لسيدنا إدريس (٨٧٢ هـ) في: Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, pp. 53-54 and 57.

(٣١) الشهرستاني، **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ج ٢، ص ٥.

(٣٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨.

الحقيقي وله حق نقل الإمامة إلى أولاده. أما الإمام المستودع فهو ابن الإمام الروحي وحجته وعنده أسرار الإمام، ولكنه لا يحق له نقل الإمامة إلى أولاده. ففي وقت الخطر يجوز للإمام المستقر أن يفوض لحجته ألقاب الإمامة ووظائفها بينما يبقى هو مستوراً. والغاية من هذا التفويض توجيه الحركة ومعرفة حقيقة الرأي العام دون أن يتعرض المستقر للخطر(٣٣). وعلى ضوء هذه النظرية يرى لويس أن بعض القداحين (من نسل ميمون القداح) قاموا بوظيفة أئمة مستودعين في أوقات الخطر(٣٤). كما إن زكرويه وأولاده قاموا بالدور نفسه(٣٥).

ولا بأس بإيراد استنتاجه الأخير وهو أن سعيداً أبي عبيد الله المهدي آخر أئمة فترة الخطر وأول الخلفاء الفاطميين كان قداحياً وأنه عند وفاته لم يخلفه ابنه بل الإمام المستقر الذي اشتغل سعيد له، وهو أبو القاسم محمد القائم (من نسل محمد بن إسماعيل)(٣٦).

وهنا يجابهنا رد إيفانوف على نظرية لويس، فهو يؤكد أن المهدي فاطمي وينفي صحة نظرية لويس بانياً رده على ثلاثة أسس:

(١) ينتقد لويس على استناده في بناء نظريته إلى خطأ في نص نسخة **غاية المواليد** التي اعتمد عليها، ودون أن يبيّن الخطأ يذهب إلى الشك في دقة غاية المواليد فيدعي أن ما فيه هو محاولة للتوفيق بين أسطورة القداح وصحة نسب الفاطميين(٣٧).

(٢) يلوم لويس على الاعتماد على روايات الدروز الخرافية لتأييد نظريته، ويراها غير جديرة بالقبول.

(٣) يبيّن أن فكرة الإمام المستقر والمستودع ترجع إلى وقت متأخر حين صار انتقال الإمامة من الأب إلى الابن بصورة ميكانيكية أمراً مقبولاً.

ويدعي أن هذا التقسيم إلى مستقر ومستودع لم تكن إليه حاجة؛ إذ يمكن

---

(٣٣) Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate,* p. 50.

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٥١. يستند لويس في نظريته هذه إلى كتاب إسماعيلي مهم وهو **غاية المواليد** تأليف سيدنا (هكذا) الخطاب. وقد نشر النص الذي اعتمد عليه في ذيل كتابه. كما نشره إيفانوف من مخطوطات أخرى في كتابه. انظر: Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*. (ص ٣٦ ـ ٣٧ من النصوص العربية).

(٣٧) Ivanow, Ibid., p. 153.

الاستنتاج غالباً من الكتب الإسماعيلية الأولى بأن المبدأ المتبع هو أن الصغير لا يمكن أن يكون إماماً[٣٨].

وأخيراً يقول إن الكتب الإسماعيلية المذهبية والسرية تجمع وتؤكد أنه لا يمكن أن تنقل الإمامة إلى أي شخص ليس من عترة فاطمة[٣٩].

إن النقاش استمر حول أصول أئمة الإسماعيلية، وحول بداية الدعوة وسيرها، وخاصّة بعد ظهور كتابات إسماعيلية جديدة، ووجود اتجاه إلى الاستناد إلى الروايات الإسماعيلية وإعادة قراءة الروايات الأخرى على ضوئها. وسنقتصر على إيراد بعض المعلومات ذات الصلة بإيجاز.

كان أكبر أولاد الصادق إسماعيل وعبد الله أخوين شقيقين، ويبدو أنّ الصادق كان يخشى من صلات إسماعيل بدوائر الغلو، وتوفي في حياة أبيه، بعد وفاة الصادق ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، تمسّك جماعة من أتباعه بإمامة ابنه إسماعيل (الذي يروى أنه سمي من قِبله) وأنه ما مات وسيعود.

وجماعة أخرى تقر بوفاة إسماعيل وتقول بإمامة ابنه محمد وأنّ الصادق نص عليه، وهم يرون أن الإمامة لا تكون من الأخ إلى أخيه بعد الحسن والحسين بل للابن، ويسمون المباركية نسبة إلى رئيسهم مبارك مولى إسماعيل.

ويبدو أن محمد إسماعيل قضى القسم الأخير من حياته في الأهواز حيث صار له بعض الأتباع.

وبعد وفاة محمد بن إسماعيل، في فترة الرشيد على الأرجح، كانت فئة صغيرة من المباركية ترى الإمامة في نسله، بينما يرى جل المباركية ـ وهم طليعة القرامطة ـ بأنه لم يمت وأنه الإمام السابع والأخير وينتظرون رجعته على أنه المهدي والقائم[٤٠].

وخلّف محمد بن إسماعيل ولدين هما عبد الله والحسين.

تتفق الروايات الأولى على أنّ مؤسّس المذهب الإسماعيلي اسمه عبد الله وتسمّيه

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٩.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٤٠) انظر: Wilferd Madelung, «Ismailiyya,» in: *Encyclopedia of Islam*, vol. 4, p. 198, and Farhad Daftary, *The Ismailis: Their History and Doctrines* (New York; Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press 1990), p. 103.

ولمعلومات أخرى عن المفاهيم الإسماعيلية الأولى، انظر: القمي، **المقالات والفرق**، ص ٨٣ ـ ٨٦، والنوبختي، **فرق الشيعة**، ص ٦١ ـ ٦٤.

روايات فاطميّة تالية عبد الله الأكبر(٤١). وهويته لا تزال موضع نقاش. ولكن باحثين حديثين مثل دفتري (Daftary) وهالم (Halm) ومادلنج (Madelung) يرون أنه عبد الله بن محمد بن إسماعيل(٤٢).

استقر عبد الله في مدينة عسكر مكرم (في الأهواز) وفيها بدأ دعوته وعمل بالتجارة وجمع ثروة وتظاهر بأنه موالٍ للشيعة وبأنه رجل علم، وأرسل دعاته إلى جهات غير محدّدة. ولما تكشّفت دعوته قام الناس ضده، وبخاصة الشيعة والمعتزلة، فهرب إلى البصرة يرافقه أحد دعاته الحسين الأهوازي وهنا نزل في حي باهلة مع مُوال لآل عقيل بن أبي طالب وأخبرهم أنه من ولد عقيل(٤٣).

ونشط عبد الله في البصرة وكوّن جماعة حوله وأرسل الدعاة لنشر دعوته، فجاء ناس من عسكر مكرم وراءه فاضطر للهرب خفية إلى الشام وبصحبته الحسين الأهوازي واختبأ مبدئياً في دير في جبل السماق قرب معرّة النعمان(٤٤).

ثم تبعه سبعة من دعاته من عسكر مكرم بعد أن عرفوا غيابه وأدركوه بعد بحث وتحرّ، ثم اتخذ بمساعدتهم سلمية مركز دعوته وعرف بأنه تاجر بصري، ويوضّح كتاب **استتار الإمام** للداعي الإسماعيلي أحمد النيسابوري ذلك(٤٥).

وفي فترة عبد الله صار للدعوة أتباع في الديلم جنوب غرب بحر قزوين حيث أقام في شالوس وتزوج وولد له ابنه الأكبر أحمد(٤٦). وأرسل داعيه خلف الحلاج إلى

---

(٤١) انظر: أحمد بن إبراهيم النيسابوري، **استتار الإمام**، ص ١٢٦.

(٤٢) انظر: ادريس عماد الدين، **عيون الأخبار وفنون الآثار**، تقديم وتحقيق مصطفى غالب، سلسلة التراث الفاطمي؛ ١٠ (بيروت: دار التراث الفاطمي، ١٩٧٣ ـ ١٩٨٤)، ج ٤، ص ٣٥٦.

(٤٣) أخو محسن، في: أبو بكر عبد الله بن أيبك الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحرير هانس روبرت رويمر، ٦ ج (القاهرة: سامي الخانجي، ١٩٦٠ ـ ١٩٨٢)، ج ٦، ص ١٩؛ أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، **الفهرست** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨ هـ/[١٩٢٩م])، ص ٢٣٨، و Heinz Halm, *The Empire of the Mahdi: The Rise of the Fatimids*, translated from the German by Michael Bonner, Handbunch der Orientalistik, Erste Abteilung, Nahe und der Mittlere Osten; Bd. 26 Handbook of Oriental Studies, the Near and Middle East (Leiden; New York: E. J. Brill, 1996), p. 10.

(٤٤) ابن رزام في: ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢٧٨؛ أخو محسن، في: الدواداري، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٩، و Halm, Ibid., pp. 10-11.

(٤٥) يمثل الرواية الفاطمية شبه الرسمية، كتبها النيسابوري في عهد العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ). انظر النص في: **أخبار القرامطة في الإحساء، الشام، العراق، اليمن**، تصنيف ثابت بن سنان؛ جمع وتحقيق ودراسة سهيل زكار (دمشق: عبد الهادي حرصوني، ١٩٨٢)، ص ١١١ و١١٥ ـ ١١٦؛ عماد الدين، **عيون الأخبار وفنون الآثار**، ص ٣٦٥، الذي يعطي سبباً آخر لخروجه إلى الشام، وهو ما أصاب أخوته وولده من كوارث.

(٤٦) عماد الدين، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٥٨ و٣٦٣.

الري، وبعد مشاكل تابع ابنه أحمد الدعوة وصارت الري مركزاً مهماً، وانتشرت الدعوة إلى شمال إيران وخراسان(٤٧).

وأول جماعة كانت في سواد الكوفة أسسها (سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م، أو ٢٦٤ هـ/ ٨٧٨م) الداعي الحسين الأهوازي الذي ضمّ حمدان قرمط ونسيبه عبدان.

وخلّف عبد الله ولدين أحمد وإبراهيم، وخلفه الأول في رئاسة الدعوة. ولا يكاد يعرف عن أحمد شيء، ولكن يفترض أنه كان يسافر بزي التجار بين سلمية والكوفة وعسكر مكرم وبلاد الديلم وأنه بثّ دعاته(٤٨). وفي التراث الإسماعيلي أنه مؤلف **رسائل إخوان الصّفا**(٤٩).

وخلّف أحمد ولدين الحسين وأبو علي محمد الذي لقّب بأبي الشلغلغ. ويذكر أنّ الحسين عاش في عسكر مكرم، بينما عاش أبو الشلغلغ في سلمية(٥٠).

ولعل الحسين بن أحمد اهتم أكثر بفقه الدعوة «أبان الرسائل»، وبثّ دعاته، ويبدو أنه زار الكوفة وهناك اتصل به أبر القاسم فرج بن حوشب منصور اليمن، وكان من أهل الكوفة ومن أهل بيت علم وتشيّع وأدخله في الدعوة وأعده لليمن، وكذلك لقي علي بن الفضل، وهو يمني من أهل جيشان وأدخله في الدعوة وأرسله إلى اليمن مع ابن حوشب ٢٦٧ هـ/ ٨٨١ هـ(٥١).

ويفترض أن الحسين توفي حوالى ٢٦٨ هـ/ ٨٨٢ م وخلّف ولداً عمره ثمان سنوات اسمه سعيد، وخلفه أبو الشلغلغ في قيادة الدعوة.

وفي زمن محمد (أبو الشلغلغ) توسّعت الدعوة، فقد وصل ابن حوشب ورفيقه علي بن الفضل إلى اليمن سنة ٢٦٨ هـ/ ٨٨١ م، وبعد ذلك بحوالى سنتين أرسل ابن حوشب ابن أخيه الهيثم داعياً إلى السند حيث انتشرت الدعوة.

---

(٤٧) انظر: قوام الدين أبو علي الحسن بن علي نظام الملك، **سياست نامة، أو، سير الملوك**، ترجمة يوسف حسين بكار، ط ٢ مزيدة ومنقحة (الدوحة: دار الثقافة، ١٩٨٧)، ص ٢٥٧ ـ ٢٦١، و Halm, *The Empire of the Mahdi: The Rise of the Fatimids*, p. 28.

(٤٨) انظر: عماد الدين، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٥٨، ٣٦٣ ـ ٣٦٤ و٣٩٤، و Halm, Ibid., p. 14.

(٤٩) ويتحدث **عيون الأخبار** عنها في: عماد الدين، المصدر نفسه، ج ٤، ص٣٦٧ـ ٣٩٣، و Daftary, *The Ismailis: Their History and Doctrines*, p. 107.

(٥٠) الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر**، ج ٦، ص ١٢.

(٥١) انظر: عماد الدين، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ و٣٩٦ ـ ٤٠١، وأبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور التميمي بن حيون، **رسالة افتتاح الدعوة (رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية)**، تحقيق وداد القاضي (بيروت: [دار الثقافة]، ١٩٧٠)، ص ٣٢ وما بعدها.

ومن عام ٢٨٠ هـ/ ٨٩٢ م عمل الداعي أبو عبد الله الشيعي على بثّ الدعوة بين قبائل البربر (في الجزائر اليوم). وأرسل أبو سعيد الجنابي من قِبل حمدان إلى البحرين وانتشرت دعوته، وبحلول ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩م استولى على قسم كبير من البحرين والقطيف، وفي سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣م استولى على هجر، واتخذ مقره في الأحساء[٥٢].

وفي الرواية الإسماعيلية أن أبا الشلغلغ رعى ابن أخيه سعيداً وزوّجه ابنته وقام ستراً عليه (مستودع). ولما توفي أبو الشلغلغ ربما سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٣م، ولم يخلّف ذكراً سُمي ابن أخيه سعيد بن الحسين خلفاً له، واشتهر باسمه التالي عبيد الله المهدي وصار أول الخلفاء الفاطميين.

وهكذا فحسب التراث الإسماعيلي كان قادة الدعوة في سلمية أئمة علويين فاطميين إلاّ أن أبا الشلغلغ لا يعتبر إماماً بل وصياً إذ كان ستراً على ابن أخيه المهدي الذي يعتبر الإمام بعد والده الحسين[٥٣].

ولعل الإسماعيلية ينفردون عمن تقدمهم بتبلور فكرة الإمام المستودع[٥٤]. وبالتنظيم الدقيق لدعوتهم. ولكن علينا أن نتذكر أن جذور الحركة مغمورة في الغلو، وأنها ظهرت في عصر انتشار الفلسفة اليونانية.

أما المؤرخون المسلمون فيؤكدون أهمية دور «الثنوية والمجوس» في الحركة ويعتبرونهم عنصراً رئيسياً في نشوئها[٥٥]. فالبغدادي يقول: «وذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم»[٥٦]. ويقول أيضاً: «لا نجد على ظهر الأرض مجوسياً إلا وهو مواد لهم (للباطنية) منتظر لظهورهم على الديار؛ يظنون أن الملك يعود إليهم بذلك»[٥٧]

---

(٥٢) انظر: Daftary, *The Ismailis: Their History and Doctrines*, p. 109.

(٥٣) انظر: عماد الدين، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٠٠؛ النيسابوري، **استتار الإمام**، ص ١١٦ ـ ١١٧، و Halm, *The Empire of the Mahdi: The Rise of the Fatimids*, p. 23.

(٥٤) **أربعة كتب إسماعيلية منقولة عن النسخة الخطية ٧٥ هـ المحفوظة في مكتبة امبروسيانة ميلانو**، عني بتصحيحها ر. شتروطمان (غوتينغن: المجمع العلمي، ١٩٤٣)، ص ١١٥.

(٥٥) انظر: أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ٥ ج (القاهرة: مكتبة المليجي، ١٣٢٤ ـ ١٣٢٦ هـ/[١٩٠٦ ـ ١٩٠٨م])، ج ٤، ص ١٩ ـ ٢٠؛ ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥ ص ١١٠؛ الديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، ص ٥، والدوري، **العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**، ص ٨٣ ـ ٨٥.

(٥٦) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٦٩.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

ويتحدث ابن النديم عن زيدان أو (دندان) وهو أهوازي بذل المال بسخاء لنشر الدعوة الإسماعيلية[٥٨] فيقول إنه كان «متفلسفاً حاذقاً بعلم النجوم شعوبياً شديد الغيظ من دولة الإسلام. . . كان يزعم أنه وجد في الحكم النجومي انتقال دولة الإسلام إلى دولة الفرس ودينهم الذي هو المجوسية»[٥٩].

ويحاول مؤرخو الفرق إظهار المذهب الإسماعيلي كمذهب ثنوي. فيقول البغدادي: «وذكر زعماء الباطنية في كتبهم أن الآله خلق النفس فالآله هو الأول والنفس هو الثاني وهما مدبرا هذا العامل وسموهما الأول والثاني، وربما سموهما العقل والنفس. . وقولهم إن الأول والثاني يدبران العالم هو بعينه قول المجوس بإضافة الحوادث إلى الصانعين: أحدهما قديم والآخر محدث. إلا أن الباطنية عبرت عن الصانعين الأول والثاني وعبر المجوس عنهما بيزدان وأهرمن»[٦٠].

وقد انقسم الباحثون تجاه هذه المسألة، فالبعض يقبل نظرة مؤرخي الفرق[٦١] والبعض يرفضها.

فماسنيون يعتقد أن رعب السُنّة لسرعة انتشار المبادئ القرمطية وتوسعها في أكثر مراكز الإسلام جعل مؤرخي الفرق يرون فيها حركة معادية للإسلام، ناشئة عن دين أجنبي ـ المزدائية، المزدكية (خرمية)، المانوية ـ وعن عداء عنصري كحركة إيرانية ضد العرب[٦٢].

ويرى إيفانوف أن الحركة الإسماعيلية هي نتيجة تطور منطقي مستقيم لمبادئ الإسلام الأولي[٦٣]. وأنها تمثل تذمر الناس ضد العباسيين والكره الشديد لعائلتهم[٦٤]، وأنها كانت ضد فكرة العنصرية، بل إنها تدعو إلى جمع الشعوب تحت راية واحدة هي راية الإسلام[٦٥].

ولكننا إن لاحظنا تطرفاً في تهم مؤرخي الفرق للحركة الإسماعيلية فليس معنى

(٥٨) انظر: Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*, pp. 69-71.

(٥٩) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٢٧٦.

(٦٠) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٤٦٩.

(٦١) مثل دي ساسي، ودي غويه، وكيارد.

(٦٢) Louis Massignon, in: *Encyclopedia of Islam*, vol. 2, p. 770.

(٦٣) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, p. xvii.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٦٥) Ibid., p. xvii

ذلك أنها خالية من الصحة. فمما لا شك فيه أن هناك صلة وثيقة بين آراء الإسماعيلية والآراء التي تتمثل في الحركات الدينية في إيران كالراوندية والخرمية والبابكية(٦٦). ففكرة التأويل مانوية في الأصل(٦٧). وفكرة البنوة الروحية معروفة عند الكيسانية(٦٨). والآراء في الحلول والرجعة والتناسخ معروفة لدى جميع الغلاة(٦٩) وفكرة إيداع الإمامة إلى شخص، معروفة عند بعض فرق الغلاة قبل الإسماعيلية(٧٠). ثم إن الحركة الإسماعيلية استفادت كثيراً من برنامج الخرمية الاجتماعية مع بعض التعديلات التي اقتضتها الخبرة المكتسبة وتبدل الظروف، وإنها تكوّن حلقة هامة في نمو المبادئ المزدكية التي تطورت بظهور الإسلام واكتست ثوباً إسلامياً، فظهرت في الخرمية وفي البابكية، وثم في الإسماعيلية. وقد أدرك المؤرخون المسلمون ذلك حتى قالوا، إن المزدكية والخرمية والبابكية والإسماعيلية حركة واحدة(٧١). ويذكر ابن الجوزي أن من أسمائهم المزدكية «وأن ذلك لانتسابهم إلى مزدك صاحب الثنوية، ولأنه بمذهبهم في السابق والتالي (أو العقل والنفس) واستباحة الأموال والفروج»(٧٢).

ويؤكد المؤرخون على تأثرهم بالفلسفة اليونانية فيقول الشهرستاني: «ثم إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج»(٧٣). ويقول الديلمي: «ومن وجدوه (الإسماعيلية) فيلسوفاً فهو منهم»(٧٤).

---

(٦٦) الدوري، **العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**، ص ٣٦ ـ ٣٧ و٨٤ ـ ٨٥.

(٦٧) ويرى كل من إيفانوف وماسنيون أنها إسلامية دون أن يوضّحا ذلك. انظر: Ivanow, Ibid., p. xvii, and Massignon, in: *Encyclopedia of Islam*, vol. 2.

انظر أيضاً: Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 139.

(٦٨) أخبار العباس وولده (خط)، انظر: Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*, pp. 28-29.

(٦٩) الشهرستاني، **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ج ٢، ص ١٠ ـ ١١، ويرى براون أنها آراء كامنة في التربة الإيرانية وأنها تظهر كلما أثيرت. انظر: Browne, Ibid., vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, pp. 11-13.

(٧٠) Lewis, Ibid., p. 50.

(٧١) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١، والديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، ص ٥.

(٧٢) نظام الملك، **سياست نامة، أو، سير الملوك**.

(٧٣) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل**، باعتناء غويرتن، ٢ ج (ليبزج: [د. ن.]، ١٩٢٣)، ص ١٤٧.

(٧٤) الديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، ص ٥ و١٦، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٠.

ويظهر هذا جلياً في **رسائل إخوان الصفا** الذين كانوا كما يظهر إسماعيلية حاولوا قلب المجتمع عن طريق نشر الثقافة والفلسفة بشكل مبسط بين الجمهور[(٧٥)].

ويرى ماسنيون أن الحركة الإسماعيلية تتميز من الناحية الثقافية بأنها جعلت اللغة العربية مطاوعة لبعض إنتاج الأجانب الفكري وخاصة الإنتاج الهيليني. ويعتقد أنهم كالمعتزلة يمثلون اليقظة الأولى للفكر الإسلامي على اثر اتصاله بالعلوم اليونانية[(٧٦)].

٤ ـ ولعل أروع ما في الحركة الإسماعيلية تنظيمها وأساليب دعايتها العجيبة التي تدل على إدراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الأدنى وعلى فهم دقيق لمصادر التذمر عندهم؛ فقد كانوا يعتنون باختيار دعاتهم كل الاعتناء ويزودونهم بإرشادات مهمة تتفق وروح البيئة التي يدعون فيها.

يقول براون: «الداعي شخصية فارسية تماماً بأوصافها وأساليبها، لم تتغير منذ زمن أبي مسلم حتى اليوم (في البابية)»[(٧٧)]. وكان الداعي يتظاهر عادةً بمهنة معروفة ـ تجارة، طبابة، كحالة ـ وكانت أولى غاياته أن يأخذ بألباب من حوله ويحملهم على الاعتقاد الراسخ بتقواه وصلاحه. وللوصول إلى ذلك كان يكثر من الصلاة والصوم وإعطاء الصدقات حتى يكوّن لنفسه شهرة بالصلاح ويجمع حوله حلقة من المعجبين به. وكان يهتم كثيراً بمعرفة عقائد سامعيه ويخاطبهم باللهجة المناسبة. ولذا كانت تلك اللهجة تختلف باختلاف مذهب المدعو أو دينه[(٧٨)]. فمثلاً يُظهر التشيع إمام الشيعة، ويقول بانتظار المسيح أمام اليهود، والمسيح هو محمد بن إسماعيل، ويعظم الثالوث أمام المسيحيين، والكواكب أمام الصابئة، والنار أمام المجوس، ويقول بقدم العالم وبإبطال النواميس أمام الفلاسفة، ويسخف العبادة أمام أهل المجون[(٧٩)] ويؤكد أن

---

(٧٥) انظر: **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة «إخوان الصفا»؛ إخوان الصفا، **رسائل إخوان الصفا**، باعتناء الزركلي، ٤ ج في ٢ (القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٢٨)، ج ١، ص ٧ ـ ٨؛ أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، **إخوان الصفا**، ص ١٦، ٢٣ و٢٦؛ Reynold A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, 2nd ed. (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, [1930]), p. 371, and Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, pp. 22-25, 60-61 and 67.

(٧٦) Massignon, in: *Encyclopedia of Islam*, vol. 2, p. 771.

(٧٧) Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, p. 410.

(٧٨) «ويتكلمون مع الناس على قدر عقولهم ودرجاتهم. . . ويدخلون على كل فرقة من فرق الأمة المسلمة وغيرها من جهلهم». انظر: الديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، ص ١٥. «ويميلون إلى كل قوم بسبب يوافقهم». انظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ٤١.

(٧٩) الديلمي، المصدر نفسه، ص ١٥ ـ ١٦، وابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٤ ـ ١١٥.

الفطنة في اتباع اللذة وبهذه الوسيلة يخلق جواً من الألفة بينه وبين المدعوين.

ولما كان الناس مختلفين في ذكائهم وفي استعدادهم لقبول المبادئ، الإسماعيلية فإنهم اتبعوا طريقة التنشئة، بأن جعلوا الدعوة على درجات يمر بها المدعو حسب قابليته واستعداده. وكانت درجات التنشئة سبعاً ويظهر أنها كانت كذلك عند قرامطة العراق. فابن النديم يشير إلى أحد كتب الإسماعيلية الأولى وهو كتاب **البلاغات السبعة** ويوضح درجات الدخول في الدعوة فيقول: «ولهم البلاغات السبعة وهي: كتاب البلاغ الأول للعامة، كتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلاً، كتاب البلاغ الثالث لمن دخل المذهب سنة، كتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب سنتين، كتاب البلاغ الخامس لمن دخل المذهب ثلاث سنين، كتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب أربع سنين، كتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر»[٨٠]. ومن هذا يتبيّن وجود حد زمني للانتقال من درجة إلى درجة في المذهب.

ثم جعلت المراتب تسعاً على ما يظهر[٨١]. وفيما يلي نورد موجزاً لتلك الدرجات:

(١) يبدأ الداعي بحذر وتأن في عرض مبادئه، محاولاً إثارة حب الاستطلاع في نفوس سامعيه، وبثّ روح التساؤل فيهم وأن يحملهم على الاعتقاد بحكمته ورجاحة عقله. ومع ذلك فهو مستعد في أية لحظة لأن يتراجع متى لاحظ فيهم بوادر الشك والهياج. فيسأل الداعي من يدعوه عن بعض «المشكلات وتأويل الآيات ومعاني الأمور الشرعية وعن شيء من الطبيعيات ومن الأمور الغامضة». ثم يتحدث عن الدين من حيث هو علم مستور ويؤكد المعاني الخفية لأوامره، ويبيّن أن التمسك بظواهر الأوامر الدينية يؤدي إلى الضلال كما يبيّن «أن الآفة التي نزلت بالأمة وشتت الكلمة وأورثت الأهواء المضلة (هي) ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها»[٨٢]. فإذا أظهر المدعو رغبة

---

(٨٠) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٢٦٨.

(٨١) المصدر الرئيسي هو النويري، وهو خطي ولكن دي ساسي (De Sacy) ترجمه في مقدمة كتابه. انظر: شهاب الدين أحمد عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٣٣ ج (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥ ـ ١٩٩٢)؛ البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ١٨٢ وما بعدها؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج ٢، ص ٢٢٧ وما بعدها؛ الديلمي، المصدر نفسه، ص ٢٥ وما بعدها، و Antoine Isaac Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem-biamr-Allah*, 2 vols. (Paris: L'Imprimerie, 1838).

(٨٢) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٧.

في التعليم، بدأ الداعي ببعض الشرح، ثم يقف في وسطه مبيّناً أن أسراراً إلهية كتلك لا يمكن بيانها إلا لمن أقسم بالولاء للإمام (إمام الزمان) ممثل الله المختار على الأرض والمستودع الوحيد لعلم الباطن الذي يعلمه لمن أظهر نفسه جديراً بذلك. وغاية الداعي هي الحصول بالدرجة الأولى على هذا الولاء مؤكداً بقسم غليظ، ومعبراً عنه بدفع ضريبة للإمام. وفي القسم عهد بألا يفشي المدعو سر الدعوة، وألا يساعد أياً كان من أعدائها ضدها، وألا يحاول التآمر عليها وأن يكون ناصحاً للإسماعيلية[٨٣].

(٢) يفهم المدعو أن رضا الله لا يكون بمجرد اتباع أوامر الإسلام، بل يستلزم معرفة معناها الباطن عن «أئمة نصبهم للناس وأقامهم لحفظ شريعته».

(٣) يعلم المدعو أن الأئمة سبعة، ويفهم شيئاً عن معنى رقم سبعة في العوالم الروحية والمادية. وهكذا يفصل بصورة أكيدة عن مذهب الإمامية (الاثني عشرية فيما بعد) ويقرر عنده «بأن محمد بن إسماعيل عنده علم المستورات وبواطن النصوص التي لا يمكن أن توجد عند أحد غيره. وأن عنده أيضاً علم التأويل. . . وعنده سر الله تعالى في وجه تدبيره المكتوم. . . وتأويل التأويلات، وأن دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة»[٨٤] كما يفهم أن بقية الأئمة هم أشخاص اعتياديون.

(٤) يعلم المدعو الأدوار النبوية السبعة، وطبيعة الناطق والأساس، والأئمة الستة الباقين (الصامتين) الذين يخلفونه، وأن كل ناطق ينسخ شريعة سلفه، وأن محمداً ليس آخر الأنبياء، كما إن القرآن ليس آخر ما أنزله الله، بل أن محمداً بن إسماعيل هو الناطق السابع والأخير، القائم صاحب الزمان «الذي انتهى إليه علم الأولين وقام بعلم بواطن الأمور وكشفها وإليه المرجع في تفسيرها دون غيره، وعلى جميع الكافة اتباعه. . لأن الهداية في موافقته واتباع الضلال والحيرة في العدول عنه»[٨٥].

(٥) يتعلم المدعو بصورة واسعة معنى الأرقام (٧، ١٢) وتطبيق التأويل. ويتعلم معنى الرقم (١٢) والاعتراف بالحجج الاثنتي عشرة التي تسيّر دعوة كل إمام.

وهؤلاء الحجج موزعة على جزر الأرض الاثنتي عشرة. ويرى إيفانوف أن الجزر تعني القطع وتفسيرها هنا شعوب الأرض الاثني عشر وهم: العرب، الترك،

---

(٨٣) انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ و٢٣٤ حيث ترى أمثلة من أسئلة الدعاة، والديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، ص ٢٧ ـ ٢٩ لترى نص القسم.

(٨٤) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٨٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣١.

البربر، الحبش، الخزر، الصين، الديلم (إيران)، الهند (شرق أفغانستان)، السند (عامة الهند)، الصقالية. وهذا التقسيم يستند أحياناً إلى أساس جغرافي وأحياناً إلى أساس اثنوغرافي[٨٦].

(٦) يعلم المدعو «تفسير معاني شرائع الإسلام: من الصلاة، والزكاة، والحج، والطهارة، وغير ذلك من الفرائض بأمور مخالفة للظاهر»، ويقتنع بأن مراعاتها ليست بالمهمة بل يمكن نبذها ظاهرياً، لأنها وضعت من قبل مشرعين حكماء لضبط العامة. ثم يحثه الداعي على النظر في كتب الفلاسفة ويزيّن له «الاقتداء بالأدلة العقلية والتعويل عليها».

(٧) لا يصل هذه الدرجة إلا الدعاة الذين يستطيعون فهم طبيعة المذاهب الحقيقية وغايتها. وهنا يطلع المدعو على المبدأ الثنوي في «السابق» (المفيد) و«التالي» (أو المستفيد واللاحق) الذي يقصد به هدم عقيدة المدعو بمبدأ التوحيد.

(٨) هنا يشرح مبدأ «السابق» و«التالي» بشكل يجعل المدعو في زمرة الثنوية. ويعلم المدعو «أن معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير أشياء ينتظم بها سياسة الجمهور وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوي معاني فلسفية تنبئ عن حقيقة آنية السماء والأرض وما يشتمل العالم عليه بأسره من الجواهر والأعراض فتارة رموز يعلقها العالمون وتارة بافصاح يعرفه كل أحد فينتظم بذلك للنبي شريعة يعرفها الناس»[٨٧]. ويفهم المدعو بالتأويل معنى القيامة والحشر والثواب والعقاب.

(٩) وفي هذه المرحلة يزول كل أثر للعقائد، ويصبح الشخص فيلسوفاً له الحرية بأن يتبع أي مذهب وحده، أو مزيجاً من المذاهب (فلسفية ودينية) يناسب ميوله. ويروي النويري أن الكثير يتبع مذهب ماني أو ابن ديصان أو المذهب المجوسي (المزدكي) وأحياناً مذهب أفلاطون وسقراط، وفي أغلب الأحيان يقتبس بعض الآراء من كل هذه المذاهب ويربطها معاً[٨٨].

وتعرف هذه الدرجات بالأسماء التالية:

(١) الزَرْق والتفرُّس أي معرفة نفسية المدعو ومدى استعداده لقبول الدعوة.

---

(٨٦) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, p. 21.

(٨٧) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٣.

(٨٨) ويقول المقريزي في آخر فصله عن الدعوة: «وهذا حاصل علم الداعي ولهم في ذلك مصنفات كثيرة منها اختصرت ما تقدم ذكره». انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٣، و Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, p. 410.

(٢) التأنيس. (٣) التشكيك أي جرّ المدعو إلى الشك المنظم في عقائده. (٤) التعليق أي أخذ القسم. (٥) الربط. (٦) التدليس. (٧) التأسيس. (٨) الخلع. (٩) السلخ أو المسخ[٨٩].

وهكذا يتضح لنا أن جمهور مؤرخي السُنَّة اتهموا الإسماعيلية بأنهم كانوا يريدون سلخ الناس عن المذاهب والأديان وخاصة عن الدين الإسلامي ليتركوا لهم الخيار في اتباع أي مذهب، وخاصة المذاهب الفلسفية والمجوسية بروح يصحبها التسامح الديني المطلق. وقد صرح ابن النديم بعدم اطمئنانه إلى معلوماته بعد أن استقاها من ابن رزام[٩٠]، بينما اعترف ابن الجوزي بأنه «أخذ معلوماته عن الإسماعيلية، من أقوام تدينوا بدينهم ثم بانت لهم قبائحهم فتركوا مذهبهم»[٩١]. وهذا ما يدعو إلى الشك في الكثير مما يروى عن الإسماعيلية.

يرى ماسنيون أن الغرض من التنشئة هو أن يبيّن بأن ظاهر كل المذاهب والأديان يخفي وراءه الباطن نفسه، وأن التنشئة تنتهي بتعليم الفلسفة النظرية والتفكير الفلسفي. وهو يعتقد بأن الإسماعيلية هيّأوا الأذهان لفهم الفلسفة اليونانية وأنزلوا الفلاسفة القدماء (أفلاطون وفيثاغورس مثلاً) منزلة الأنبياء وأثاروا جماعتهم لقراءة بعض الكتب الفارسية ككتب جاماسب، ونظروا إلى أصحابها كأنبياء[٩٢].

أما إيفانوف فيستنتج من دراسته لكتب الإسماعيلية (ولا شك في أنه يتجه إلى الدفاع عن هذا المذهب) بأن المذهب الإسماعيلي أثاره وغذاه شعور ديني عميق وأنه أدق المذاهب توحيداً، وأن غايته المثلى هي الانتصار الأخير للدين الإسلامي، والتوحيد النهائي للبشر في ظل إمام واحد من آل الرسول، فهو وحده القادر على هداية الإنسانية المعذبة إلى حياة هادئة صحيحة، وهو يملأ الأرض عدلاً ورخاء بعد أن ملئت ظلماً وشقاء[٩٣].

أما أنا فأرى أن المذهب الإسماعيلي كان يستهدف قبل كل شيء إحداث ثورة اجتماعية، ويرى في الدين الإسلامي أساساً للنظام القائم، فحاول بطريقة التأويل والتنشئة توحيد المتذمرين من كل العناصر والأديان في جو من التعاون والحرية الفكرية لتقويض المجتمع وإقامة آخر لا استغلال فيه ولا تحكم دين أو عنصر.

---

(٨٩) الديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، ص ٢٥، والبغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٨٠ وما بعدها.

(٩٠) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٢٦٤ و٢٦٨.

(٩١) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٧.

(٩٢) Massignon, in: *Encyclopedia of Islam*, vol. 2, pp. 770-771.

(٩٣) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, pp. xvi-xvii.

والآن ـ وبعد هذا العرض المجمل الشامل لحركة الإسماعيلية ـ ننتقل إلى البحث عن حركة أخرى لها صلة وثيقة بالحركة الإسماعيلية العامة، تلك هي حركة القرامطة في العراق وبادية الشام، ويجب أن نعترف بأن هذه الصلة مضطربة، كما إن المعلومات عن القرامطة معقدة وذلك بنتيجة الارتباك في إطلاق هذا الاسم على فرق دينية مختلفة[٩٤]. يتفق جمهور المؤرخين على أن حركة القرامطة في العراق وسوريا كانت جزءاً من الدعوة الإسماعيلية.

ولدينا روايتان في مبدأ الدعوة في العراق:

فالرواية الأولى فحواها: أنه بعد وفاة عبد الله بن ميمون القداح أرسل ابنه وخلفه أحمد، الداعي حسين الأهوازي فجاء سواد الكوفة يقصد منطقة قس بهرام[٩٥]، فلقي في طريقه حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ودعاه إلى مذهبه، فاستجاب حمدان بعد أن استوثق منه الداعي بقوله: «أن تجعل لي وللأمام على نفسك عهد الله وميثاقه ألا تخرج سر الإمام الذي ألقيه إليك، ولا تفشي سري أيضاً»[٩٦]. ثم دعا حمدان صاحبه للإقامة في داره ودعوة أهل قريته. فرضي وقام بالأمر فتبعه أهل القرية ومكث هو بينهم يعيش من شغله في الحياكة. وكانوا يجلّونه كثيراً لأنه يصوم النهار ويقوم الليل. ومما زاد في احترامه أن أغنياء الكوفة استأجروه لحراسة تمره فأدى واجبه بكل أمانة. وكان حمدان موضوع ثقة الأهوازي ولذلك كشف له عن خططه دون تحفظ. ولما حضرته الوفاة عهد إلى حمدان برئاسة الدعوة[٩٧].

أما الرواية الثانية فمؤداها أن أهوازياً قدم سواد الكوفة (منطقة النهرين)، وكان يظهر التنسك والتقشف ويدعو الناس إلى إمام من أهل البيت. واشتهر بالأمانة ولا سيما بعد أن استأجره بعض التجار لحراسة تمرهم. ثم اعتل وبقي مطروحاً على الطريق حتى مرّ به «رجل يحمل على أثوار له، أحمر العينين شديد حمرتهما. وكان أهل القرية يسمونه كرميته . . وهو بالنبطية أحمر العينين»[٩٨]. ولما أبل دعا أهل القرية إلى مذهبه فأجابوه. وكان يأخذ من كل رجل دخل مذهبه ديناراً للإمام. وعندما لاحظ

---

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٩٥) أو منطقة النهرين ولعلها منطقة واحدة.

(٩٦) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٣.

(٩٧) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج ٢، ص ٣٣٤، و Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem-biamr-Allah*, vol. 1, p. clxx.

(٩٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ج ١١، ص ٣٣٨.

انتشار دعوته اختار لها اثني عشر نقيباً من أصحابه، وفرض على أتباعه خمسين صلاة كل يوم وليلة فكان ذلك مما يعوقهم عن العمل. ولما لاحظ رجل يسمى الهيصم تقصير فلاحيه في عملهم وعرف مصدر ذلك قبض على الأهوازي وسجنه ليقتله في اليوم التالي إلا أن جارية الهيصم أطلقته سراً فاعتقد الناس أنه اختفى. وبعد مدة ظهر في جهة أخرى وقال للناس إنه لا يستطيع أحد إيذاءه ولكنه قرر الرحيل إلى الشام خوفاً على نفسه، واستخلف حمدان محله[(٩٩)].

ومهما يكن من شيء فالذي يمكن استخلاصه من هاتين الروايتين هو أن أحمد بن عبد الله أرسل داعية إلى منطقة الكوفة فنجح في بثّ الدعوة فيها. وكان أهم من استجاب له حمدان الملقب بقرمط. فعهد إليه الداعي برئاسة الدعوة (عند وفاته أو عند عودته إلى الشام). ويرى دوغويه (De Goeje) أن الحسين الأهوازي هو ابن عبد الله بن ميمون القداح وأنه رجع إلى سلمية بعد تنظيم الدعوة في العراق. كما يرى أن بدء الدعوة كان حوالى سنة ٢٦١هـ[(١٠٠)]. لكننا نميل إلى الاعتقاد بأن الأهوازي هو أحد أتباع عبد الله بن ميمون المخلصين أرسله أحمد بن عبد الله إلى العراق[(١٠١)].

٢ ـ ويفهم من المؤرخين أن أصل تسمية القرامطة مأخوذ من قرمط لقب حمدان ولا يهمنا اختلاف الكتّاب في تفسير معنى اللقب[(١٠٢)].

ولكن إيفانوف لا يرضى بنسبة الحركة إلى حمدان قرمط ويحتج على إهمال المؤرخين فكرة النمو المتدرج بين الجماهير، ومحاولة نسبة الحركات إلى أشخاص[(١٠٣)]. ثم يقول إن «كرامته» أو «كرموته» ـ وهي كلمة عراقية جنوبية لم تستعمل في العربية في أية جهة أخرى ـ تعني الفلاح أو القروي. ثم عرّبت بعدئذٍ إلى «قرمط» وهي كلمة عربية لها معان مختلفة وأن هذا التعريب حصل في اسم زعيم محلي وهو حمدان قرمط

---

(٩٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣٨؛ ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٢، و Silvestre de Sacy, Ibid., vol. 1, p. clxxvi.

(١٠٠) Silvestre de Sacy, Ibid., vol. 1, p. clxviii, and M. J. de Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides* (Leiden: E. J. Brill, 1896), p. 31.

(١٠١) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج ٢، ص ٣٣٤، وابن النديم، **الفهرست**، ص ٢٦٥.

(١٠٢) انظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٢؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٣٨؛ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة**، [تحقيق] محمد بدر الدين النعساني (القاهرة: جمالي وخانجي، ١٣٢٣هـ/[١٩٠٥])؛ محمد سراج الدين المخزومي، **صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية** ([نيودلهي]: مطبعة نخبة الأخبار، ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م)، و De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, pp. 197 sqq.

(١٠٣) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, p. 76.

فاعتبرت كل الجماعة أتباعه وسميّت باسمه، ولو أن الكثير من أفرادها قد لا تكون لهم صلة به[١٠٤]. وهذا تعليل له وجاهته.

ويظن كازانوفا (Casanova) أن القرامطة هم في الأصل من الكيسانية ثم اتحدوا بالإسماعيلية في ما بعد[١٠٥].

أما إيفانوف فيقول بأن الروايات الواردة عنهم تشير إلى اجتماع غريب لعناصر دينية متضادة في تكوين المذهب القرمطي. فمثلاً نرى ترك مراسيم العبادة الإسلامية (رفض الظاهر) بجنب التدين الظاهر في فرض خمسين صلاة يومياً على كل فرد[١٠٦]، وكذا وجود مجموعة كبيرة من الأئمة الذين اعترفوا بهم من إسماعيلية وكيسانية، كما إن بعض العقائد المنسوبة إليهم تتصل بالكيسانية أو بالخطابية وحتى بآراء الخوارج[١٠٧]. وهذا لا يستبعد إذا قدرنا المزج الداخلي للعقائد وهو محتمل في عقائد الجماهير في السواد وخاصة وقد كانت بينها أوقات مختلفة أتباع تلك الفرق[١٠٨].

وعلى كل فلم يكن للقرامطة كيان أو اسم حتى نظمهم حمدان قرمط[١٠٩].

٣ ـ أما حمدان فلعله كان نبطياً من قريبة سواد الكوفة و«كان يميل إلى الزهد»[١١٠]. ويظهر أنه كان «أكارا بقارا»[١١١]، ويصفه ابن النديم بأنه كان داهياً[١١٢] ويعتقد دي ساسي (De Sacy) بأنه رجل طموح خصب القريحة أظهر حماساً عظيماً للدعوة[١١٣]. ولا شك في أنه قام بدور خطير في حركة القرامطة. ويجب أن لا يغرب عن بالنا أن الظروف كانت عوناً له وفي صالحه؛ فقد كان لحركة الزنج وما

---

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٦٩، و Massignon, in: *Encyclopedia of Islam*, vol. 2, p. 767.

(١٠٥) Casanova, *La Doctrine Secrete des Fatimides d'Egypte*, p. 3

وهو متأثر بنص كتاب يورده الطبري وينسبه إلى القرامطة. انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٣٩.

(١٠٦) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣٨.

(١٠٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣٩.

(١٠٨) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, pp. 69-70.

(١٠٩) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣٧، تحت سنة ٢٧٨هـ.

(١١٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣٨، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٣.

(١١١) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٢٦٥، والطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣٨، «أكارا بقارا» أي أنه كان أكارا يحمل على البقر.

(١١٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢٦٥.

(١١٣) Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem-biamr -Allah*, vol. 1, p. clxxiv.

أورثته من تخريب وفوضى في جنوب العراق أثر حاسم في تسهيل نشر الدعوة في مختلف جهاته. وقد حاول حمدان التحالف مع صاحب الزنج، فقابله وفاوضه، ولكنه أخفق في ذلك[١١٤]. وبعد القضاء على حركة الزنج لم تفكر الحكومة في اتخاذ تدابير جدية لقمع حركة القرامطة الناشئة. فيذكر الطبري أنه بعد أن فشا أمر القرامطة بسواد الكوفة وكثروا، أطلع العامل أحمد بن محمد الطائي (ولي سنة ٢٦٩ هـ) على أمرهم ففرض على كل منهم ضريبة شخصية قدرها دينار وحاول بعض الكوفيين تنبيه الحكومة إلى خطرهم، ولكن لم يعاروا التفاتة[١١٥].

اتخذ حمدان مقره في كلواذى على مقربة من بغداد، ليكون على صلة بالدعوة في إيران وبرئيسه القداحي (الذي عيّنه الإمام) في عسكر مكرم، وليرقب مجرى الأحوال في بغداد عن كثب ولعله كان يطمح إلى بثّ الدعوة في العاصمة نفسها وربما نجح في ذلك لحد ما[١١٦]. ويجعل ابن النديم بدء فعاليته سنة ٢٦١ هـ، وفي رواية ٢٦٤ هـ (الشريف أخو محسن)، وقد نجح حمدان فعلاً في نشر دعوته في السواد مستغلاً الظروف السيئة التي كانت تتعاوره وغفلة الحكومة. فكان يأخذ من كل تابع ـ بعد أن يقسم يمين الإخلاص للإمام ـ ديناراً. ويفرض عليه يومياً خمسين صلاة[١١٧]. ثم عين اثني عشر نقيباً لتنظيم الدعوة وبثّها[١١٨]. وهذا التنظيم مما يدل على مدى انتشار الحركة ودرجة تأثرها بأساليب الدعاية العباسية. وقد انضم إليه علاوة على السواديين بعض العرب، واتخذ بعضهم دعاة لبثّ الدعوة بين كثير من القبائل بنجاح. وهذا مما زاد قوة حزب حمدان[١١٩]. وكان أكبر رجال حمدان وساعده الأيمن نسيبه عبدان الذي كان إليه الإشراف المباشر على الدعاة كما يظهر. ومن بين دعاة الأخير المشهورين زكرويه الذي أدرك عبدان مزاياه، فولاّه منطقة واسعة من السواد، كما عين أبا سعيد الجَنَّابي لجنوب إيران[١٢٠]. وكان لعبدان عدد كبير من الدعاة يذهب كل منهم مرة في الشهر على الأقل لزيارة منطقته. ويظهر أن عبدان كان فقيه الحركة القرمطية في هذا الدور ومؤلف عدة كتب من كتبها الهامة[١٢١].

---

(١١٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(١١٥) المصدر نفسه.

(١١٦) ابن النديم، **الفهرست**، ص ١٦٥.

(١١٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣٩.

(١١٨) De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, p. 27.

(١١٩) Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem-biamr -Allah*, vol. 1, p. clxxxv.

(١٢٠) De Goeje, Ibid., p. 31

(١٢١) يذكر ابن النديم منها ثمانية. انظر: ابن النديم، **الفهرست**، ص ٢٦٥.

أظهر حمدان مقدرة فائقة في التنظيم، فوضع بعض التدابير التي تكشف لنا عن أهمية العامل الاقتصادي الاجتماعي في الحركة وتلقي ضوءاً على سر انتشارها. وقد أشار النويري إلى ذلك بشيء من التفصيل فذكر سلسلة من الضرائب فرضها حمدان بالتدريج؛ إذ بدأ بأخذ ضريبة بسيطة من جميع الأتباع باسم (الفطر) وقدرها درهم على الرجل أو المرأة أو الطفل[١٢٢]. وبعد مدة فرض ضريبة الهجرة وهي دينار واحد على كل بالغ. ولعلها كانت لغرض إنشاء دار الهجرة. وكان الأتباع ملزمين بدفعها بالتضامن يساعد الغني منهم الفقير. ثم فرض ضريبة البلغة وقدرها سبعة دنانير[١٢٣]. يدفعها كل من أراد أن يشارك في «عشاء المحبة» (Agapi) وهي أكلة لذيذة قال لهم حمدان إنها طعام أهل الجنة أرسله إليه الإمام. وأخبرهم أن هذه أعظم درجة يدركها الإنسان في العقيدة وأن أهل البلغة هم المقربون. وبعد ذلك طلب من الأتباع خُمس أموالهم[١٢٤]، وقام بإحصاء دقيق لأموال أتباعه وأمتعتهم حتى إن المرأة كانت تدفع خُمس غزلها. وأخيراً فرض عليهم نظام (الألفة) الذي أراه أول مثل للاشتراكية طبّق في الإسلام[١٢٥]. ثم نصح أتباعه بشراء الأسلحة استعداداً للثورة كما يظهر وقد تمت هذه التدابير سنة ٢٧٦ هـ.

وبعض أن تأكد حمدان من سيطرته على أتباعه حلل لهم ترك الفرائض الدينية وقتل أعدائهم وأخبرهم بأن الدين معرفة الإمام وطاعته فقط. ثم جمع الدعاة وقرروا اختيار محل ليكون «دار هجرة ينحازون إليها ويجتمعون بها» فاختاروا قرية قرب الكوفة تدعى مهماباد ونقلوا إليها الأحجار وأحاطوها بسور قوي وأنشأوا فيها بناية واسعة، فلجأ إليها عدد كبير من الرجال والنساء من مختلف المناطق وكان ذلك سنة ٢٧٧ هـ[١٢٦].

٤ ـ وفي الوقت نفسه سارت الدعوة بنشاط خارج العراق فبدأت في اليمن سنة ٢٦٦ هـ/ ٨٧٩ م على يد ابن حوشب الذي أرسله الحسين بن أحمد بن عبد الله في

---

(١٢٢) وهي الصدقة التي تدفع عند انتهاء شهر رمضان.

(١٢٣) استناداً إلى: **القرآن الكريم**، «سورة النمل،» الآية ٦٤.

(١٢٤) استناداً إلى: المصدر نفسه، «سورة الأنفال،» الآية ٤١.

(١٢٥) استند في الألفة إلى: المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ١٠٣، و«سورة الأنفال،» الآية٦٣ على التوالي، وستشرح في القسم الأخير.

(١٢٦) انظر: بندلي جوزي، **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام** (القدس: [د. ن.]، ١٩٢٨)، ص ١٢٥؛ Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem -biamr -Allah*, vol. 1, pp. 186-192, and De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, pp. 27-31.

العراق. وفي سنة ٢٧٠ هـ أصبحت علنية. وفي سنة ٢٩٣ هـ عرفت بغداد أنهم غلبوا على «سائر مدن اليمن»(١٢٧).

وأرسل عبدان أبا سعيد الحسن بن بهرام الجَنّابي إلى جنوب إيران، فأظهر مقدرة كبيرة ولاقت تعاليمه الأولى نجاحاً كبيراً. فبشر بأن الله غضب على العرب لأنهم قتلوا الحسين، وأنه يحب شعب الأكاسرة الذين هم وحدهم أيدوا حقوق الإمام وقال بأن تعاليم محمد فيها كثير من الخطأ. ونجح أبو سعيد في تطبيق مبادئه الاشتراكية وأشرف بنفسه على إدارة أموال جماعته(١٢٨)، ولكن الشرطة اكتشفت فعالياته وصادرت أمواله، فهرب واختفى. ثم دعاه حمدان إلى مقابلته في كلواذى وأراد استغلال قابلياته في منطقة أخرى. فزوده بالدراهم والتعاليم وأرسله إلى البحرين حيث لاقى نجاحه الأكبر كما سنرى(١٢٩).

٥ ـ وفي هذا الحين شعر قرامطة العراق بقوتهم وبدأوا بحركاتهم العسكرية. فيذكر الطبري أنهم تحركوا أول مرة سنة ٢٨٧ هـ، ولكن يظهر أن بغداد شعرت آنئذ بخطورتهم لأنه لا توجد إشارة إلى ثورة فعلية في تلك السنة(١٣٠). وفي سنة ٢٨٤ هـ يرد أول ذكر لثورة قرمطية صغيرة. ومما يجلب الانتباه أنه كان لهم أتباع مهمّون في العاصمة ذاتها(١٣١).

ثم رفعوا علم الثورة في جنبلا (بين واسط والكوفة) في ذي الحجة سنة ٢٨٧هـ «وقتلوا من المسلمين جمعاً فيهم النساء والصبيان، وأحرقوا المنازل»(١٣٢). وعندئذ أنجد المعتضد عامله بدر الذي هاجمهم على غرة منهم «فقتل منهم. . . مقتله عظيمة ثم تركهم خوفاً على السواد أن يخرب إذ كانوا فلاحيه وعماله»(١٣٣). وفي أوائل سنة ٢٨٩ هـ ثاروا مرة أخرى في العراق «وانتشروا في سواد الكوفة» فدحرهم الخليفة، وأسر أحد رؤسائهم الذي يعرف بأبي الفوارس فقتله(١٣٤). ويذكر المسعودي أن أبا

---

(١٢٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٩٤؛ Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, p. 71; Silvestre de Sacy, Ibid., pp. 255 sqq; H. F. Al-Hamdani, *On the Genealogy of Fatimid Caliphs* (Cairo: [n. pb.], 1958), pp. 22 sqq, and De Goejo, Ibid., p. 33.

(١٢٨) كان أبو سعيد تاجر طحين ويلاحظ في تعاليمه أنها صدى لآمال الفرس وميولهم.

(١٢٩) De Goeje, Ibid., pp. 33-34.

(١٣٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٣٨.

(١٣١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٦٠.

(١٣٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٦٩.

(١٣٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٧٠.

(١٣٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٧٢، وأبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٠ هـ/[١٨٧٣ م])، ج ٧، ص ١٦٩ حيث يذكر محاكمته.

الفوارس وعد بالرجوع بعد أربعين يوماً، وأن العامة كانت تتجمهر لتشهد ذلك حتى فرّقتهم الشرطة أخيراً[(١٣٥)]. وفي هذه السنة نسمع أول مرة شيئاً عن القرامطة أتباع زكرويه في الشام.

٦ ـ وهنا تعترضنا مشكلة مهمة وهي تخلي حمدان قرمط وعبدان عن الدعوة وخروجهما على رئيسهم الأكبر. ويفسر ذلك بأن حمدان الذي كان على صلة برئيسه في سلمية لاحظ تعابير غير مألوفة في رسائله، تدل على تبدل مهم. فساوره الشك في الأمر، وأرسل عبدان ليتحرى الوضع فعرف عبدان أن أحمد بن عبد الله قد توفي فخلفه ابنه حسين، ولما اجتمع عبدان بالحسين بن أحمد سأله عن الإمام المدعو له وعن حجة ذلك الإمام فأجاب الحسين مستفسراً باستغراب «ومن هو الإمام إذن؟» فقال عبدان إنه محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي دعا له أحمد بن عبد الله بن ميمون وكان حجته فاستنكر القداحي ذلك وقال إن الإمام كان والده وأنه حل محله. وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القداحين وأنهم إنما خدعوا الناس وأرادوا اجتذابهم نحو صفوفهم بأن اتخذوا اسم محمد بن إسماعيل ذريعة.

ثم أطلع عبدان نسيبه على ما عرف من أمر الإمام فأشار عليه بجمع الدعاة، وبيّن لهم الواقع. ثم أمرهم بإيقاف الدعوة، فنفذ أمره وأوقفت الدعوة في المناطق التابعة له وقطع الدعاة صلتهم بسلمية. ولكنه لم يستطع إيقافهم في الأماكن الأخرى التي تسربت إليها الدعوة. ويبيّن النويري أن حمدان ترك كلواذى واختفى من مسرح التأريخ وأن أحد أبناء عبد الله بن ميمون ومقره الطالقان، مرّ بسواد الكوفة وحاول أن يجد حمدان فلم يستطع وقابل عبدان ليرجعه إلى الدعوة فأخفق، فتآمر مع زكرويه وقتل عبدان وكانت هذه الحوادث في سنة ٢٨٦ ـ ٢٨٧ هـ/ ٨٩٩ ـ ٩٠٠ م[(١٣٦)].

ويرى دي غويه أن انفصال حمدان وعبدان كان نتيجة لاختلاف عبيد الله المهدي وداعيته أبي عبد الله الشيعي، إذ شك هذا الداعي في أن المهدي هو الإمام وأخذ يتآمر ضده. فقتله المهدي (آخر سنة ٢٩٨ هـ) وكتب إلى أتباعه في المشرق أن عبد الله الشيعي ضل فطهره بالسيف. ويعتقد أن حمدان وعبدان أدركا من هذه الحادثة أن المهدي ليس إلا رئيس الدعاة سعيد عبيد الله الذي هرب من سلمية، وإذاً فالإمام

---

(١٣٥) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلّق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٤، ص ٢٠٢.

(١٣٦) «Introduction,» in: Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem -biamr -Allah*, vol. 1, pp. 193-200.

المستور ما هو إلا أسطورة خدعا بها، فانفصلا عن الدعوة وتلا ذلك اختفاء حمدان الغريب ومقتل عبدان. ويرى دي غويه أن مقتل عبدان وربما حمدان كذلك كان من تدبير عبيد الله المهدي[١٣٧]. ولكن هذا التعليل يجعل انفصال حمدان سنة ٢٩٨ هـ في حين أن المصادر تبيّن أن دور حمدان انقضى نهائياً قبل ٢٨٧ هـ، وأن حركات القرامطة في العراق والشام بين سنة ٢٨٩ ـ ٢٩٤ هـ كانت بزعامة آل زكرويه. وهذا بالإضافة إلى أن قتل الشيعي لا يمكن من استنتاج ما استنتجه (دي غويه).

ولإيفانوف فرضية يفترضها وهي أنه عند وفاة الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل (٢٦٨ هـ/ ٨٨١ ـ ٨٨٢ م) خلفه أخوه محمد بن أحمد، أكبر أفراد العائلة الإسماعيلية. وبعد وفاته (حوالى ٢٨٣ هـ/ ٨٨٦ م) خلفه في الإمامة أكبر أبناء أخيه وهو أبو محمد أخو المهدي. ولكن هذا كان معلولاً وغير نشيط فحل محله كما يظهر أخوه الأصغر الطموح عبيد الله المهدي فولّد ذلك تذمراً في بعض الجهات وأدى إلى انفصال حمدان قرمط واختفائه ولعله توفي لأنه كان مسناً. وينسب مقبل عبدان إلى يحيى بن زكرويه الذي كان طموحاً فاصطدم بعبدان وقتله بحجة عدم ولائه للإمام[١٣٨]. وفي هذا التفسير نقاط مشكوك فيها. منها أنه ينفي وجود الإمامة المستودعة وله رأي في نسب المهدي، ويفترض أن الإسماعيلية تقبل انتقال الإمامة من أخ إلى أخيه ـ وهذه نقاط فيها نظر.

ولي رأي متواضع أذكره بحذر. وهو أن انفصال حمدان وأتباعه من الدعوة راجع إلى تباين في المبادئ. فالنوبختي يبيّن أن القرامطة ـ جماعة حمدان ـ كانوا من المباركية، ثم اختلفوا عنهم بأن قالوا أول الأمر بأن الإمام السابع هو محمد بن إسماعيل «وهو الإمام القائم المهدي وهو رسول»[١٣٩] وكوّنوا لهم طريقة خاصة بهم و«زعموا أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت وأنه في بلاد الروم وأنه القائم المهدي. ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة ويبشر بشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد[١٤٠]. وإذاً فالقرامطة كانوا ينتظرون عودة محمد بن إسماعيل ليبشّر بالشريعة الأخيرة، وبكلمة أخرى أنهم لا يرون في أعمال الدعوة إلا تمهيداً لرجوعه وإذاً فلا معنى للإمام المستور عندهم. ويؤيد هذا الرأي ما يقوله النويري عندما يذكر أن عبدان قال للقداحي إن الدعوة لمحمد بن إسماعيل وإن القداحي هو حجته فقط. وإذاً فهذا الاختلاف بين جماعة حمدان وغيرهم هو سبب انفصالهم.

---

(١٣٧) De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, pp. 66-68.

(١٣٨) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, pp. 59-60.

(١٣٩) النوبختي، **فرق الشيعة**، ص ٧٢.

(١٤٠) المصدر نفسه.

حصل انقسام في الحركة الإسماعيلية. هذا يرويه ابن رزام الطائي الكوفي، وأخو محسن (ت ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥م)[١٤١].

كان حمدان على صلة بالمركز، وفي سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩م، وبعد قليل من وصول سعيد بن الحسين إلى قيادة الدعوة، لاحظ حمدان تغيراً في تعابير اعتادها في الكتاب إليه من سلمية أثارت شكوكه، لعلها تتصل بالإمامة، فأرسل عبدان ليتحرى الوضع. وفي سلمية عرف عبدان أنّ سعيداً بن الحسين وصل الرئاسة وحين قابله دار حوار حول الحجّة والإمام، وبيّن عبدان أنّ الإمام هو محمد بن إسماعيل صاحب الوقت الذي كانت الدعوة باسمه، وأن والد سعيد كان الحجة فأنكر سعيد ذلك وقال إن والده كان الإمام وإنه خلفه. وعرف عبدان أنّ محمد بن إسماعيل «لا أصل له»، وإنما كان خديعة. عاد عبدان وأخبر حمدان بالوضع، وحسب أمر حمدان جمع عبدان الدعاة وأخبرهم بما عرف وأمرهم بإيقاف الدعوة في مناطقهم، وذهب حمدان إلى كلواذى حيث اختفى ولم يسمع منه. وبعدها قتل عبدان من قبل داع آخر (زكرويه) بناءً على تحريض قريب لعبيد الله يقيم في الطلقان. كل ذلك كان سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩م.

وعيّن زكرويه رئيساً للدعوة في العراق، ولكنه اضطر إلى الاختفاء لفترة بسبب تهديد أتباع عبدان وحمدان بالثأر، ولكن سرعان ما كشف عدم ولائه للقيادة المركزية[١٤٢].

إنّ التغيير الذي أدخله عبيد الله المهدي يتصل بالإمامة. فالأكثرية الساحقة للإسماعيلية الأوائل اعترفوا بسبعة أئمة آخرهم محمد بن إسماعيل، القائم المنتظر، والناطق السابع. وهذا تشهد به المصادر الإسماعيلية القليلة الباقية من الفترة قبل الفاطمية[١٤٣].

ومن ذلك كتاب **شجرة اليقين** المنسوب إلى الداعي عبدان[١٤٤] فهو يشير إلى النطقاء السبعة، وبعد أن يعدد ستة منهم، من آدم إلى محمد (ﷺ) ويبيّن ما خص به كل منهم، يقول: «وأما القائم ـ سلام الله عليه ـ فهو صاحب التأويل الذي يجمع به

---

(١٤١) انظر: النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج ٢٥، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٢؛ الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر**، ج ٦، ص ٦٥ ـ ٦٨؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج ١، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، و Ivanow, Ibid., pp. 47 sqq.

(١٤٢) انظر: Daftary, *The Ismailis: Their History and Doctrines,* p. 126, and Halm, *The Empire of the Mahdi: The Rise of the Fatimids*, p. 64.

(١٤٣) Daftary, Ibid., p. 126, and Madelung, «Karmati,» in: *Encyclopedia of Islam*, p. 660.

(١٤٤) القرمطي عبدان، **شجرة اليقين**، تحقيق عارف تامر (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢).

جميع شرائع النطقاء وأعمالهم، وهو صاحب الكشف والتأويل»[١٤٥].

ويتحدث عن أدوار النطقاء الستة من آدم إلى محمد (ﷺ) وإلى ظهور القائم عند انقضاء دور محمد (ﷺ)[١٤٦]. وهو يتطلع إلى قرب ظهور القائم «صاحب الزمان والعصور الذي خصنا الله بعهده وطاعته وجعلنا من تابعيه»، والسائرين على خطاه بمنّه وكرمه[١٤٧].

ويبيّن فرهاد دفتري «أنّ الاعتقاد الإسماعيلي بمهدوية محمد بن إسماعيل لا يدع مجالاً لأئمة آخرين، ويرى أنّ قادة الحركة الإسماعيلية تصرفوا على أنهم حجج الإمام الغائب (أو المختفي) محمد بن إسماعيل ودعوا الناس إلى طاعته. وبإصلاحه فإنّ عبيد الله رفع نفسه وأسلافه في الواقع علناً من حجج للقائم المنتظر إلى أئمة فعلاً، وهذا يعني نفي مهدوية محمد بن إسماعيل»[١٤٨].

وجانب آخر من التغيير الذي أدخله عبيد الله المهدي يتمثل في كتابه إلى إسماعيلية اليمن وفيه يدّعي عبيد الله الانتساب إلى عبد الله بن جعفر الصادق ويوضّح فيه اللبس فيما يخص مهدوية محمد بن إسماعيل، فحسب قوله إن الاسم محمد بن إسماعيل يشير إلى الأئمة الحقيقيين من ولد عبد الله الذي اتخذ اسم إسماعيل، بينما اتخذ ولده اسم محمد، وبالتالي فإنّ مهدوية محمد بن إسماعيل بدل أن تشير إلى حفيد معيّن للإمام الصادق اكتسبت الآن معنى جماعياً إذ تشير إلى كل إمام بعد عبد الله بن جعفر إلى مجيء المهدي صاحب الزمان[١٤٩].

وهذا يعني نفي مهدوية القائم (محمد بن إسماعيل بن جعفر) لأن كل الأئمة الشرعيين بعد عبد الله بن جعفر اتخذوا اسم محمد بن إسماعيل اسماً رمزياً، كما اتخذوا مرتبة (الحجة).

وتتطلب آراء عبيد الله عن المهدي إعادة النظر في مهمّة المهدي لتكون في الأساس الدفاع عن الشريعة بالسيف، بدل إلغاء الشرع، وإقامة حكم العدالة في العالم[١٥٠].

---

(١٤٥) المصدر نفسه، ص ١٢.

(١٤٦) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(١٤٧) المصدر نفسه، ص ٩.

(١٤٨) Daftary, Ibid., pp. 126-127.

(١٤٩) أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، **نسب الخلفاء الفاطميين** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٥٨)، ص ١٠، و Al-Hamdani, *On the Genealogy of Fatimid Caliphs*, p. 11.

(١٥٠) Daftary, Ibid., pp. 128-129.

٧ ـ وعلى إثر انفصال حمدان، خمدت فعاليات القرامطة في العراق ولكنهم أبدوا نشاطاً في الشام بزعامة زكرويه بن مهرويه الديداني. ويبيّن النويري أن زكرويه هو أحد دعاة عبدان (ويقول الطبري «أنه كان داعية قرمط»)[١٥١]. وكان زكرويه رجلاً قديراً له النفوذ الأعلى في منطقته بالسواد. بعد أن انفصل حمدان حاول أحد أبناء القداح إرجاعه وعبدان إلى الصواب فأخفق وعندئذ أسند رئاسة الدعوة إلى زكرويه ولكن زكرويه أوضح أن وجود عبدان ونفوذه على القرامطة يحول دون قيامه بالواجب، ولذلك اتفقا على الفتك به، فتم لهما ذلك. ولما اطلع أتباع عبدان على دخيلة الأمر اضطربوا وأخذوا يبحثون عن زكرويه لقتله فاختفى[١٥٢]. ثم يبيّن النويري أن زكرويه عندما أدرك أن عامة أهل السواد الذين هم خارج حدود منطقته كانوا على الضد منه، فكر في نشر دعوته بين القبائل في بادية الشام[١٥٣] ولكن الطبري[١٥٤] ينسب هذا الاتجاه إلى حزم المعتضد وتتابع جيوشه لسحق قرامطة العراق، مما سد المجال أمام زكرويه في السواد.

ويقول الطبري إن زكرويه أراد «استغواء من قرب من الكوفة من أعراب أسد وطي وتميم وغيرهم من قبائل الأعراب «فأرسل أولاده إليهم وادعوا أنهم من نسل محمد بن إسماعيل، وأنهم لاجئون إليهم خوفاً من السلطان. «ثم دبوا فيهم بالدعاء إلى رأي القرامطة فلم يقبل ذلك أحد منهم أعني من الكلبيين إلا الفخذ المعروفة ببني العليص بن ضمضم بن عدي بن جواب خاصة»[١٥٥].

أما كتاب **استتار الإمام** ـ وهو مؤلف إسماعيلي ـ فله رواية أخرى يفهم منها:

أ ـ أن أبا الحسين بن الأسود رئيس دعاة المهدي[١٥٦] هو الذي نشر الدعوة بين القبائل في بادية الشام.

ب ـ وأن عبدان ـ على ما يظهر ـ بقي على صلة بسلمية ولو أنه كان على خلاف معها[١٥٧]. ويظهر أن رئاسة الدعوة في السواد صارت لزكرويه بن مهرويه (أبي محمد

---

(١٥١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٣٧.

(١٥٢) يضع النويري ذلك سنة ١٨٦هـ.

(١٥٣) انظر: «Introduction,» in: Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem-biamr -Allah*, vol. 1, pp. 198-200, et Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, p. 76.

(١٥٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٧٨.

(١٥٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(١٥٦) كان مركزه في حماة على بعد عشرين ميلاً من سلمية. انظر: Ivanow, Ibid., p. 77.

(١٥٧) المصدر نفسه، ص ٥٩.

زكريا بن المهدي الكوفي) ولكنه توفي عاجلاً وخلّف ثلاثة أبناء: أبا القاسم وهو الأكبر، وأبا العباس الحسين، وأبا الفضل محمد وهو الأصغر. فحل يحيى محل والده. ولكن طموحه سرعان ما أدى به إلى الاصطدام بعبدان، فقتله بحجة عدم الولاء للإمام. فأدى ذلك إلى استياء جماعة عبدان وربما إلى انشقاق رئيسي بين قرامطة العراق. ولكي يسترضي الإمام المهدي جماعة عبدان عزل يحيى، وعندئذ شعر الأخوة بحيف، ففاوضوا المهدي لحل المشكلة ودامت المفاوضات حوالى سنة فلم تجدِ نفعاً. وعندئذٍ سار إلى سلمية للتفاهم مع المهدي فلم يجدوه هناك لأنه كان قد ذهب إلى الرملة بُعيد سنة ٢٨٦ هـ ـ ٨٨٩ م واختفى هناك. وكان سبب هربه إلى الرملة اكتشاف فعالياته من قبل العباسيين، وإرسال الخليفة قوة للقبض عليه، ولكنه أخبر على أجنحة الطيور بعزم الخليفة فهرب.

وربما كان لذهاب يحيى وأخوته إلى الشام غرض آخر، وهو التفاهم على خطة القيام ضد العباسيين.

وعلى كل فبعد مدة وجيزة ذهب يحيى إلى بني العليص الذين انضموا إلى الدعوة وتسموا بالفاطميين، واشتغل أخوه الحسين (صاحب الشامة) أداة وصل بينه وبين المهدي في مخبئه، بينما رجع الأصغر وهو محمد إلى الكوفة لينوب عنه في المركز[١٥٨].

ولكتاب **الاستتار** أهميته الخاصة، فهو مصدر إسماعيلي قديم ولعل صاحبه كان أعرف بخفايا الحركة من الطبري.

لبّى البدو يحيى بحماس وساروا على الفرات وهاجموا فرقة عباسية بقيادة سبك الديلمي مولى المعتضد (آخر سنة ٢٨٩ تشرين الأول/ أكتوبر ـ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠٢ م) غربي الفرات قرب الرقة فهزموها وقتلوا قائدها ثم هاجموا الرصافة وأحرقوا مسجدها[١٥٩].

ثم ساروا إلى الشام، فلما وصلت الأخبار إلى طغج (عامل هارون بن خمارويه على الشام ومؤسس الإمارة الأخشيدية فيما بعد) سار ضدهم بحملة تأديبية صغيرة، والظاهر أن معلوماته عنهم كانت غير جيدة فظنهم عصابة من البدو فهزموه هزيمة منكرة، وهرب إلى دمشق. فهاجم القرامطة دمشق وضيقوا عليها الحصار حتى اشترك العامة في الدفاع عن مدينتهم. وأخيراً جاءت النجدة من مصر، ودارت معركة حامية بين يحيى الشيخ وجيوش الطولونيين أمام دمشق في جمادى الآخر ٢٩٠ هـ أيار/ مايو

---

(١٥٨) انظر: المصدر نفسه، ص ٦٠ ـ ٨٠.

(١٥٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٧٨.

٩٠٣ وانتهت بهزيمة القرامطة وبمقتل يحيى الشيخ. وهكذا كان دور هذا الزعيم قصيراً[١٦٠].

وكان يحيى قد ادعى أنه من نسل محمد بن إسماعيل (أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل، أو على قول آخر محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل) وأن له آيات «وذكر أنه كان قد أشار بيده إلى ناحية من النواحي التي فيها محاربوه، انهزم أهل تلك الناحية فاستغوى بذلك الأعراب»[١٦١] وادعى «أن ناقته التي يركبها مأمورة وأنهم إذا اتبعوها في مسيرتها ظفروا»[١٦٢].

ثم خلفه أخوه الحسين المشهور بصاحب الشامة لوجود شامة في وجهه «ذكر أنها آيته»[١٦٣]، وادعى أنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل «ودعا إلى مثل ما دعا إليه أخوه». فأجابه أكثر أهل البراري وغيرهم من سائر الناس واشتدت شوكته[١٦٤].

وقد حفظ لنا الطبري رسالتين من رسائله يظهر منهما أنه ادعى الإمامة وانتحل لنفسه جميع امتيازات الإمام[١٦٥]. ويفهم من الطبري أن «تسمى المهدي»[١٦٦]، إلا أن الخطبة تليت في حمص سنة ٢٩٠ هـ، وهي تدل على أنه كان يعتبر نفسه ممثل المهدي وممهد الأمر له. فقد جاء فيها «اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت أمير المؤمنين. اللهم املأ الأرض به عدلاً وقسطاً ودمر أعداءه. اللهم دمر أعداءه»[١٦٧].

---

(١٦٠) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠.

(١٦١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٨٠.

(١٦٢) كان يحيى يقاتل على ناقة فسُمي بـ «صاحب الناقة». وكان كما يقول الطبري «يركب جملاً برحاله، ويلبس ثياباً واسعة ويعمم بعمة أعرابية ويتلثم». انظر: المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٨٠ و٣٧٨.

(١٦٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٧٨.

(١٦٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(١٦٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥، و De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, pp. 48-49.

(١٦٦) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ١٧٢، والطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٨١.

(١٦٧) نص الخطبة عن ثابت بن سنان، انظر: Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*, p. 109.

ويقول لويس إنها تليت باسم يحيى الشيخ ولعله استقى ذلك من ثابت. ولكن هذا غير صحيح لأن حمص فتحت على يد الحسين كما يذكر الطبري وابن الأثير. ويتبيّن لي أيضاً أن كلاً من هذين المؤرخين يقول بأن الحسين تسمى بالمهدي اعتماداً على هذه الخطبة. انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٨١؛ ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٧٢، و«مذكرات عن حركة المهدي الفاطمي: نصوص إسماعيلية،» **مجلة الآداب** (جامعة القاهرة)، مج ٤، ج ٢ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٦)، ص ٩١.

وأظهر الحسين نشاطاً كثيراً ومقدرة عظيمة. وكان المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ) قد أمر في رمضان ٢٩٠/ تموز/ يوليو ٩٣٠ بإعداد حملة ضد القرامطة وذلك بنتيجة تذمر الناس من فظائع القرامطة. وبلغ عدد أفرادها حوالى عشرة آلاف بقيادة أبي الأغر، ففاجأها القرامطة في وادي بطنان قرب حلب ومحوها[١٦٨].

ثم سار الحسن إلى دمشق ولكنه لم يدخلها لأن أهلها صالحوه «على خراج دفعوه» ثم تغلب على حمص وحماة ومعرة النعمان والنهب والقتل يصحبانه في كل مكان. ثم نكب سلمية (مقر القداحين حتى آنئذ) بصورة خاصة فذبح عامة السكان حتى صبيان الكتاتيب[١٦٩]، ويظهر أنه أراد قتل عبيد الله المهدي وكل من عرفه[١٧٠]. وضج أهل الشام من فظائعه واستنجدوا بالخليفة المكتفي، فجدّ هذا إلى مقاتلته، وأرسل الجيوش بقيادة قائد يقظ وهو محمد بن سليمان الكاتب. فسارت هذه القوة تجاه سلمية وقابلت القرامطة على بعد اثني عشر ميلاً من حماة. وقدم صاحب الشامة قواته وبقي وراءها مع خزائنه. وفي ٧ محرم ٢٩١ هـ/ ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ٩٠٣ هزم القرامطة في المعركة. ولما سمع صاحب الشامة هرب مع المدثر ابن عمه، والمطوق صاحبه، وغلام له إلى الصحراء وأخذ دليلاً وسار يريد الكوفة ولكن الجوع والتعب على ما يظهر أنهكاه. فقبض عليهم في دالية ابن طوق على الفرات وهم يحاولون الحصول على المؤونة وجيء بهم إلى بغداد مع الأسرى الآخرين، فقتلوا بعدما أذيقوا العذاب الأليم[١٧١].

ثم جمع ثالث الأخوة، قوة من القرامطة وقام ببعض الغارات في جنوبي الشام، فقاست منه طبرية خاصة الأمرين، ثم انسحب إلى الصحراء[١٧٢]. ويظهر أن المهدي ترك الرملة في طريقه إلى شمال أفريقيا بعد القبض على صاحب الشامة[١٧٣].

نستطيع أن نعزو إخفاق حركة أبناء زكرويه إلى عوامل متعددة منها أنها لم يكن لها الوقت الكافي للتنظيم؛ ولعل الحركة بدأت قبل اكتمالها[١٧٤] ثم إن أنصارها

---

(١٦٨) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, pp. 82-83.

(١٦٩) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٨١،؛ النيسابوري، **استتار الإمام**، و«مذكرات عن حركة المهدي الفاطمي: نصوص إسماعيلية،» ص ١٠٠.

(١٧٠) انظر: النيسابوري، المصدر نفسه، ص ١٠٠، و De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, p. 50.

(١٧١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٦ و٣٨٩.

(١٧٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٨٦.

(١٧٣) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, p. 87.

(١٧٤) النيسابوري، **استتار الإمام**، ص ١٩ وما بعدها.

كانوا من البدو بالدرجة الأولى ولم يكن هناك تعاون وثيق بين هؤلاء البدو وأهل القرى. ثم إن قيادتها لم تكن ذات كفاية ومقدرة ولم تكن لها خطط منظمة، حتى انحطت فعالياتها إلى غزوات نهب وسلب. كما إن توتر العلاقة بين المهدي وأبناء زكرويه[١٧٥] وسياسة المهدي السلبية كانت عاملاً في تضعضع الحركة. فالمهدي كان يتجنب الخطر من بُعد فهرب من سلمية حال تلبد الأفق بالغيوم. ويعتقد إيفانوف أن ابتعاده عن حركات أبناء زكرويه ناتج عن أنه لا يمكنه إظهار البدو السفاكين مبشرين بظهور المنقذ. ويرى أن قتل صاحب الشامة لأقارب المهدي في سلمية انتقام منه لأن آل زكرويه اعتقدوا بأنه خانهم. ولا ننسى أن البدو لم يكونوا جيشاً نظامياً، وقد تهدمت معنويتهم بعد الإخفاق الأول[١٧٦].

وعلى كل؛ فالمعلومات عن دور أبناء زكرويه قليلة ومرتبكة جداً. ومما زاد في ارتباكها طموح أبناء زكرويه وانتسابهم إلى محمد بن إسماعيل وتكدر علاقتهم مع المهدي.

وإن قبلنا نظرية لويس في الأصل القداحي لعبيد الله المهدي، أمكن القول بأن أبناء زكرويه حاولوا أخذ محله ونصبوا أنفسهم أئمة مستودعين للإمام الفاطمي، ووجدوا في المهدي خصماً لهم، فحاولوا القبض عليه ومحو أثره.

(٨) ولننظر إلى قصة الطبري والنويري عن سير القصة ومنها نفهم ما يأتي:

كان زكرويه يشرف على سير الحوادث من مخبئه، فخاف أن تحطم الهزائم معنوية أتباعه فكتب إليهم «واعلموا أن مما أوحي إليه أن المعروف بالشيخ وأخاه يقتلان، وأن إمامه الذي يوحي إليه يظهر بعدها ويظفر»[١٧٧]. كما إنه أرسل داعيته أبا غانم إلى بادية الشام سنة ٢٩٣ هـ فجمع حوله الأتباع وتمكن من نهب عدة مدن متطرفة (كبصرى واذرعات وطبرية وهيت). ودعا نفسه بالناصر فجهز الخليفة جيشاً لتأديبه. ولكن الانقسام بين أتباعه أودى بحياته إذ قتله أحد بني كلب متقرباً إلى الخليفة[١٧٨]. وعلى أثر هذه الحادثة دب الشقاق والتخاذل بين قرامطة الشام[١٧٩] فأرسل زكرويه داعية له «من أكرة أهل السواد» يدعي القاسم بن أحمد أخبرهم بغضب زكرويه «وأنهم قد ارتدوا عن الدين وأن وقت ظهورهم قد حضر وقد بايع له بالكوفة أربعون ألف رجل

---

(١٧٥) المصدر نفسه، ص ٩٧ ـ ١٠٠.

(١٧٦) Ivanow, Ibid., pp. 87-93.

(١٧٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٩٠.

(١٧٨) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(١٧٩) انظر: النيسابوري، **استتار الإمام**، ص ٩١.

وفي سوادها أربعمئة ألف رجل»[١٨٠]. وطلب إليهم أن يسيروا إلى الكوفة ليلحقوا بذكرويه فجاؤوا سنة ٢٩٣ هـ وعندئذ خرج زكرويه من مخبئه وجاء إليهم. فقال لهم القاسم: «هذا صاحبكم وسيدكم ووليكم الذي تنتظرونه»[١٨١]. ثم انقضى إلى زكرويه أتباعه في السواد وكانوا «من عربي ومولى وبنطي»[١٨٢] وكان القرامطة يجلّون زكرويه ويسمونه «ولي الله»[١٨٣] وهو من جهته لم يسمح إلا للقلائل برؤيته[١٨٤].

وبعد أن نظم زكرويه قواته هاجم فرقة عباسية قرب الكوفة سنة ٢٩٣ هـ وفي سنة ٢٩٤ هـ هاجم قوافل الحجاج ونهبها وقتل الكثيرين من أهلها[١٨٥]. فأرسل المكتفي قائده وصيفاً بن صوارتكين فانتصر على القرامطة في معركة حاسمة وأسر زكرويه وهو جريح، فتوفي في الطريق إلى بغداد من جراحه سنة ٢٩٤ هـ وحمل رأسه إليها[١٨٦].

ولكن كتاب **استتار الإمام** يبيّن أن زكرويه قتل قبل الهجوم على سوريا[١٨٧] ويرى إيفانوف أن مؤرخي السُنّة نسبوا هذه الحركة إلى زكرويه ليزيدوا من مجد النصر، ويرى أن هذا القائد الأخير هو قرمطي آخر[١٨٨].

وكان انتصار صوارتكين ضربة حاسمة لهذا الفرع من القرامطة ولكنها لم تستأصلهم بل بقيت منهم شراذم متفرقة[١٨٩] متكتمة في بعض الجهات حتى سنة ٣١٦ هـ حينما عاث قرامطة البحرين بسواد الكوفة فتشجعوا وأعلنوا الثورة. فاجتمع منهم «بسواد واسط أكثر من عشرة آلاف رجل وكان رئيسهم حريث بن مسعود». وتجمعت طائفة أخرى في عين التمر ونواحيها «في جميع كثير» بقيادة عيسى بن موسى «وكانوا يدعون إلى المهدي». ووفق عيسى إلى احتلال قسم من سواد الكوفة، بينما بنى حريث في الموفقية داراً «سماها دار الهجرة». ثم عاثوا في جنوبي العراق وعند

---

(١٨٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٩٥. ولعل هذه المبالغات من القاسم كانت وسيلة لتقوية معنويتهم. ونلاحظ هنا أن الطبري يعترف صراحة بأن آل زكرويه كانوا يدعون للمهدي المنتظر.

(١٨١) نقلاً عن: النويري، انظر: Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem -biamr -Allah*, p. 20.

(١٨٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٩٧.

(١٨٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٩٧.

(١٨٤) De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, p. 57.

(١٨٥) يقال إنه قتل عشرين ألفاً.

(١٨٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٩٨.

(١٨٧) النيسابوري، **استتار الإمام**، ص ٩٦.

(١٨٨) Ivanow, *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, p. 97.

(١٨٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٩٨؛ De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, pp. 56-57, et Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem -biamr -Allah*, pp. 209-210.

ذاك سيّر المقتدر بعض فرق الجيش للقضاء عليهم وكان لها الفوز المبين عليهم، «وأخذت أعلامهم بيضاء مكتوباً عليها: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين»، فكانت هذه الضربة الأخيرة لقرامطة العراق «واضمحل أمر من بالسواد منهم»[١٩٠].

وختاماً نقول: إن حركة قرامطة العراق والشام باءت بالإخفاق للخلاف بين زعمائها القداحين، وللتنازع بين الشيوخ الثائرين، وللمقاومة العنيفة التي لاقوها من الخلفاء العباسيين وخاصة الخليفة العظيم المعتضد.

المعنى الاجتماعي الاقتصادي لحركة القرامطة

تأثرت الحركة القرمطية في العراق بظروف بيئتها الاجتماعية الاقتصادية. فقد كان منظمها الأكبر حمدان قرمط قروياً، عارفاً بالمساوئ التي كان يشكو منها أهل السواد. ولفهم روح الحركة يجب ملاحظة أمرين:

(١) الجماعات التي انضمت إليها.

(٢) المبادئ التي بشّرت بها.

انتشرت الدعوة القرمطية بين الفلاحين الذين كانوا يئنّون من ضغط الجباة، وجشع الملاكين، ومما زاد وضعهم سوءاً ثورة الزنج التي نشرت الدمار في سواد البصرة. يؤيد هذا ما يرويه الطبري من أن الطائي الذي أخمد ثورة سنة ٢٨٩ هـ توقف عن التنكيل بالقرامطة «خوفاً على السواد أن يخرب إذ كانوا فلاحيه وعماله»[١٩١]. وكذلك انتشرت بين أهل الحِرف وعوام المدن الذين كان مستوى معيشتهم واطئاً، وكانوا جهلة لا يفهمون الشريعة، ويرون أن أوامرها أشياء يمكن تركها متى تطلبت المصلحة ذلك. وهذا الجهل جعلهم طعمة سهلة للدعوة القرمطية الماهرة[١٩٢]. ونجحت الدعوة القرمطية كذلك مع قبائل العراق الجنوبي وبادية الشام الذين كان فقرهم مضرب المثل[١٩٣].

---

(١٩٠) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٨، ص ٥٨.

(١٩١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٧٠.

(١٩٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **فضائح الباطنية**، [تحرير اغناس غولدتسهير] (ليدن: مطبعة بريل، ١٩١٦)، ص ٥٣؛ ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٧، والبغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ١٤١.

(١٩٣) البغدادي، المصدر نفسه، ص ١٤٢، و «Introduction,» in: Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem -biamr -Allah*, p. 170.

هذه هي أهم الجماعات التي انتشرت بينها الدعوة مع أنها كانت عامة. ولا يمكن القول بأنها كانت لإرجاع مملكة الفرس[194] لأنها ضمت إلى صفوفها الفقراء العرب والنبط بينما وقفت الأرستقراطية الفارسية على الضد منها[195].

أما من حيث المبادئ، فقد هاجم القرامطة الأمراء والعلماء وقالوا إن ساعة الخلاص من استعبادهم قريبة[196]. وظهروا للناس أبطالاً للسلم والرفاه اللذين وعد بهما العباسيون من قبل ولم يحققوهما[197]. وأكدوا أهمية الناحية المادية. يقول الديلمي: «ومنهم (القرامطة) رجل أصابه فقر ومسكنه فيطمعونه في سد الخلة وجبر الفاقة»[198]. ويفهم من النويري أن الحسين الأهوازي قال لحمدان قرمط عندما سأله هذا عن مهمته ما معناه «أمرت أن أروي هذه القرية وأغني أهلها، وأن أنقذهم، وأضع بيدهم ثروة أسيادهم»[199].

وقد ذهب القرامطة إلى أن الدين سبب استعباد الجماهير وأن نبي المسلمين «حرم عليهم الطيبات» وخوّفهم بأشياء لا تعقل مثل «البعث من القبور، والحساب والجنة والنار»، وكانت نتيجة ذلك «أن استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولاً واستباح بذلك أموالهم بقوله: **﴿لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾**[200]. فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة». قالوا «وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد..»[201]. ولم تقتصر نظرتهم هذه على الدين الإسلامي بل شملت بقية الأديان. فقالوا «إن المسمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم

---

(194) البغدادي، المصدر نفسه، ص ١٤١ ـ ١٤٣.

(195) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٣٩٧؛ W. Barthold, *Mussulman Culture*, translated from the Russian by Shahid Suhrawardy; with a foreword by Hassan Suhrawardy ([Calcutta]: University of Calcutta, 1934), pp. 72-77, and Bernard Lewis, «The Islamic Guilds,» *English Historical Review* [EHR], vol. 8, no. 1 (1937), pp. 22 and 100-102.

(196) الغزالي، **فضائح الباطنية**، ص ١٠.

(197) De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*, p. 24.

(198) الديلمي، **بيان مذهب الباطنية وبطلانه ـ منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**، ص ٢٠.

(199) «Introduction,» in: Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem -biamr -Allah*, p. 168.

ويروي ابن الجوزي الجواب كما يلي: «أمرت أن أدعو أهلها (القرية) من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة واستنقذهم من ورطات الذل والفقر وأملكهم مالاً يستغنون به من التعب والكد». انظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٣.

(200) **القرآن الكريم**، «سورة الشورى،» الآية ٢٣.

(201) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم»[٢٠٢].

والخلاصة أن القرامطة قالوا بأن الأنبياء والحكام كانوا سبب استعباد الجماهير وشقائهم مادياً، وأنهم يريدون إرجاع المساواة الاجتماعية وإنشاء الرفاه المادي. وقد حاول حمدان تطبيق ذلك بإنشاء مجتمع اشتراكي لأتباعه في السواد. ففي سنة ٢٧٦ هـ فرض على أتباعه نظام «الألفة» وبموجبه تجمع أموال القرية في محل واحد ليشترك الجميع في التمتع بها ويختار الداعي من أهل القرية رجلاً ثقة ليتسلم كل ما يملكه أهل القرية من مال ومتاع وحُليّ ودواب. وهو من ناحيته يكسو العريان، ويسد حاجات الناس الأخرى حتى لا يبقى فقير بينهم. وكان كل فرد يشتغل بجد وإخلاص ليحتل المركز الذي يليق بخدماته لخير المجموع فالنساء يأتين بما يحصلن عليه من الغزل، وحتى الأطفال يسلمون الجعل الذي يحصلون عليه من نظارة الحقول، وليس للشخص أي ملك عدا سيفه وسلاحه. وقد قال حمدان لأتباعه إنهم في غنى عن المال لأن الأرض لهم[٢٠٣].

ومن هذا يتبيّن أن حمدان اعتقد أنه لا يستطيع إزالة التذمر الاجتماعي الاقتصادي إلا بإنشاء المساواة المالية. ولذا كان من الضروري قطع دابر الفقر. وخير وسيلة لذلك هي اشتراكية المال. وقد قوبلت تدابيره بكل حماس ولا سيما أنه جعل ما يعطاه للفرد يتناسب وحاجاته، بينما جعل مركزه الاجتماعي يتناسب وقابلياته لخدمة المجموع. ولهذا فلا نعجب إذا علمنا أن نظام الملك اعتبر الحركة القرمطية استمراراً لحركة مزدك الاشتراكية في العصر الساساني، تلك الحركة التي كان أساسها «توزيع المال حسب الحاجة»[٢٠٤].

ولكننا لا ندري كم استمر نظام حمدان. ولعله انحل بانفصاله عن الدعوة الإسماعيلية. إلا أن آراءه الاشتراكية استمرت في البحرين حين أنشأ الحسن الجَنَّابي (أحد دعاته كما يظهر) دولة شبه اشتراكية[٢٠٥]. كما إن روح تعاليم حمدان لم تختف

---

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٨.

(٢٠٣) «Introduction,» in: Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem -biamr -Allah*, p. 189, et Lewis, *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*, pp. 97-98.

(٢٠٤) محمد عبد الله عنان، **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية** (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧)، ص ١٩٠ ـ ١٩١، و Lewis, Ibid., pp. 96-100.

(٢٠٥) لقد تعرضت لذلك في المقدمة ولا أرى ضرورة للبحث عن قرامطة البحرين، فقد عالج ذلك دوغويه (De Goeje) في كتابه. انظر: De Goeje, *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*.

باختفائه. فعندما ثار القرامطة سنة ٣١٦ هـ كانت لهم أعلام بيض مكتوب عليها **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**(٢٠٦). وهكذا كانوا دائماً يحلمون بقلب النظام الاجتماعي وبانتقال الثورة إليهم يوم الفوز المبين.

ونقول إن نزعة القرامطة المادية ورغبتهم في قلب النظام الاجتماعي كانت واضحة عند إخوان الصفا الذين حاولوا قلب المجتمع وإنشاء العدل الاجتماعي عن طريق نشر المعارف بين الجماهير والتأكيد على شرف العمل وأصحاب الحرف(٢٠٧).

٢ ـ ويرى ماسنيون أن الحركة القرمطية (أو الإسماعيلية) هي التي أوجدت النقابات الإسلامية وأعطتها ميزاتها الخاصة التي حافظت عليها إلى الآن. إذ يقول إن النقابات الإسلامية كانت قبل كل شيء سلاحاً شهره الدعاة القرامطة في كفاحهم لجمع طبقة العمال في العالم الإسلامي ولتكوين قوة منهم تستطيع قلب نظام الخلافة وكل ما تمثل. وللتوصل إلى استغلال أصحاب الحرف أوجدوا النقابات وسيطروا عليها، وهكذا أصبح لها خاصتان: **أولاً**: كونها نقابات للحرف، **وثانياً**: كونها مؤسسات قرمطية(٢٠٨).

وقد فحص لويس الدلائل المؤيدة لهذه النظرية فلاحظ عدة: منها اهتمام الإسماعيلية العظيم بأصحاب الحرف وبالأصناف، وأن إخوان الصفا خصصوا رسالة في موسوعتهم للعمل وأهله ولنبله الذاتي. ثم إن النقابات كانت مضطهدة في ظل الحكم السُنّي ومقيدة بقيود كثيرة (كما يعتقد) وخاضعة لمراقبة دقيقة ـ في حين أنها كانت مرفهة عند الفاطميين وتتمتع بامتيازات كثيرة. وهناك أثر الإسماعيلية، حتى بعد اختفاء دعوتها، في تطور النقابات، ويستشهد لويس برأي كوبريلي بأن الأصناف في الأناضول كانت تحتفظ بنظام متدرج في التنشئة يشبه بدقة النظام الإسماعيلي، كما إن دراسة أصناف مختلفة في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي أظهرت آثاراً مماثلة. وأخيراً لاحظ وجود أفراد من مذاهب وأديان مختلفة بين أعضاء النقابات، إذ يقبل اليهودي والمسيحي والمسلم بالشروط نفسها حتى أن بعضها يغلب فيها غير المسلمين كنقابات الأطباء والصاغة.

---

(٢٠٦) **القرآن الكريم**، «سورة القصص،» الآية ٥.

(٢٠٧) A. Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century,» (Ph. D. Thesis, University of London, School of Oriental and African Studies, [n. d.]), pp. 81 and 88-91.

(٢٠٨) انظر: Louis Massignon, *La Passion d'Al -Hosayn -Ibn -Mansour, Al-Halladj, martyr mystique de l'islam, execute à Baghdad, le 26 mars 1922, étude d'histoire religieuse*, 2 vols. (Paris: P. Geuthner, 1922), vol. 1, pp. 339 and 410.

ثم استنتج لويس أن الحركة القرمطية قامت بدور هام في تطور النقابات الإسلامية وتركت أثراً عميقاً خالداً في حياتها الداخلية، ثم اعترف بعدم وجود برهان واضح يبيّن أن الحركة القرمطية أوجدت النقابات ولكنه يرجح أن الحركة القرمطية بعثت روحاً جديدة وتشكيلات جديدة في حركة موجودة من قبل (يقصد حركة النقابات)(٢٠٩).

وليس هذا محل تفصيل نشأة النقابات الإسلامية ولكني أبيّن أن الذين بحثوا في الموضوع(٢١٠) لم يستطيعوا معرفة أصول النقابات، بل عرفوا تلك المؤسسات بعد ظهور فعالياتها على مسرح التأريخ بعد القرن الخامس الهجري بصورة خاصة. وقد أدى بي بحثي الخاص(٢١١) إلى نتائج أذكر بعضها بإيجاز:

تكوّن التكتل بين أهل الحرف نتيجة لسوء وضعهم الاقتصادي وانحطاط منزلتهم الاجتماعية منذ القرن الثاني للهجرة. وظهرت بوادره في حركات العيارين والشطار الذين تسللت منهم حركة الفتوة المشهورة(٢١٢). ثم إن انتقال المجتمع العباسي من طور زراعي إلى طور تجاري بالإضافة إلى وضع أهل الحرف في أحياء منفصلة خاصة بهم كما في بغداد وسامراء ساعد على زيادة التكتل وعلى تعقيد التنظيم الداخلي عندهم. ولدينا دلائل قاطعة على تكوّن النقابات قبل ظهور الحركة الإسماعيلية(٢١٣).

وإذن فقد ظهرت النقابات الإسلامية نتيجة للوضع الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع الإسلامي، ولم تكن موروثة من العالم اليوناني الروماني كما يظن لويس(٢١٤)، وكانت تلك الأوضاع نفسها مسؤولة إلى حد كبير عن ظهور الحركة الإسماعيلية فيما

---

(٢٠٩) برنارد لويس، «النقابات الإسلامية،» **مجلة الرسالة المصرية**، الأعداد ٣٥٥ ـ ٣٦٢ (١٩٤٠).

(٢١٠) خاصة ماسنيون ولويس و Taeschner.

(٢١١) Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century,» pp. 81-91.

(٢١٢) ولا بد لي أن أبيّن أن عدم فهم المؤرخين لنبل مبادئ العيارين من الشطار ولتنظيماتهم الداخلية، وملاحظتهم مظاهر أعمالهم فقط، جعلتهم يقسون في الحكم عليهم.

(٢١٣) انظر: أبو علي المحسن بن علي التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ٢ ج (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٨)، ج ١، ص ١١٢ ـ ١١٤. وعن العيارين والشطار ودورهم في النزاع بين الأمين والمأمون، انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**؛ عبد الكريم بن هوازن القشيري، **الرسالة القشيرية في علم التصوف وعليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري** (القاهرة: البابي، ١٩٤٠)، ص ١٢١ ـ ١٢٤، وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **تلبيس ابليس**، عني بنشره للمرة الثانية محمد منير الدمشقي (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٢٨)، ص ٣٩٤.

(٢١٤) لويس، «النقابات الإسلامية».

بعد. وكان من الطبيعي أن يسعى دعاة الإسماعيلية والقرامطة إلى استغلال أهل الحرف وعوام المدن للاستعانة بهم في الكفاح ضد العباسيين، فنظموا ذلك التذمر منهم وقاموا بدور مهم في تنظيمات أصحاب الحرف وفي أسسها النظرية. ولا بد من بيان أن أصحاب الحرف لم يكونوا دائماً مضطهدين في الدول السُنيّة، وأن الرقابة على الصناعات حتى القرن الخامس الهجري لم تكن إلا فنية هدفها منع الغش في المنتوج والمعاملات(٢١٥). وإن حصل اضطهاد فيما بعد فإن ذلك كله كان بعد تأثر أصناف الحرف بالحركة الإسماعيلية(٢١٦).

والخلاصة أن النقابات ظهرت قبل الحركة الإسماعيلية. ولما ظهرت هذه حاولت ضم تلك إلى صفوفها وأثّرت فيها بدعايتها وقامت بدور عظيم في تطور مبادئها وتنظيماتها.

(٢١٥) الماوردي (٤٥٠ هـ) عن الحسبة، انظر: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **الأحكام السلطانية** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٠٩)، والحسين هلال بن المحسن أبو الصابئ، **رسائل الصابي**، [اعتنى برسائل الجزء الأول شكيب أرسلان] (بعبدا، لبنان: [د. ن.]، ١٨٩٨).

(٢١٦) عن النقابات والأصناف، انظر: «Sinf,» and «Shadd Karmatians,» in: *Encyclopedia of Islam*, and «Guilds (Muslim),» in: *Encyclopedia of Social Sciences*.

الفصل السابع

عصـــر المقتـــدر



تمهيد

كان الخليفة المعتمد رجلاً ضعيفاً كثير الانغماس في الترف واللهو، وكان الموفق أخوه الذي أشركه في الحكم معه ـ قائداً قديراً وسياسياً محنكاً استطاع أن يقبض على زمام الأمور وأن يجعل أخاه ظلاً له، أما موسى بن بُغا سيد الحرس فلم يعترض على تسلط الموفق بل قام بخدمته بولاء وإخلاص.

نجح الموفق في القضاء على حركة الزنج الخطرة، وأنقذ الخلافة من خطر الصفّارين حين حال دون تقدم يعقوب عند دير العاقول، وأظهر حزماً وبراعة في الإدارة. ولكنه أخفق مع ابن طولون الذي ولي مصر بالنيابة سنة ٢٥٢ هـ والذي سرعان ما نجح في تقوية مركزه حتى صار يخشى انفصاله، فحاول الموفق إخضاعه عسكرياً فخاب. وفي سنة ٢٦٤ هـ ضم ابن طولون سوريا إلى مصر، ولما شعر هذا بتذمر المعتمد من هيمنة أخيه دعاه إليه إلى دمشق، فأدى ذلك إلى التصادم النهائي بينه وبين الموفق وانسلخت سوريا ومصر نهائياً عن جسم الخلافة حتى سنة ٢٧٩ هـ، حين قدم خمارويه بن أحمد ولاءه للمعتضد.

وفي سنة ٢٧٨/ ٨٩٢ م توفي الموفق، فانتقل المعتمد إلى بغداد، كما انتقل السلطان الفعلي إلى أبي العباس أحمد المعتضد بن الموفق الذي نجح في تنحية ابن عمه عن العهد ثم بويع بالخلافة عند وفاة عمه.

يوصف المعتضد بالشجاعة، ومع أنه لم يكن موفقاً دائماً في حروبه، إلا أنه ورث قوة والده واشتهر بالنشاط والسرعة في أعماله مع أنه كان سريع الغضب إلا أنه كان شديد العدالة. وكان رقيق العاطفة، إلا أنه كان قاسياً في الحق. هذا إلى أنه كان دقيقاً في محاسبة عماله وذلك شيء يحمد عليه في تلك الظروف المضطربة، فقد بدأ حكمه وبيت المال خاو، ومات وفي بيت المال الخاص عشرة ملايين دينار. ويقول المسعودي إنه كان مولعاً بالنساء مغرماً بالبناء.

وقد أتم المعتضد ما بدأ به والده في تقوية كيان الدولة العباسية، فقضى على الثورات الداخلية، بأن ضرب الأعراب والأكراد الذين كانوا يعيشون في شمال

العراق ووسطه، وقضى على ثورة الخوارج في الجزيرة، وأنزل بقرامطة العراق ضربات قوية حتى أخمدت حركتهم. واتبع مع الأمراء المنفصلين سياسة اللين والمساومة ولم يغفل عن الفرص السانحة لإخضاعهم. فاستغل الخصومة القائمة بين آل أبي دلف الذين كانوا أشباه مستقلين في منطقة الجبال، فضم تلك المنطقة ثانية إلى الخلافة وشجع الخصومة بين الصفّارين والسامانيين، وبذلك تخلص من الصفّارين، وجعل علاقته بالسامانيين ودية. ونجح في تحسين صلاته بالطولونيين، حتى استطاع في سنة ٢٨٥ هـ أن يضم إلى جسم الخلافة غربي الجزيرة الذي كان تابعاً لسوريا، كما خضع له خمارويه نفسه وأخذ يدفع له جزية سنوية.

واهتم المعتضد بإصلاح الوضع المالي في العراق، فاعتنى بتحسين نظام الري وبحفر القنوات، وساعد الزراع بتقديم البذور والمعونة إليهم، وحاول تحسين طرق الجباية وقام بإصلاح مهم وهو تأخير موعد الجباية من نيسان/ أبريل إلى حزيران/ يونيو ليتفق ذلك وموعد نضج الزرع واهتم بحماية الزراع من عبث الموظفين والجباة.

وبذل جهداً كبيراً لوضع الخزينة على أساس رصين، بأن ضمن السواد للطائي مقابل كمية من المال تكفي نفقاته اليومية واهتم بتنظيم الضرائب حتى بلغ وارده حداً لم يصل إليه من قبل أحد. ونظم الضرائب في المناطق التي أخضعها حديثاً ولا سيما في الجبال والجزيرة. وفي عهده أنشئ ديوان الدار ليشرف على الدواوين المختلفة التي تنظر في الأمور المالية وتنظيم أعمالها.

وكان للوئام بين القوة الإدارية والجيش أثر يذكر في استرجاع الخلافة عزّها فكان بدر قائد المعتضد يخلص لسيده ولا يتدخل في السياسة.

جاء المكتفي سنة ٢٨٩ هـ إلا أنه لم يكن قاسياً قسوة والده فاجتذب قلوب الناس بهدم السجون التي أنشأها المعتضد، ولكنه من الناحية الأخرى لم يكن له حزم والده. فوقع تحت تأثير وزرائه والمقربين إليه خاصة مولاه فاتك، وورث عن والده حبه للبناء؛ فقد بنى المعتضد قصر الثريا والفردوس ووضع أسس قصر التاج فأكمله المكتفي وبنى مسجداً في ساحة البلاد، كما إنه ورث عن والده حبه لجمع المال، فأضاف إلى خزينة الدولة في خلافته القصيرة ما يزيد على أربعة ملايين دينار إلى ما جمعه أبوه.

وتراءى للناس أن الخلافة استعادت مجدها واسترجعت عزّها، فقد قضى المكتفي على ثورات القرامطة في بادية الشام وسوريا وأخضع سوريا للخلافة، كما إنه استغل الفوضى في مصر، وتذمر الجيش هناك فنجح في القضاء على الطولونيين واسترجاع مصر سنة ٢٩٤ هـ، ولكن صحة المكتفي لم تكن حسنة منذ طفولته فتوفي سنة ٢٩٥ هـ ولاحت سحابة سوداء في سماء الخلافة.

ومن المفيد إلقاء نظر على الإدارة العامة لنفهم التطورات التي حصلت في عصر المقتدر. وكان الحكم في العصر العباسي أوتوقراطياً والخليفة مصدر السلطات إلا أنه كان (نظرياً على الأقل) مقيداً بالشرع. والشريعة تسيّر كل فعالية دينية أو دنيوية مستقية أصولها من القرآن والسُنّة والإجماع ويفسرها الفقهاء والقضاة ولهم أن يسترشدوا بالسوابق أو يقيسوا عليها القياس. ولكن استقلالهم كان مقيداً بكونهم موظفين أحياناً.

وكان الخليفة يمارس سلطته بواسطة الوزير، وتختلف سلطة الوزير حسب قوة الخليفة وضعفه وحسب موقف الحرس التركي منه. وعلى كل، فسلطة الوزير مفوضة إليه من الخليفة وإذا ما استبد فالعاقبة وخيمة. ويساعد الوزير في الإدارة العامة عدد من الدواوين يرأس الواحد منها كاتب يعاونه في ذلك عدد من الكتّاب الأصاغر. والوزير نفسه عادةً من الكتّاب كما إن الكتّاب يرتقون إلى مناصبهم من مناصب الكتّاب الأصاغر.

ومن الدواوين المهمة في هذا العصر ديوان الخراج (للواردات) وديوان النفقات (الخرج) يشرف على كل منهما زمام، وديوان الرسائل، وديوان التوقيع، وديوان الجند، وديوان النظر في المظالم، وديوان البريد، وقد توسع ديوان الخراج حتى صرنا نسمع بعدة دواوين في بغداد تقوم بأعماله، وهي ديوان السواد، وديوان المشرق وديوان المغرب في عصر المقتدر.

وكانت التعيينات للولايات من صلاحية الوزير. ولكل ولاية أمير، وعامل (على الخراج) وقاض وقائد وصاحب شرطة وصاحب بريد. وقد تكون تلك الوظائف بيد شخص واحد وأحياناً بيد أشخاص متعددين. وكان الوزير يهتم بالدرجة الأولى بالمالية، ويعنى قبل كل شيء بقضية جباية الضرائب وإنفاقها. وكانت الضرائب تجبى أول الأمر من قبل موظفين خاصين، ثم تلاشت هذه الطريقة بالتدريج وخلفتها طريقة الضمان وبموجبها يتعهد شخص ما بدفع مبلغ معيّن للخزينة سنوياً مقابل السماح له بجباية ما يستطيع من أهل ولايته. وإذا لم تكن الولاية مهمة بحيث يعيّن لها أمير فالضامن أهم موظفيها وبذلك يتسنى له جميع كميات كبيرة من الهدايا والمرافق.

في هذا الدور نقصت الموارد بتأثير الحروب والفتن، وانفصال بعض الولايات وازدياد الترف والنفقات، وقلة الأمانة والتدقيق والمحاسبة، وفساد نظام الري. ومن ثم فلا غرابة أن أحدثت ضرائب جديدة غير شرعية بالإضافة إلى الزيادة والفساد في الضرائب القديمة.

ولا بد من أن نبيّن أن العادة في هذا الوقت كانت بأن يختار الوزير للوظائف أصدقاءه ومقربيه، ولذا فكل طامح إلى الوزارة وكل وزير كانت تحيط به عصبة من المؤيدين له تأمل أن تتسلم الوظائف عند استيزاره وتحاول قدر الإمكان أن تخلّص نفسها من الاضطهاد والمصادرة اللذين كانا يصيبان الوزير المعزول وعصبته. وفي العادة أن يصادر كل موظف معزول يقبض عليه، على مقدار من المال إذ يؤخذ خطة بذلك ويودع في السجن حتى يدفع قسماً من ذلك المال على الأقل. وكان كل طامح إلى الوزارة يتعهد للخليفة بأنه سيحاول استحصال مقدار من المال من العصبة المنبوذة. وكان ذلك مورداً يحسب له حسابه في أوقات الأزمات.

وأخيراً نقول إن المنافسة بين الكتّاب في هذا الدور وظهور كتّاب عباقرة بين آل الفرات وآل الجراح أديا إلى تكوين حزبين متنافسين من الكتّاب وهما آل الفرات وآل الجراح. وفي وسط هذا التنافس توفي المكتفي. وافتتح عصر المقتدر الذي كان حاسماً لا لأهمية الخليفة بل لضعفه وللظروف المحيطة بالخلافة وللنتائج التي ترتبت عليها[1].

١ ـ جاء المقتدر ليحكم مملكة عادت إليها هيبة الخلافة، واسترجعت فيها البيروقراطية الإدارية أهميتها وفعالياتها، وتوقف الجيش عن التلاعب بسياستها العامة، وحصل نوع من الوئام والتوازن بين مختلف العناصر. إلا أن حكمه شهد رجوع الانقسام والتصادم بين العناصر المتنفذة، وتضعضع سلطان الخلافة حتى انتهى بخضوعها لحكم أجنبي.

وهناك ظروف متعددة قامت بدورها في تصديع كيان العباسيين. منها ضعف المقتدر نفسه ووقوعه تحت تأثير الحرم، وانقسام البيروقراطية على نفسها، وعودة الجيش إلى التدخل في السياسة، وفعاليات القرامطة.

---

(١) انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧ م)؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ/ [١٩٣٨ ـ ١٩٣٩])؛ إبراهيم بن هلال الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: ويليه الجزء الثامن من كتاب **التاريخ** له، [حرره مع ملاحظات ومفردات هـ. ف. آمدروز] (بيروت: مطبعة الأدباء الكاثوليكيين، ١٩٠٤)؛ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، تحقيق إدوارد ساخو (ليبزج: [د. ن.، ١٨٧٨])؛ أبو علي المحسن بن علي التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ٢ ج (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٨)، و Harold Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»* (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1928).

ولذا كان عصر المقتدر جديراً بالبحث بدقة وتفصيل لأنه المرحلة الأخيرة في انهيار أسس الخلافة[٢].

ولئلا يجد القارئ صعوبة في تتبع البحث قدمنا قائمة بأسماء وزراء المقتدر وفترات حكمهم.

ابن الفرات (وزارته الأولى)	ربيع الأول ٢٩٦ ـ ٤ من ذي الحجة ٢٩٩
الخاقاني (أبو علي محمد بن عبد الله)	١٠ محرم ٢٠١
علي بن عيسى (وزارته الأولى)	٨ من ذي الحجة ٣٠٤
ابن الفرات (وزارته الثانية)	٢٥ جُمادى الأولى ٣٠٦
حامد بن العباس (مع علي بن عيسى)	٢ جُمادى الآخرة ٣٠٦ ـ ٢٠ ربيع الآخر ٣١١
ابن الفرات (وزارته الثالثة)	ربيع الأول ٣١٢
أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبيد الله الخاقاني	رمضان ٣١٣
الخصيبي	١١ من ذي القعدة ٣١٤
علي بن عيسى (وزارته الثانية)	٥ صفر ٣١٥ ـ ١٥ ربيع الأول ٣١٦
ابن مُقلَة	١٥ جُمادى الأولى ٣١٨
سليمان بن الحسن بن مخلد	٢٤ رجب ٣١٩
الكلوذاني	٣٠ رمضان ٣١٩
الحسين بن القاسم	ربيع الآخر ٢٢٠
الفضل بن جعفر	٢٦ شوال ٣٣٠

٢ ـ رجعت الوزارة إلى أهميتها في تسيير سياسة الدولة. وصار للكتّاب أثر هام في الإدارة. وأشهر الكتّاب في أواخر أيام المكتفي علي بن عيسى بن داود بن الجراح وعمه محمد بن الجراح، وابن عبدون، وعلي بن الفرات.

وكان الكتّاب منقسمين (لأسباب شخصية ولاختلاف في الآراء السياسية) إلى كتلتين: جماعة آل الفرات وعلى رأسها علي بن الفرات، وجماعة آل الجراح وعلى رأسها محمد بن داود. أما وزير المكتفي العباس بن الحسن فكان متردداً أول الأمر.

(٢) بحث بوين (Bowen) هذا الموضوع في كتابه معتمداً على المخطوطات والمطبوعات التي يتيسر الحصول على قسم كبير منها ولذا استفدنا منه في هذا الفصل، مع الرجوع إلى المصادر الموجودة لدينا وقد خرجنا على الطريقة المألوفة في سرد الحوادث حسب تسلسلها التاريخي وفضلنا أن نأخذ القوى والتيارات المختلفة ونراعي أثر كل منها من حيث هي وحدة خلال هذا العصر ليتسنى فهم روحه. انظر: Bowen, Ibid.

وظهر التضارب جلياً بين الكتلتين بسبب مشكلة العهد. فقد كان المكتفي يحب حفظ الخلافة في أبناء أبيه وأكبرهم المقتدر إلا أن الوزير لم يكن يستحسن تولية المقتدر لصغر سنه. فحاول مرتين قبيل وفاة المكتفي أن يرشح للخلافة شخصاً من غير أبناء المعتضد[٣]. فأثار بذلك شكوك الخليفة ودفعه إلى أن يدعو القضاة ويبيّن بحضورهم أنه يرشح أخاه المقتدر للخلافة[٤].

ثم مرض المكتفي مرضه الأخير دون عهد صريح فحصلت مشكلة العهد للوزير الذي أخذ يستشير رؤساء الكتّاب في الأمر فوجدهم مختلفين في الرأي. فمحمد بن داود وابن عبدون كانا يرشحان عبد الله بن المعتز إذ (بالإضافة إلى المنافع الشخصية) كانا يعهدانه رجلاً قديراً مجرباً، ويتوسمان فيه النجاح في السياسة والحرب. أما ابن الفرات فلم يرق له تولية خليفة قوي، ولذلك اقترح ترشيح جعفر بن المعتضد (المقتدر فيما بعد) لأنه صغير يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، وهمه أن يعفي من دروسه فإذا كبر يكون الوزير قد حبب نفسه لديه بحيث لا يستغني عنه. ثم بيّن للوزير سوء معاملته لابن المعتز، وأن أقل ما يتوقعونه منه متى صار خليفة هو الإهمال[٥].

وفي ليلة وفاة المكتفي جمع العباس بن الحسن الكتّاب ليتفقوا على من يولونه الخلافة فأصر كل على رأيه وأيد علي بن عيسى ترشيح ابن المعتز لكبر سنه وتجربته. إلا أن العباس مال إلى رأي ابن الفرات مع إنه استحسن رأي آل الجراح من قبل[٦]. ولكنه أبدى مخاوفه من ثورة الناس لصغر سن المقتدر فأجاب ابن الفرات بأنه يمكن التخلص من كل متذمر بتوزيع أرزاق إضافية للجند مقدماً[٧]، وهكذا بويع المقتدر.

ولكن جماعة آل الجراح لم ترض بذلك وقررت بيعة ابن المعتز الذي قبل الفكرة

---

(٣) وفعلاً حاول ذلك مرتين، وكان أول المرشحين ابن المعتمد والثاني ابن المتوكل فأخفق.

(٤) أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، وقد اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ. ف. آمدروز، ٧ ج (القاهرة؛ أكسفورد: [د. ن.]، ١٩٢٠ ـ ١٩٢١)، ج ١، ص ٤ و٢١؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٨، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، تحرير ميخائيل دوغويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٧).

(٥) الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al -Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ١١٤ ـ ١١٥، وابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢ ـ ٣.

(٦) الصابي، المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٧، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٧) الصابي، المصدر نفسه، ص ١١٦.

على ألا تسفك الدماء. واعتقد المتآمرون أن أهل بغداد يؤيدونهم كما إن الوزير أزعج رجال الحاشية بكبريائه وأسخط أهالي بغداد لعدم سماع مظالمهم. واستطاعوا استمالة بعض الموظفين والقواد وثاروا بعد أربعة شهور وقتلوا الوزير وحاصروا الخليفة في قصره وأعلنوا بيعة ابن المعتز وخلع المقتدر. وكان هذا مستعداً للتنازل، إلا أن حرسه وعلى رأسهم مؤنس ثبتوه وقووا عزيمته وصمدوا للثائرين وفاجأوهم ومزقوا جمعهم وقتلوا ابن المعتز(٨).

٢ ـ وكان المقتدر مترفاً أنفق في سنين قليلة ما جمعه أبوه وأخوه، وبذّر كنوز الدولة، من جواهر وحلى كخاتم هارون الرشيد الذي اشتُري بثلاثمئة ألف دينار، والدرة اليتيمة التي تزن ثلاثة مثاقيل والتي قدمها إلى إحدى حظاياه(٩). وكان مدة حكمه الطويل يشكو قلة المال. وكان كثير الانهماك في الشرب حتى صار ذلك من العادات في البلاط(١٠). ومع ذلك فلم يكن يخلو من بعض المزايا الحسنة، إذ كان كثير الصوم والصلاة (في ساعات صحوه) ويرى علي بن عيسى أنه كان عاقلاً(١١).

ولعل تربيته وصغر سنه أوقعاه تحت تأثير الحرم، وبالدرجة الأولى أمه شغب (التي صارت تعرف بالسيدة) ثم قهرماناتها وخاصة أمّ موسى الهاشمية. أما السيدة فكانت إغريقية الأصل وكانت حظيّة للمعتضد، ثم أصبحت في خلافة ابنها أهم شخصية في البلاط. وكان المقتدر يعاملها بمنتهى الاحترام حتى كانت طلباتها تنفذ حتماً. وكان تأثيرها بصورة عامة مضراً، إذ أنها أفسدت ابنها بتشجيعه على الانهماك في الملاذ وعلى التبذير. ولعلها كانت حمقاء وليست خبيثة إذ أنها كانت متدينة أنفقت قسماً كبيراً من ثروتها في الأعمال الخيرية(١٢).

ومن المفيد أن نذكر بعض الأمثلة على تدخل الحرم. ففي وزارة ابن الفرات

---

(٨) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ٢٨ ـ ٢٩؛ ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٧ ـ ٨؛ الصابي، المصدر نفسه، ص ٢٣، و Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 93.

(٩) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٢٨؛ محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ٢٣٤، و Bowen, Ibid., p. 98.

(١٠) أبو علي المحسن بن علي التنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، باعتناء مرغليوث (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣١)، ج ١، ص ١٤٤.

(١١) Bowen, Ibid., p. 98.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢، والمسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٢٨.

الأولى كانت السيدة تؤكد لابنها فضل الوزير ونصرته له وتطلب منه أن يثق به، بينما كانت تطلب من الوزير أن يعامل المقتدر كما يعامل ابنه. وقام الحرم بدور مهم في استيزار الخاقاني، إذ قدم هذا إلى أم ولد ثانية للمعتضد مئة ألف دينار وطلب منها أن تتوسط لدى الخليفة والسيدة لاستيزاره وخدع الحرم بورعه الكاذب حتى نحج في الحصول على أمنيته[١٣]. وكان من أسباب سقوط علي بن عيسى في وزارته الأولى أن أم موسى القهرمانة قدمت إليه (وهو في مجلس هام للنظر في أمر القرامطة الذين صاروا يهددون بغداد) قائمة بنفقات بسيطة تطلبها السيدة. فوضع القائمة جانباً فغضبت القهرمانة ولم تقبل عذره، وأزعجته فصاح بها، وبذلك اكتسب عداءها. وزاد الطين بلّة أنها جاءت إلى داره قبيل العيد بطلبات، فأخبرت بأنه نائم لا يمكن إزعاجه، فلم تغتفر ذلك وصارت تسعى عليه[١٤]. ولما أخذ ابن الفرات يسعى لوزارته الثانية كان أهم وعوده أن يتعهد بدفع حوالى ثلاثمائة دينار يومياً في أثناء وزارته للسيدة[١٥]. وبلغ من نفوذ أم موسى القهرمانة أنها اتهمت سنة ٣١٠ هـ بأنها تسعى إلى نقل الخلافة إلى أحفاد المتوكل[١٦]. وكان من أهم أسباب استيزار الخصيبي أنه كان كاتب السيدة، وأن ثمل القهرمانة ذات النفوذ العظيم[١٧] كانت تؤيده[١٨].

٤ ـ ولنرجع الآن إلى التيار الرئيس، وهو دور الوزراء والكتّاب لنرى كيف صدعوا كيان الدولة بدسائسهم وكيف حطموا الماكنة الإدارية بانقسامهم وتخاصمهم. فمع إن عزلهم وتوليتهم كان بيد الخليفة فإنهم غطوا على شخصيته الضعيفة وقاموا بدور أساسي حتى حطمتهم أخيراً قوة الجيش وعداؤه لهم.

ولما انتهت فتنة ابن المعتز استوزر المقتدر أبا الحسن علي بن الفرات الكاتب الوحيد الذي لم يشترك فيها فأظهر اعتدالاً في سياسته، إذ اكتفى بنفي ابن عبدون إلى الأهواز حيث قتل لاتهامه بمؤامرة ضد الخليفة. ونفى ابن عيسى إلى واسط ثم

---

(١٣) Bowen, Ibid., pp. 104-105.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٤٨.

(١٥) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٤٢ ـ ٤٤، والصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٣٠ ـ ٣١.

(١٦) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(١٧) مما يدل على مدى نفوذها أنها كانت «تجلس للنظر في مظالم الخاصة والعامة بحضورها الوزير والكتاب والقضاة وأهل العلم». انظر: المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(١٨) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 247-248.

أرسله إلى مكة حسب رغبته. أما محمد بن داود فقتل مع أن ابن الفرات كان يفضل خلاصه. وأراد ابن الفرات استرضاء أعدائه، فأحرق قائمة وجد فيها أسماء المتآمرين(١٩).

ثم حاول ابن الفرات أن يستفيد من مركزه، وسعى إلى جمع المال على حساب الدولة والخليفة مع إن دخله قبل الوزارة بلغ مليون دينار سنوياً وكان يملك العين والورق والدور والأثاث ما يساوي عشرة ملايين دينار(٢٠) ومنح أقاربه وأصحابه أحسن الوظائف في الدواوين(٢١).

ثم نُحّي ابن الفرات عن منصب الوزارة لعداء مؤنس له، ولحصول أزمة مالية ولدسائس الخاقاني الذي أوهم الخليفة أن ابن الفرات يسعى إلى خلعه، فقبض عليه ونهبت دوره وولي الخاقاني(٢٢).

كان الخاقاني خبيثاً وغير قدير فأخفقت إدارته إخفاقاً ذريعاً، وأشرك ابنه عبيد الله معه ولكنه كان سكيراً ولم تكن له المقدرة على الإدارة، وكان نتيجة ذلك أن أهمل الاثنان قراءة الرسائل وتركا الإجابة عنها إلى الكتّاب فتكدست الأشغال وتوقفت ماكنة الإدارة. هذا بالإضافة إلى كون الخاقاني وابنه غير أمينين فعبيد الله كان يبيع الوظائف ويعطي طالب الوظيفة وظيفة مشغولة لقاء مبلغ من المال ومن طريف ما يحكى في هذا الباب أن الوزير أرسل سبعة عمال في يوم واحد إلى منطقة واحدة. كما إنه أخفق في النواحي المالية حتى اضطر إلى الاستدانة من الخزينة الخاصة(٢٣).

وخلفه علي بن عيسى فوجد الإدارة مرتبكة والخزينة في حالة يرثى لها. فأخذ يشتغل بجد من الفجر حتى صلاة العشاء يومياً. وسار على الطريقة المألوفة في تعيين الأقارب والأصدقاء إلا أنه اكتفى بالقديرين منهم(٢٤). ومع ذلك فقد استخدم بعض

---

(١٩) الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ١١٩ ـ ١٢٠؛ ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ١٤، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢٤٠.

(٢٠) الصابي، المصدر نفسه، ص ٧٩، ١١٦ ـ ١٧٧ و١٤٠؛ ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ٣٧.

(٢١) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ٣٤، والصابي، المصدر نفسه، ص ١٧٨.

(٢٢) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 101-107.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٢٤) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ٤٢.

أنصار ابن الفرات مثل هشام بن عبد الله في ديوان الدار[٢٥] والفضل بن جعفر (ابن أخت ابن الفرات) في نيابة ديوان المشرق[٢٦].

ثم سقط علي بن عيسى لعداء الحاشية التي أضرتها تدابيره المالية، ولعداء أم موسى القهرمانة ولد سائس ابن الفرات ضده[٢٧].

وجاء ابن الفرات ثانية، ولكن تبذيره وزيادته للرواتب والمخصصات وثورة ابن أبي الساج عامل أرمينيا وأذربيجان أوقعته في أزمة مالية، كما إنه أوجد في البلاد عصبة تناصبه العداء من الذين استرجع منهم ضياعه (التي صودرت عند عزله كما كانت العادة). وانضم إليها ابن مُقلَة الذي اعتقد بأن الوزير لم يكافئه على إخلاصه له، ودس إلى المقتدر أن الوزير أخفى عنه بعض الأموال. وعندئذ قدم المقتدر إلى علي بن عيسى قائمة بأسماء الذوات المرشحين للوزارة، فمال علي إلى حامد بن العباس ضامن منطقة واسط الذي كان مثرياً وفاضلاً[٢٨]. وكان حامد من أصل وضيع فكان سقّاء وكان بائع تمر[٢٩]. ولكنه جمع ثروة طائلة ضمن بعض التقاطعات من الحكومة[٣٠].

وفي هذا الحين انتصر ابن أبي الساج على جيش مؤنس، واتهم ابن الفرات بممالأة ابن أبي الساج الثائر، ومن ثم أراد تبرئة نفسه فأرسل قائداً ضد أبي الساج واقترح إرسال الحسين بن حمدان، ولكن نصراً الحاجب وشى إلى المقتدر بأن معنى ذلك ثورة الحسين واتفاقه مع ابن أبي الساج بتشجيع ابن الفرات. فرعب الخليفة وقرر استيزار حامد وأمر بسجن ابن الفرات وأتباعه[٣١].

وجاء حامد بأبهة عظيمة من واسط إلى بغداد، ولم يمض يوم على وصوله حتى

---

(٢٥) وكان آنئذ كديوان مركزي بالنسبة إلى الدواوين الأخرى.

(٢٦) الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٧٩، ٢٠٨ و٢٧٩.

(٢٧) انظر: المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١ و٢٨٥ ـ ٢٨٦؛ ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٤٠ و٤٢ ـ ٤٤، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ٦١.

(٢٨) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 157-159.

(٢٩) شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، نشره مرغليوث، ٧ ج (ليدن: [مطبعة بريل]، ١٩٠٧ ـ ١٩٢٧)، ج ٥، ص ٣٢٥.

(٣٠) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ٧٢.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٧٢ ـ ٧٣؛ ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٩٦ ـ ٩٨؛ الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٣٢ ـ ٣٣، و Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 161.

ظهر جهله بآداب البلاط وبشؤون الدولة. فغضب المقتدر، ولام حاشيته، فاقترحوا عليه تعيين علي بن عيسى مساعداً لحامد، فرضي وطلب من علي أن يكون كاتباً أو نائباً لحامد (في الظاهر، والوزير على الحقيقة وكما قال نصر الحاجب) وبعد تردد رضي علي[(٣٢)].

وفعلاً تركزت السلطة بيد علي حتى إنه صار لا يستشير رئيسه في شيء من أمور الدولة، ولم يبق لحامد سوى سواد الوزارة والظهور في الحفلات الرسمية[(٣٣)]. فكره حامد ذلك الوضع وفكر في خطة تعيد له النفوذ بأن طلب ضمان ضرائب السواد والأهواز وأصفهان بزيادة أربعمائة ألف دينار سنوياً على الضمان الاعتيادي، ولكن علياً عارض في ذلك وحذر الخليفة من ظلم حامد وأنه بذلك الضمان سيخرب البلاد، وأنه يتعارض مع سياسته التي تقضي بفرض ضرائب معتدلة لتشجيع العمارة ولإرجاع الرفاه. ولكن المقتدر لرغبته في جمع المال لم يفهم سياسة علي وأجاب طلب حامد.

بعد هذا الحادث أصبحت الحرب علنية بين الاثنين. وحاول علي مضايقة رئيسه بأن طلب دفع دراهم الضمان دون تأخير، حتى اضطر حامد إلى الذهاب إلى الأهواز للإشراف على الأمور بنفسه، ثم أرسل من هناك مائتي ألف دينار أخرى للخليفة مدعياً أنه لا يريد إلا فائدة الدولة، وأنه ما ضمن تلك المقاطعات إلا ليظهر كفايته المالية وليرى عجز علي بن عيسى. فسر الخليفة بذلك وأحرج علياً[(٣٤)]. وعندئذ أمر المقتدر بترك الجباية لحامد وخوّل لعلي مراقبة النفقات فقط.

ولم تمض مدى طويلة حتى ظهرت صحة احتجاجات علي، إذ أراد حامد أن يعوض نفسه عن الإضافة التي دفعها، فسبّب رفع أسعار الحبوب في بغداد بأن منع استيرادها من المقاطعات فأضر الغلاء الحاصل في سعر الخبز بأهالي بغداد وأدى بهم إلى الشغب. فدعا الخليفة حامد ليهدئ الحال. فأخفق في إخماد الحركة بالقوة، وهجم الثائرون على قصره وعلى دار نصر القشوري (رئيس الشرطة) واستمرت

---

(٣٢) الصابي، المصدر نفسه، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨؛ عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ٧٣ ـ ٧٤؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٤، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤، و Bowen, Ibid., p. 164.

(٣٣) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢٤٣؛ ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩، والحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٠ هـ/[١٨٧٣م])، ج ٨، ص ٣٥.

(٣٤) Bowen, Ibid., pp. 174-177.

الاضطرابات ثلاثة أيام حتى أن الجند تأثروا بروح الشعب وبدأوا يولولون من غلاء الخبز. فانتبه المقتدر للخطر وأمر بفتح مخازن الحبوب العائد لحامد وللسيدة ولبعض الأمراء وببيع الحبوب التي فيها بسعر رخيص وكذلك فرض على التجار البيع بذلك السعر المخفض، ولكن المشكل لم يحل لقلة الحبوب واتضح وجوب نقض ضمان حامد، فأمر المقتدر بذلك. وتراجع حامد إلى واسط بعد هذا الإخفاق وأسرع بإرسال الحبوب إلى بغداد. فاتعظ المقتدر بما حصل فأمر بمنع الضمان لرجال السياسة والجيش(٣٥).

وكان عزل علي وحامد ناتجاً بالدرجة الأولى عن إنقاص للرواتب توسلاً للاقتصاد وقاومه الهاشميون خاصة، وكان ابن الفرات يدس ضده.

وخلع علي ابن الفرات وعلي ابنه المحسن، فتتبع المحسن الجماعة المعزولة بكل قسوة وعذب علياً بن عيسى وغرّمه ونفاه إلى واسط ليتجنب خطره في بغداد. كما إن والده اتبع سياسة الإرهاب مدعياً أن اعتداله مع أعدائه في السابق أدى بهم إلى محاولة تدميره(٣٦). وقبض الوالد على ابن الحواري وعلى حامد وحصل منهما باللين على كميات كبيرة من الأموال، فاغتاظ ابنه المحسن وطلب تسليمهما إليه ليأخذ ما أخفوه من مال، كما إنه اقترح على الخليفة أن يشترك مع والده في الوزارة فتم له ما أراد برغم غضب واحتجاج والده. وعذب المحسن هذين الرجلين ثم نفاهما وكان سبب قتلهما في الطريق. ونكل أيضاً بعدد كبير من الكتّاب من جماعة علي بن عيسى. وأغضى الوالد عن تصرفاته لأن الأموال الحاصلة من المصادرات كانت كبيرة(٣٧). ثم صادر ابن الفرات ضياع علي بن عيسى ونفاه إلى مكة بعد أن كان في واسط لأنه خاف أن يتآمر ضده(٣٨). ثم أخفق ابن الفرات للسخط العام من قسوة عصبته، ولأنه أثار عداء نصر القشوري، وأغضب مؤنساً فعزل وسجن(٣٩).

---

(٣٥) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ٨٤ ـ ٨٥؛ ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٢ ـ ٧٥، وحمزة بن الحسن الأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء** (بيروت: دار مكتبة الحياة، [١٩ ـ ؟])، ص ١٣٠.

(٣٦) الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ١٠٥.

(٣٧) يقول الأصفهاني أنه أخذ من حامد وحده ٢,٧٠٠,٠٠٠ دينار. انظر: الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٣٨) انظر: الصابي، المصدر نفسه، ص ١٣٠ ـ ١٣١ و٣٠٧ ـ ٣٠٨؛ ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ١١٣؛ عريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ١١٣، و Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 226-227.

(٣٩) Bowen, Ibid., pp. 237-239.

وخلفه أبو القاسم عبيد الله بن أبي علي الخاقاني، وكان المقتدر لا يميل إليه ويقول: «أبوه خرب الدنيا وهو شر من أبيه» ولكنه عيّن بتأثير ثمل القهرمانة ونصر القشوري، ومؤنس. ولما سمع ابن الفرات بتعيينه قال: «السلطان نكب وما نكبت أنا»[٤٠]. ومع ذلك فعريب يبيّن أن أبا القاسم اعتدل وصار مثلاً للاستقامة[٤١].

أسرع الوزير الجديد بمحاكمة ابن الفرات والمحسن لمصادرتهما. فعامل الأب باللطف أولاً ثم بالعنف، وعامل المحسن بقسوة متناهية حتى جعله يوقع ورقة يدفع بموجبها ثلاثة ملايين دينار. إلا أن المحسن ابتلع الورقة وادعى أنه يستطيع دفع مليون دينار فقط. ومال المقتدر إلى استعمال اللطف ثانية، ولكن الوزير خاف على نفسه، وأشار على مؤنس ونصر باستخدام الجيش لمنع ذلك. فشغب الجند ثم تطرفوا بأن طلبوا شنق الاثنين (٢١٢ هـ ـ ٩٣٤)[٤٢]. وهكذا كان حسد الوزراء بعضهم بعضاً عاملاً هاماً في تدمير قوتهم وفي إفساح المجال لفوضى الجيش.

وأظهر أبو القاسم قلة كفاية، وزاد في الطين بلّة مرضه بعد قليل، وتضعضع مركزه على أثر الأزمة المالية. وزاد في ضعفه تآمر نصر الحاجب عليه. فأخذ الخصيبي كاتب السيدة للوزارة يؤيده نصر الحاجب وثمل القهرمانة (أهم شخصيتين في البلاط بعد مؤنس) وساعده على ذلك علاقته المتينة بالسيدة فعيّن وزيراً في رمضان ٣١٣ هـ.

كان الخصيبي مهملاً للأشغال، منهمكاً في اللهو، ثملاً في أغلب الأوقات. فتراكمت الأشغال بصورة فظيعة. وصادف اشتداد الأزمة المالية، وازدياد شغب الجيش فأدى ذلك إلى إسقاطه. وأخذ باقتراح مؤنس في تعيين علي بن عيسى ليصلح الوضع.

جاء علي (٥ صفر ٣١٥ هـ ١١ ـ نيسان/ أبريل ٩٢٧) فوجد الحالة مضطربة جداً. فرأى من الضروري إشغال الدواوين في الليل أحياناً، ونشط في تصفية القضايا المالية[٤٣]. واستخدم كتّاباً قديرين حقاً. فأعطى الكلواذاني[٤٤] ديوان السواد، وعيّن ابن مُقلَة في ديوان الضياع الخاصة والمستحدثة وسليمان بن الحسن بن مخلد في ديوان بيت المال، وعبد الرحمن بن عيسى (شقيقه) في ديوان الحرم وأبا زنبور في ديوان الضياع المصادرة من ابن الفرات، والفضل بن جعفر في ديوان الشرق. وقد قدّر

---

(٤٠) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٧ و١٢٩.

(٤١) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ١٢٠.

(٤٢) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 239-242.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٤٤) وكان الكلواذاني الكاتب الوحيد الذي أظهر مقدرة فائقة في وزارة سلفه.

لخمسة من هؤلاء الكتّاب أن يتولوا الوزارة فيما بعد. وكان علي نفسه يقرأ التقارير ليل نهار[٤٥]. وكان مؤنس خير صديق لعلي، إلا أن هذا استقال لأن المقتدر أربك تدابيره المالية حين اضطر إلى منح الجيش أرزاقاً إضافية. ومنذ سقوطه (١٥ ربيع الأول ٣١٦ هـ ـ ٨ أيار/مايو ٩٢٥ م) حتى مقتل المقتدر بقيت الأزمة المالية واستبداد الجيش البليتين اللتين هدتا ما بقي من هيبة الخلافة ونفوذها.

٥ ـ كان وجود مؤنس، والأزمة المالية، العاملين الرئيسيين في تدخل الجيش في السياسة. فمؤنس الذي قضى على فتنة ابن المعتز أصبح صاحب الحول والطول في البلاط، وأخذ يتدخل في تعيين الوزراء وعزلهم كما لاحظنا. وكان الجيش كثيراً ما يشغب مطالباً برواتب متأخرة، أو بأرزاق إضافية، وكان ذلك يزداد بازدياد أزمة الخزينة. ولكن متانة الإدارة نسبياً ووجود وزراء أقوياء كابن الفرات في النصف الأول من خلافة المقتدر قلل من خطر الجيش آنئذٍ.

ولعل أول اصطدام علني بين الجيش والإدارة كان في وزارة ابن الفرات الثالثة. فقد كان مؤنس يبغض ابن الفرات ويكنُّ له كل سوء، وصار المحور الذي تحاك فيه الدسائس والمؤامرات. وسعى ابن الفرات إلى إبعاده عن بغداد واقترح على الخليفة إرساله إلى الرقة بحجة أن بقاءه في العاصمة يجعله خطراً على السياسة العامة، وأكد على الخليفة وجوب منع الجيش من التسلط على الشؤون العامة. ثم بيّن للخليفة أن إرسال مؤنس إلى الرقة يسهل جمع ضرائب الولايات الغربية، كما إنه يمكن دفع رواتب الجيش منها، وبذلك تتخلص الخزينة من نفقات ثقيلة. فقنع الخليفة واضطر مؤنس إلى أن يخضع لرغبته[٤٦]. ولكن مؤنساً استدعي إلى العاصمة عند سقوط الوزير.

وكانت لمؤنس يد في تعيين أبي القاسم الخاقاني[٤٧]. ومن هذا الوقت تضاءلت هيبة الوزراء ولا سيما بعد مقتل ابن الفرات. إذ لم تبق شخصية تجابه مؤنساً، وصار هذا يتصرف في الأمور كما يشاء، وصار رؤساء الجيش يتطاولون على الخليفة ويهددونه في تنفيذ أغراضهم بإثارة الفتنة في الجيش. ولنا على ذلك أمثلة كثيرة. فالخصيبي أنذر بسوء تصرف الجيش في أول يوم من تسنمه كرسي الوزارة؛ فقد

---

(٤٥) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ١٤٠ و١٥١ ـ ١٥٢؛ عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٣٠ ـ ١٣٢؛ الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٣١٢ ـ ٣١٣؛ ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٨، ص ٥١، و Bowen, Ibid., pp. 268-269.

(٤٦) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٥ ـ ١١٦؛ الصابي، المصدر نفسه، ص ٤٢ ـ ٤٣ و ٤٥ـ ٤٦، و Bowen, Ibid., p. 229

(٤٧) Bowen, Ibid., pp. 237-239.

استقبله الجند بوابل من السهام يطالبون بأرزاقهم[٤٨] وكان استيزار علي للمرة الثانية بإلحاح من مؤنس. إلا أن الخيالة شغبوا لمدى أسبوع مطالبين بالأرزاق، ونهبوا الدور والحوانيت وبعض قصور الخليفة كالثريا. ولم يهدأوا إلا بعد تسديد مطالبهم[٤٩].

وبعد أن صد الجيش تقدم القرامطة تجاه بغداد سنة ٣١٦ هـ طلب الزيادة في الرواتب مكافأة على هذا النصر. فاضطر الخليفة إلى الموافقة على زيادة دينار لكل جندي. فقضى بذلك على جهود علي بن عيسى في الاقتصاد واضطره إلى الاستقالة.

وزاد الوضع سوءاً وحراجة حين ساءت العلاقة بين الخليفة ومؤنس. وسبب ذلك أن المقتدر أراد إرسال مؤنس لصد البيزنطيين الذين فتحوا سميساط وهدموا المساجد. فدس إلى مؤنس أن الخليفة حفر له حفرة في البلاد ليسقطه فيها عند الوداع. فتوقف مؤنس عن السفر وبرغم تأكيد الخليفة له بكذب الخبر فإن العلاقة اشتدت توتراً بينهما[٥٠].

وفي وزارة ابن مُقلَة (سنة ٣١٦ هـ) تحرجت العلاقة بين الخليفة ومؤنس مرة أخرى بتأثير دسائس أبي الهيجاء ونازوك[٥١]، إذ دس هذان إلى مؤنس أن الخليفة يريد إسناد قيادة الجيش لهارون بن غريب الخال، فغضب وأظهر تنكراً للخليفة. إلا أن هذا هدأ وخفف من روعه. وما هي إلا فترة قصيرة حتى هجم الفرسان المصافية على دار نازوك فظن مؤنس أن ذلك كان بتدبير الخليفة وانسحب بجيشه إلى الشماسية. فاضطرب الخليفة وسأل عن مطالب المتذمرين فاحتجوا عليه بأن أقرباءه يسيطرون عليه ويسيرونه ضد مصلحة الدولة. وأنه يجب طرد السيدة وأُختها وكل النساء من البلاط، وكذلك طلبوا منه أن يقلل من التبذير في البلاط، وأن ينفي هارون إلى الحدود السوريا. فسلم بمطالبهم ولكن نازوك وأبا الهيجاء لم يقتنعا بذلك. وقبل أن يفسحا للخليفة المجال لتنفيذ وعوده بدأا بالشغب بعد يومين. ثم هجما على البلاط صباح اليوم الرابع عشر من محرم ٣١٧ هـ/ ٢٧ شباط/ فبراير ٩٢٩ م، فاختفى المقتدر في القصر حتى المساء، ثم ركب زورقاً إلى دار مؤنس (ولعل ذلك كان حسب خطة مدبرة) ونهبا القصر.

---

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٤٩) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٧ و١٥٩ ـ ١٦٠.

(٥٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٩ ـ ١٦١، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ١٣٢.

(٥١) هارون بن غريب الخال هو ابن خال الخليفة. وقد أخمد ثورة القرامطة في السواد سنة ٣١٦ هـ ثم عُيّن لولاية الجبال بدل أبي الهيجاء الحمداني. كما إن أصحابه تنازعوا مع أصحاب نازوك القائد. فاتفق أبو الهيجاء ونازوك على الدس ضده.

وجاء المتآمرون بأخ المقتدر لأبيه ونصبوه خليفة بلقب القاهر بالله. وبعد تعيين نازوك رئيساً للشرطة وحاجباً، وإبقاء ابن مُقلَة وزيراً، وضع مؤنس حرساً على القصر ورجع إلى داره. ولكن عدم ثقة نازوك بالمصافية (فرقة من الحرس) جعله يستبدل بهم رجاله لحراسة القصر فاتفق المصافية مع الحجرية (فرقة أخرى من الحرس) وضجوا يطالبون بزيادة الرواتب، فأعطاهم نازوك المال، ولكنهم لم يرتاحوا؛ ففي اليوم الثالث دخلوا البلاط يطالبون بأرزاق سنة إضافية. فأرسل القاهر نازوك لتهدئتهم ولكنه كان ثملاً فخاف وهرب. إلا أن الجند أدركوه وقتلوه. وهرب كل من في القصر، واختفى القاهر وضج الجند خارج دار مؤنس بإرجاع المقتدر. فأعيد إلى الخلافة وجددت له البيعة وعفا عن القاهر[٥٢].

أدرك المقتدر بعد هذا الحادث أنه لا يمكن التهاون بطلبات الجيش وحاول جدياً جمع المال اللازم لهم. فبدأ يبيع ملابس البلاط وسجاده وجواهره وبعض الضياع السلطانية، كما استرجع بعض الإقطاعات التي أقطعها من قبل ليحصل على المال، وأنشأ ديواناً خاصاً لبيع أراضيه. ولما شعر الجند بأن جميع رغباتهم تجاب وجميع طلباتهم تُلبى، أصبح تصرفهم لا يطاق. فالمصافية نصبوا أنفسهم حماة للخليفة وإن شئت فقل سادة عليه، وخيموا في ساحة القصر، ورحبوا بالمنخرطين في صفوفهم حتى زاد عددهم كثيراً. ثم أدخلوا زوجاتهم وأطفالهم وحتى معارفهم في الديوان. وأعاقوا سير العدالة بالتساهل في الجرائم وتأخير الأحكام. ثم طلب رؤساؤهم حتى الدخول على الخليفة أو الوزير متى أرادوا. والخلاصة فإنهم سيطروا على الدولة سيطرة تامة.

اتضح للمقتدر أن الفوضى ستعم إذا استمرت الحالة، وأن العواقب ستكون وخيمة، وأن العلاج الوحيد هو إثارة قسم من الجيش ضد الآخر وإثارة الأحقاد والعداوات بين فرقه. فدبرت لذلك الخطط، وصمم على ضرب الفرسان بالرَجّالة[٥٣]. وفي أواخر سنة ٣١٧ هـ ولا سيما بعد أن روِّع العالم الإسلامي بفاجعة نهب القرامطة للحجر الأسود جاء المصافية يطالبون برواتبهم فأخبروا أن الرَجّالة أخذوا المال. فثاروا ونهبوا قصر الوزير ثم اصطدموا بالرجالة فاتفق الحجرية والرَجّالة على المصافية وناصرهم الأهالي أيضاً فنفوا المصافية عن القصر، ووضعوا

---

(٥٢) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٣٩ ـ ١٤١؛ ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٨ ـ ١٩٩، و Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 284-285.

(٥٣) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٢، عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٤٨؛ الأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، ص ١٣٣، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٨، ص ٩٤ ـ ٩٥.

السيف في كثير منهم وأضرموا النار في بيوت كثير من رؤسائهم[٥٤].

وبقي المقتدر، والرعب يملأ قلبه من الجند الذين كان يخشى أن تحدثهم نفوسهم يوماً ما بخلعه. وزاد في قلقه واضطرابه توتر علاقته بمؤنس تلك العلاقة التي كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. لأن مؤنساً كان ينتظر من المقتدر بعد أن أرجعه إلى الخلافة، أن يستشيره في كل قضية وكل أمر. وكان يراقب الخليفة على الدوام فكان من الضروري للمقتدر أن يبحث له عن حليف ضد مؤنس فوجد بغيته في ياقوت حاجبه الجديد (الذي كان والياً على فارس) وابنه محمد[٥٥]. وغدا النزاع بين المقتدر ومؤنس أمراً لا مفر منه. وكان أول نصر للخليفة، نجاحه في تعيين محمد بن ياقوت رئيساً للشرطة بدل ابني رائق اللذين عيّنهما مؤنس[٥٦] ثم عزم المقتدر على صرف ابن مُقلَة الذي أصبح يخدم مؤنساً في كل شيء وقرر تعيين وزير يخدم مصالحه. فاستغل خروج مؤنس (جُمادى الأول ٣٦٨ هـ) إلى عكبرا ودعا الحسين بن القاسم ليقلده الوزارة. فرجع مؤنس مغضباً لهذه الخديعة وطلب إلى علي بن عيسى أن يكلم الخليفة في الأمر إلا أن الخليفة أبى إرجاع ابن مُقلَة لأن ذلك يعتبر إهانة صريحة له. ولكنه (الخليفة) أدرك أن ليس باستطاعته الوقوف ضد مؤنس فرضي بحل وسط. فاقترح علي بن عيسى ترشيح أخيه عبد الرحمن أو سليمان بن الحسن للوزارة. فمال المقتدر إلى سليمان لأنه خال الحسين ولأنه يكره ابن مُقلَة. واستوزره على أن تكون رئاسة الدواوين لعلي بن عيسى وبذلك يكون علي فاصلاً بين الخليفة ومؤنس، فكما أن مؤنساً كان لا يعمل ضد علي فكذلك علي لا يكون آلة بيده. وقنع علي بهذه التسوية.

وعلى الرغم من كل ذلك أخذت حال الخليفة في التحسن نسبياً. يتضح الوضع الجديد وضوحاً تاماً في معاملة ابن مُقلَة. فعلي أغرمه إجابة لرغبة الخليفة بينما وبخه الوزير لإثارته الفتنة بين الخليفة وقواده. ولكن الغرامة أنقصت بطلب من مؤنس وسجن في المحل الذي تخيره مؤنس. وعلى كل فهذه الحلول أوقفت اصطداماً لا بد منه[٥٧].

---

(٥٤) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ و٢٤٨ ـ ٢٤٩، والأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٥٥) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٣٣، وابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٦ و١٥٧.

(٥٦) المصدران نفسهما، ص ١٤٥، وج ١، ص ٣٠٢ على التوالي.

(٥٧) المصدران نفسهما، ص ١٥٠، وج ١، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ على التوالي، و Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 294.

على أن الأمور قد تأزمت والظروف قد ازدادت حرجاً في وزارة سليمان بن الحسن وأصبح الهياج والفتنة أمرين مألوفين؛ فالفرسان الذين قضوا على المصافية شعروا بأهميتهم وهجموا بعد شهر على دار الوزير، واستمرت الاضطرابات بسبب الرواتب حتى بلغت القمة في صفر ٣١٩ هـ/آذار/مارس ٩٣١ م بهجوم منظم على القصر. وطلب الثوار لأول مرة عزل ياقوت وإقالة ابنه من وظائفهما. (ويظهر أن مؤنساً وأتباعه كانت لهم يد في هذا الهجوم). فمحمد بن ياقوت أسندت إليه الحسبة بالإضافة إلى رئاسة الشرطة. فزاد حسد أعدائه ورعبهم لأن الحسبة يصحبها رئاسة قسم لا بأس به من الرَجّالة. كما إن تولية الحسبة اتخذها أعداؤه حجة شرعية للتذمر لأنه لا يصح لشخص الجمع بين الوظيفتين في آن واحد، ولا سيما أن الحسبة كانت تسند عادة إلى قاض أو فقيه. واخترق الثوار القصر فوعد المقتدر بإجابة طلباتهم فتفرقوا، ثم بدأوا بالشغب مرة ثانية بعد مضي يومين واشترك معهم الأهالي ففتحوا السجون ودامت الفتنة عشرة أيام، حتى اضطر ابن ياقوت إلى الهجوم على الأسواق، وقتل البريء والمجرم، وبذا تمكن من إرجاع النظام إلى نصابه[٥٨]. وجال في خلد المقتدر أن الفتنة قد خمدت، ولهذا لم ير مانعاً من بقاء ياقوت وابنه في مناصبهما.

لم يمض شهران ذاق الخليفة ووزيره فيهما بعض الهدوء والطمأنينة حتى ثار الفرسان (أول جُمادى الآخرة ٣١٩ هـ/تموز/يوليو ٩٣١ م) وتعرضت بغداد لمدة أسبوعين لأنواع القسوة والسرقة والنهب. ورفع مؤنس احتجاجاً إلى الخليفة وألح على صرف ياقوت وابنه، فسلم المقتدر بطلبه على مضض. ثم سمع مؤنس بأن ياقوتاً وابنه يدبران قتله، فطلب من الخليفة نفيهما من العاصمة فرفض الخليفة وأخبر مؤنساً أن باستطاعته ترك بغداد إن لم يرقه الوضع[٥٩]. فاستشاط مؤنس غضباً ونزل في الشماسية، وخابت محاولة المقتدر للتفاهم معه. عند ذاك رأى الخليفة أن من الحكمة إخراج ياقوت وابنه من بغداد. وعلى أثر ذلك رجع مؤنس واستولى على الأمور وأسند الحجابة إلى ابن رائق.

لكن المقتدر لم يرضخ رضوخاً تاماً، وأراد أن يظهر ذا حظ من السلطة، فصرف سليمان بن الحسن (رجب ٣١٩/ آب/أغسطس ٩٣١ م) وأراد استيزار الحسين بن القاسم. ولكن مؤنساً ألح في تعيين عبيد الله الكلواذاني فعيّن ومعه علي

---

(٥٨) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٥٦؛ ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٩، والأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٥٩) Bowen, Ibid., pp. 297-298.

بن عيسى مشرفاً على الدواوين ولكن مدة الكلواذاني كانت قصيرة؛ فالأزمة المالية وهجمات القرامطة على الكوفة جعلت الحالة المعاشية صعبة. وزاد وضعه تأزماً هجوم فرقة من الفرسان على داره، فلم يستطع دفع مرتباتهم لعدم وصول الوارد من الولايات. فلزم داره وقدم استقالته (٣٠ رمضان ٣١٩ هـ/ ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٩٣١ م) فقبلت[٦٠]. ثم قرر المقتدر استيزار الحسين بن القاسم، والغريب أن مؤنساً وافق على تعيينه وأغرب من ذلك أنه رضي بتنحية علي بن عيسى عن الإشراف على الدواوين، فلم يترك له سوى ديوان النظر في المظالم. ولكن الحسين لم يرتح لتولية علي لذلك الديوان فطلب عزله وتمّ له ذلك. ثم شعر بخطر وجوده في بغداد على سلطته فطلب نفيه إلى سوريا أو مصر. وعلى الرغم من تدخل مؤنس فإن علياً نفي إلى دبرقني[٦١].

وعلى كل حال، فإن مؤنساً شعر بخطأ تعيين الحسين. فقد قوي حزب الخليفة حتى إن الضعفاء من جماعته كابني رائق انضموا إليه. ثم حاول الحسين ضرب الجيش بعضه ببعض. وأثار الرَجّالة المتذمرين ليطلبوا عزل يلبق (الذي كان ينوب عن مؤنس المريض آنذاك) فشكا مؤنس إلى الخليفة دسائس الوزير راجياً عزله ونفيه إلى عُمان فرفض طلبه. وكان عزل يلبق إنذاراً لمؤنس بالخطر. فقرر أن ينتقل بعسكره إلى الشماسية ولكنه وجد الحسين قد اكتسب تأييد الرَجّالة بدفع رواتبهم فحاول التصالح مع الوزير ولكن رسوله أهين، فقرر الذهاب إلى البردان (محرم ٣٢٠ هـ/ كانون الثاني/ يناير ـ شباط/ فبراير ٩٣١ م)[٦٢].

في الواقع أن نزوح مؤنس كان نصراً للخليفة ووزيره. فشرّف الوزير بلقب عميد الدولة ونقش اسمه مع اسم الخليفة على النقود ووجد الوزير الفرص سانحة لمهاجمة أنصار مؤنس فأخذ من ابن مُقلَة عشرين ألف دينار. لكن نفوذه لم يدم، إذ خلت الخزينة من المال ووجد أنه لا يستطيع دفع نفقات السنة الحالية إلا بجباية ضرائب السنة القادمة فشغب الجند عليه. كما إن حماس الخليفة له قد اضمحل، فقبض عليه (في ربيع الآخر سنة ٣٢٠ هـ أيار/ مايو ٩٣٢ م) وعيّن الفضل بن جعفر محله[٦٣].

---

(٦٠) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٦٠ و١٦٤؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢٤٧، وابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٩.

(٦١) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٩ ـ ٢٢١.

(٦٢) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٦٥ ـ ١٦٧، وابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١١ ـ ٢٢٢.

(٦٣) المصدران نفسهما، ص ١٧٣، وج ١، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ على التوالي.

وظهر موقف مؤنس ضعيفاً عند تركه بغداد. ولكن الصدف وبراعته في القيادة وحنكته قوّت مركزه. فقد سافر شمالاً ولكنه كان يعرف أن العمال، في طريقه، قد ألقيت إليهم الأوامر بالقبض عليه. إن أمكن، كما تخلى الكثيرون من أتباعه عنه، فأراد الالتجاء إلى الحمدانيين في الموصل لصداقته معهم، لكنهم مانعوا في مجيئه وطمعوا باسترجاع ثقة الخليفة، فلم يعبأ بل سار إليهم وهزم جيشهم (٤ صفر هـ ـ ١٥ شباط/ فبراير ٩٣٣ م) ودخل الموصل[٦٤]. وبعد هذا الانتصار قوي مركزه، إذ رجع إليه من تركه سابقاً والتحقت به فرق من جيش الخليفة في الثغور.

ولكن الحالة كانت خطرة في بغداد، ففي إيران كثرت اعتداءات مرداويج الخارج على الخلافة، كما استمرت الغزوات البيزنطية دون من يصدها، وكثر اللاجئون من تلك الجهات إلى بغداد وسببوا الشغب والهياج فيها حتى هوجم قصر الوزير مرتين ونهب. كما إن القرامطة ومؤنساً قطعوا الأقوات عن بغداد من جهتهم فحصلت فيها مجاعة شديدة ووقع فيها وباء مريع[٦٥]. ووُبخ الخليفة علناً لإهماله مصالح الرعية. وأدرك الفضل وحده الظروف. فمال إلى استرضاء مؤنس فأرسل إليه رسالة تلقاها مؤنس بحذر، وتقدم عند حلول الخريف إلى بغداد. وسرعان ما ظهر أن الفضل أرسل رسالة على مسؤوليته الخاصة لأن الخليفة عندما سمع بقدوم مؤنس أرسل جيشاً لرده. ولكن جيش الخليفة لم يصمد لمؤنس بل استمر بالتراجع حتى بغداد. وهناك عسكر الجيشان الواحد قبالة الآخر في الشماسية.

وتلا ذلك انقسام الرأي في البلاط. فهارون بن غريب الخال (الذي كان متنفذاً آنئذ) مال إلى رأي الوزير في الصلح حذراً من نتيجة الحرب. ولكن محمداً بن ياقوت (الذي رجع إلى بغداد في غياب مؤنس) وابنَي رائق ألحوا على الحرب. وتردد المقتدر في الأمر لأنه كان يميل إلى تحدي مؤنس. ولكن جيشه ـ كما أوضح هارون ـ لا يعتمد عليه. وربما ثار إن لم تدفع إليه الرواتب. وأكد ابن ياقوت أن الجيش إذا أعطي رواتبه تخلى أتباع مؤنس عنه وانضموا إلى جيش الخليفة. ولكن ما العمل والخزينة خالية. كما إن السيدة ادعت بأنها صرفت كل ما تملك في حرب القرامطة. ففكر الخليفة في الذهاب إلى واسط وجميع الرعايا حوله. وعلى الرغم من أن الخليفة وافق على اقتراح مؤنس أول الأمر وهو أن خير حل هو تسوية الخلاف، إلا أن العواطف طغت عليه فأمر بالحرب وكانت النتيجة مقتله في ٢٦ شوال ٣٢٠ هـ/ ٣٠ كانون

---

(٦٤) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 314-316.

(٦٥) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٧٣ ـ ١٧٤، والأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

الأول/ ديسمبر ١٣٢ م. وبإراقة دم المقتدر طعنت الخلافة في الصميم ولم يلتئم جرحها بعد ذلك[٦٦].

٦ ـ ولنتطرق الآن إلى الوضع المالي لنرى كيف أربكته أنانية الوزراء، لنقدر جهود ذلك الوزير العظيم علي بن عيسى الذي لقب بحق الوزير الصالح.

كان المقتدر متلافاً مبذراً، بدد كل ما جمعه أبوه وأخوه[٦٧]. فضلاً عما جمع في أيامه، وكان مجموع ذلك سبعة وثمانين مليون دينار «خرج من ذلك ما ليس يجري مجرى التبذير . . . بضعة عشر ألف ألف دينار، وبقي بعد ذلك ما بذر وأتلف نيف وسبعون ألف ألف دينار»[٦٨]. ومما يجدر بالملاحظة أن هذه المقادير كانت من «بيت مال الخاصة» أو بيت مال الخليفة. فكان هناك تمييز بين «بيت المال» أو خزينة الدولة وبين بيت مال الخليفة. وكانت موارد الخزينة العظيمة، مما تغلّه الضياع السلطانية الواسعة[٦٩]، ومن المصادرات التي كانت تشمل الوزير المعزول وعصبته، والتي أصبحت سُنّة متبعة وموردا خصباً، ومن ضرائب المواريث والواردات العامة أحياناً[٧٠]، وكان هذا البيت خير مسند لخزينة الدولة (التي أضرب بها سوء طرق الجباية، وزيادة النفقات وكثرة الثورات وحروب القرامطة، وانفصال بعض الولايات) في أوقات الأزمات بوساطة القروض. ولكن أهميته قلَّت بالتدريج في خلافة المقتدر لسوء التدبير وكثرة التبذير. وبذلك ازدادت أزمة بيت المال شدة، وتعسر الاحتفاظ بالتوازن بين الدخل والمصرف، وعاد الخليفة يشكو دائماً قلة المال.

ولنعرض قصة الأزمة المالية وتطورها بإيجاز. فابن الفرات في وزارته الأولى كان يخشى نفوذ مؤنس. ولذلك تجده يخصص مرتبات لأفراد الأسرة المالكة ليقوّي نفوذه في البلاط كما إنه ألغى الضرائب التي يستثقلها الناس، ولم يفكر في كيف تتحمل الخزينة

---

(٦٦) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٧٤ ـ ١٨٠؛ ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٧؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٣١١، والمسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٣٤، **والتنبيه والإشراف**، ص ٣٢٧.

(٦٧) وكان مقدار ذلك ١٤,٠٠٠,٠٠٠ ديناراً، انظر: ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٨، والصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٢٩٢.

(٦٨) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٨ ـ ٢٤١.

(٦٩) انظر قائمة علي بن عيسى في: جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ٥ ج (القاهرة: دار الهلال، ١٩١٨)، ج ٢، ص ١١٤ ـ ١٢٢.

(٧٠) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

تلك التدابير[٧١] فلا غرو إنْ أفلست الخزينة حتى إنه لم يجد المال الكافي لشراء ما يلزم من الماشية يوم النحر. ولما استنجد بالخزينة الخاصة رفض الخليفة إعانته[٧٢]. ويجب أن لا ننسى أن الوزير استغل مركزه لجمع المال لنفسه على حساب الدولة والخليفة[٧٣].

ثم خلفه الخاقاني، وكان أسوأ من سلفه؛ إذ أفرط في قبول الرشوات، وقام ببيع الوظائف لجمع المال لنفسه ولا يخفى أثر ذلك في إفساد الوضع المالي وتدهور طرق الجباية. هذا بالإضافة إلى أنه لم يعمل شيئاً لحل أزمة الخزينة، بل زاد الوضع سوءاً بسبب حرصه على تقوية مركزه. فذهب إلى أبعد مما ذهب إليه ابن الفرات في زيادة رواتب الجيش والكتّاب وخدم القصر والحاشية[٧٤].

وجاء علي بن عيسى فلاحظ أن اضطراب الخزينة أدى إلى سقوط الوزيرين السابقين وعلى ذلك فيجب أن يقوم بإصلاح عاجل لذلك. وأدرك أن سبب الأزمة كثرة الصرف وقلة الدخل. أما كثرة الصرف فكانت راجعة إلى تبذير الوزيرين من قبله ويشاركهما في ذلك الخليفة. وأما قلة الدخل فناشئة من كثرة الاضطرابات والثورات الداخلية خلال القرن الثالث الهجري. كما إن نظام الضمان للضرائب كان فيه مجال كبير للعسف ولا سيما في أوقات الحرب والفتن حين تضعف الرقابة على العمال والموظفين. وبالإضافة إلى ذلك أن الاضطرابات وعسف الضمان ثبّطا عزم الفلاحين وأديا إلى ترك كثير من الأراضي بوراً. فكان على علي بن عيسى معالجة تلك الأوضاع، والسعي إلى موازنة الدخل والخرج. فبدأ بفارس حيث أدت الاضطرابات إلى هجرة عدد كبير من الفلاحين، فأضيف إلى ضرائب الباقين شيء باسم (التكملة) فأرهقهم ذلك. ومن الجهة الأخرى كانت الأشجار المثمرة معفاة من الضرائب منذ زمن المهدي. فألغى التكملة ليخفف عن الفلاحين وسن ضريبة على الأشجار المثمرة ليقوّي موارد الخزينة. كما إنه ألغى بعض الضرائب الجائرة كضرائب الخمور في ديار ربيعة، والمكس (ضرائب التجارة) في مكة، وضرائب المرور (مكوس على نهر الدجيل (الكرون))[٧٥]. وحارب الفساد في الإدارة، وقرر إصلاحها فأعلن سياسته في منشور أصدره إلى العمال، بيّن فيه أنه لا يصرف عاملاً دون محاكمته. ولكنه أنذر العمال على

---

(٧١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣.

(٧٢) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 107.

(٧٣) الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi* : **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٧٩، ١١٦ ـ ١١٧ و١٤٠، وابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣.

(٧٤) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ٤١.

(٧٥) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 12, note 4.

سوء التصرف، أو السرقة وما شابه ذلك. فقد جاء في المنشور المذكور: «وتمكن في نفسك إنه لا رخصة عندي ولا هوادة في حق من حقوق أمير المؤمنين أغضي عنه... ولا تقصير في شيء من أمور العمل أصبر لقريب أو بعيد عليه. ولا تكون بإظهار أثر جميل في ذلك أشد عناية منك بإنصاف الرعية والعدل عليها ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها»[٧٦]. وحاول تطهير الإدارة من عمال السوء. يقول ابن مسكويه: «وقلد (علي) بعد ذلك الدواوين جماعة وعزل جماعة وفعل مثل ذلك بالعمال. ونظر إلى من تعود اقتطاع الأموال السلطانية وإقامة مروات نفسه منها وقصر في العمارة، واعتمد غيره فعزل أمثال هؤلاء»[٧٧]. كما حاول وضع حد للرشوة (المرافق) التي كانت سائدة متفشية والتي كانت تسجل أحياناً في حسابات الدواوين[٧٨]. هذا وأنه كتب إلى العمال أن ينظروا في شكوى المتظلمين من دافعي الضرائب ضد الجباة أو الموظفين الآخرين ليرجع ثقة الناس بعدل الحكومة وجعل جزاء من يحتجن أموال الدولة والعقاب الشديد. فكانت النتيجة أن زاد الارتفاع... لأن الخير انتشر بالعدل، وقيل قد رفع الحيف والظلم، فنشط الناس للازدياد والعمارة[٧٩].

وبلغ من اهتمامه برخاء الرعية أن يصدر الأوامر بإصلاح المساجد: والمستشفيات القديمة في أنحاء المملكة وبني أخرى جديدة. يقول ابن مسكويه: «ثم عمر... البيمارستانات وأدار الأرزاق لمن ينظر فيها، وأزاح علل المرضى والقوام»[٨٠]. وكان في بغداد أربعة مستشفيات، ولكنها لم تكن كافية. فبنى علي مستشفى آخر في محلة الحربية أنفق عليه من ماله الخاص[٨١]. وأنشأ ديوان البر للنظر في أموال الوقوف والصدقات. وكانت هذه تصرف على الحرمين وفي الجهاد ضد البيزنطيين[٨٢].

وخير تعليق على سياسة علي بن عيسى قول ابن مسكويه: «فساس... الدنيا أحسن سياسة، ورسم للعمال الرسوم الجميلة وأنصف الرعية وأزال السنن الجائرة ودبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وتصوّن

---

(٧٦) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧.

(٧٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨.

(٧٨) انظر: الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٧٩) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠. وللاطلاع على القصة، انظر: الصابي، المصدر نفسه، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٨٠) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨.

(٨١) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 126-127.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

وديانة . . . فبانت بركته على الدنيا وعمر البلاد وتوفر الارتفاع، واستقام أمر السلطان، وعادت هيبة الملك وصلح أمر الرعية»[(٨٣)].

ثم حاول علي تقليل النفقات. فالتفت إلى الرواتب فوجدها عالية فـ «أسقط . . . أكثر ما زاده الخاقاني في وزارته في دواوين الجند وإقطاعاتهم. وكانت هذه الزيادة قد لحقت القواد وسائر أصناف الجند ولحقت الخدم والحاشية وجميع الكتّاب والمتصرفين وكانت كثيرة. فلما أسقطها عاداه أكثر الناس وشنعوا عليه بالضيق والشح وقطع الأرزاق، وإنما اضطر إلى ذلك لما رأى نفقات السلطان زائدة على دخله زيادة مفرطة تحوج إلى هدم بيوت الأموال وصرفها في نفقات يستغني عنها»[(٨٤)].

ولا يجب أن ننسى أن هذا الوزير بذل جهده لتثبيت أسس المالية على أساس متين، لحل مشكلة اضطرار الدولة إلى الجباية قبل موعدها، لتخليصها من صعوبة الاستدانة عند الحاجة. فأنشأ أول مصرف رسمي عرفه الإسلام[(٨٥)] بالاتفاق مع جهبذين يهوديين على تسليف الدولة ما تحتاجه من المال لقاء فائض معيّن وسلمهما جباية الأهواز كضمان، كما إنه استعمل اعتماد (Credit) هذا المصرف للاقتراض من التجار متى دعت الضرورة. وقد استمر هذا المصرف في أعماله مدة تزيد على عشر سنين[(٨٦)].

وهكذا نجح علي إلى حد مشكور في إصلاح الوضع المالي، وفي موازنة الدخل والصرف. ولكن سوء سياسة أخلافه وأنانيتهم أفسد آثار إصلاحاته. فابن الفرات الذي خلفه في الوزارة أنشأ ديواناً خاصاً (ديوان المرافق) لأخذ جزء من ثروة الموظفين على أساس ارتشائهم بالإضافة إلى ما يحصل من مصادرة علي وأنصاره[(٨٧)]. ولكنه لم يكن مدبراً وسرعان ما وجد نفسه في وسط أزمة مالية. فقد تعهد قبيل استيزاره بدفع ألف دينار للمقتدر وخمسمائة دينار للسيدة والأمراء يومياً. كما إنه زاد في الرواتب مرة أخرى. فوجد الخزينة تقصر عن تنفيذ وعوده. وفوق ذلك كان مبذراً في نفقاته.

---

(٨٣) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٨٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩. وكان علي تقياً يصرف أكثر دخله الشخصي في أعمال البر. فقد كان دخله قبل الوزارة ٨٠,٠٠٠ دينار ينفق منها ٥٠,٠٠٠ دينار لتلك الأعمال. ومع إن دخله في الوزارة ارتفع إلى ٧٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً فإن نفقته العائلية زادت ١٠,٠٠٠ دينار فقط. انظر: Bowen, Ibid., p. 133.

(٨٥) انظر تفاصيل ذلك في: عبد العزيز الدوري، «الجهبذة والصيرفة في العراق في القرن الرابع الهجري،» **القضاء**، السنة ٢، العدد ٥ (١٩٤٣)، ص ٥٨١ وما بعدها.

(٨٦) انظر: المصدر نفسه.

(٨٧) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢، والصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٣١ ـ ٣٢ و٨٦.

فقد صرف في الأشهر الأولى من وزارته كميات كبيرة من المال لاستقبال السفراء البيزنطيين الذي أرسلهم قسطنطين السابق إلى بغداد لعقد الهدنة ولتبادل الأسرى[٨٨]. كما إن ثورة ابن أبي الساج والي أرمينيا وأذربيجان كلفت الدولة نفقات باهظة بالإضافة إلى أن الثائر احتجن أموال مقاطعته وواردات الري[٨٩]. فارتبك الوضع المالي تارة أخرى وشغب الفرسان يطالبون بنفقاتهم. فاضطر ابن الفرات إلى الاستعانة بالخزينة الخاصة[٩٠].

ورفع ثقل الضائقة المالية على علي بن عيسى الذي أشرك مع حامد في الوزارة. فبدأ بعمل تقدير دقيق للوضع المالي، ونظم جريدته المشهورة **قائمة الموارد** سنة ٣٠٦ هـ/ ٩١٨ م معتمداً في تقدير الدخل على آخر سنة مالية تامة (أي سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦ـ ٩١٧ م) بينما أحصى النفقات على الجاري. فوجد عجزاً يزيد على مليوني دينار سنوياً وكان تقديره لسنة اعتيادية. ولكن النفقات للسنين الثلاث الأولى من وزارة حامد لم تكن اعتيادية؛ إذ صرفت مبالغ كبيرة للقضاء على ثورة ابن أبي الساج بينما كلف هجوم الفاطميين على مصر (٣٠٧ هـ/ ٩١٩ ـ ٩٢٠ م) وارد مصر وسوريا لسنتين[٩١]. فاضطر علي إلى الاقتصاد في النفقة، وبدأ بتخفيف الرواتب التي زادها ابن الفرات[٩٢]. فلاقى مقاومة ولا سيما من جانب الهاشميين[٩٣]. كما إنه اتبع سياسته السابقة نفسها بمنع أخذ المرافق على أنها كانت تعتبر من مصادر الدخل؛ إذ إنه اعتقد أن في إلغائها فوائد مادية ومعنوية.

ولنستمع إلى مناظرة ابن الفرات لعلي بن عيسى بعد سقوطه، قال ابن الفرات لعلي: «قد أسقطت من أرزاق أولاد القرابة والحرم والحواشي والخدم والفرسان الذين كنت أوفيهم أرزاقهم في أيامي الأولى والثانية مدة خمس سنين دبرت فيها المملكة، وأخذت من ارتفاع الضياع الملك والاقطاع بعد ما أفرد منها للأمراء ما

---

(٨٨) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣ ـ ٥٥؛ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب الغدادي، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، باعتناء سالمون (باريس: [د. ن.]، ١٩٠٤)، ص ٤٩، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ٦٣ ـ ٦٥.

(٨٩) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 155-156.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(٩١) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨ ـ ٥٠ و٧٥ ـ ٧٦؛ الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi* : **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٢٩٠، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ٧٧، ٧٩ ـ ٨٠ و٨٤ ـ ٨٦.

(٩٢) الصابي، المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٢٩١، و Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 201.

يكون مبلغه ومما كنت أحمله إلى أمير المؤمنين في وزارتي الثانية (وهو كل شهر خمسة وأربعون ألف دينار للمدة المذكورة) الجملة الكبيرة: فإما أن تكون قد احتجنت ذلك لنفسك أو وضعته لتفريطك. فقال له علي بن عيسى. ما استغللته من الضياع ووفرته من أرزاق من يستغني عنه تمت به عجزاً أدخل في الخرج حتى اعتدل الحال، ولم أمدد يدي إلى بيت مال الخاصة. وأما الخمسة والأربعون ألف دينار التي كنت تحملها من المرافق فإنني لم أر ما رأيته أنت قط من اطلاق المرافق للعمال بل حظرتها عليهم علماً بأنها طريق إلى ضياع الحقوق وخراب البلاد، وظلم الرعية. وأنت كنت توصي الحواشي باخراب بيت المال وتحول ما في بيت المال الخاص إلى مال العام»[٩٤]. وهكذا رأى علي في منع الرشا والاعتدال في الضرائب وسيلة لعمارة البلاد وزيادة الدخل. كما إن ضمان حامد للأهواز وأصفهان وما تبعه من مشاكل اقتصادية أدى إلى صدور الأمر بمنع الضمان لرجال السياسة ولضباط الجيش لأنهم أقدر من غيرهم على الظلم[٩٥]. ولم يقم ابن الفرات في وزارته الثالثة بتدبير مالي يذكر[٩٦].

وكان من أثر سوء تدابير الخاقاني في وزارته ارتفاع الأسعار لدرجة كبيرة ولم يستطع الحصول على نفقات للجيش[٩٧]. وفي وزارته عيّن علي بن عيسى بتأثير مؤنس عاملاً على الخراج في سوريا ومصر (سنة ٣١٣ هـ) وكان الوضع المالي سيئاً جداً فيهما. فحاول تنظيم الجباية في كل من القطرين. وقد أدت تدابيره في مصر إلى بعض التذمر؛ إذ إنه فرض الجزية على الرهبان والقساوسة. فاحتجوا إلى المقتدر فصدر الأمر بإعفائهم[٩٨].

أما الخصيبي فقد أخفق في إدارته إخفاقاً ذريعاً. وأنكى من ذلك أنه كان يكثر من تغريم الأغنياء بحجج تافهة ليرضي المقتدر بهدايا يقدمها إلى الخزينة. فلما ضعف هذا المورد سقط[٩٩].

---

(٩٤) الصابي، المصدر نفسه، ص ٢٩١.

(٩٥) وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ٨٤ ـ ٨٥، وابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٧٢ ـ ٧٥.

(٩٦) لم تنصف الوزير الخصيبي حين قال: «كان ابن الفرات نافذاً في عمل الخراج وتدبير البلاد وجباية المال، وافتتاح الأطراف، وأليق من علي بن عيسى في سياسة الملك. وكان علي بن عيسى كثير التدين، شديد التصون، عفيفاً عن المال وله مذهب في الترسل لا يلحق فيه أحد ولا ابن الفرات». انظر: الصابي، المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٩٧) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 248-249.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

ثم جاء علي بن عيسى في وزارته الثانية فوجد المالية في حالة مؤلمة. فحاول تحسين الوضع بأن جعل التقارير المالية تعمل أسبوعياً بدل أن تكون شهرية والحسابات تعمل يومياً. ثم أنقص الرواتب كثيراً، وألغى الرواتب غير الضرورية. ووجد الكتّاب أنفسهم يشتغلون ساعات طويلة لقاء أجور قليلة. فصار علي مكروها يلقى الشتم والسب من البعض علناً ومع كل ذلك لم يعبأ بهم(١٠٠). وطلب من المقتدر أن يهتم بحراسة الخزينة الخاصة بعد أن برهن له أن السرقة قامت بدورها في تفريغها، حيث أظهر له سبحة جوهر ظن المقتدر أنها في الخزينة، بينما وجدها علي في سوق الفُسطاط(١٠١).

وبعد شهور من وزارته جابهته مشكلة نفقات الجيش. فقد اضطرب الفرسان مدة أسبوع، ونهبوا الدور والحوانيت وحتى بعض قصور الخليفة كالثريا ولم يهدأوا إلا بعد أن وعدهم مؤنس بإجابة طلباتهم. فوجد علي أن صاحب ديوان الجيش لم يدفع لهم رواتب عدة شهور، واحتجن لنفسه كميات كبيرة منها. وعندئذ صرف علي صاحب الديوان وكتّابه وصادرهم على كميات كبيرة. واستطاع أن ينفذ وعد مؤنس، فسمح له أن يختار المقاطعات التي يعتمد على واردها لدفع النفقات. وهذا الحادث حمله على إعادة النظر في مرتبات الجيش وأرزاقه(١٠٢).

وكان سبب استقالته أن الجند طلبوا زيادة مرتباتهم فوافق المقتدر على زيادة دينار واحد لكل جندي(١٠٣). ولما عيّن ابن مُقلَة بعده قال علي: «حدث يحب الرياسة، ويراعي يومه دون غده... أليس تدبير الخلافة إلى قوم مبلغ عقولهم أنهم يظنون أن ابن مُقلَة ينهض بما أعجز أنا عنه ويستقل بما أتفادى منه، إنا لله وإنا إليه راجعون. ذهبت والله الأمور»(١٠٤).

وفعلاً اضطربت الأمور بعد استقالة علي، وأصاب الخزينة عجز مزمن، وصارت غير قابلة لأي إصلاح بعده. فسليمان بن الحسن وجد في بيع الضياع السلطانية مورده الأول لسد النفقات، ولكن هذا المورد لم يكف لسد العجز(١٠٥).

---

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩.

(١٠١) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ١٣٠.

(١٠٢) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٢٥٣ و٢٥٩ ـ ٢٦٠، والأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**.

(١٠٣) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 271.

(١٠٤) الصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi*: **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(١٠٥) Bowen, Ibid., p. 299.

والكلواذاني وجد وضعه حرجاً جداً فديوان السواد وبعض الموارد رفعت من إشرافه، ومنعه مؤنس من تعقب بعض المدينين للدولة[١٠٦]. والتجأ إلى الخزينة الخاصة لاقتراض ٧٠,٠٠٠ دينار، فأغضب المقتدر بذلك واضطر إلى تقديم استقالته[١٠٧].

وأخيراً وجد المقتدر في نزاعه الأخير مع مؤنس أنه لا يستطيع دفع نفقات الجيش. ولما استعان بوالدته ادعت أنها لا تملك شيئاً، وهكذا إنهار أساس الدولة المالي ولقي المقتدر حتفه[١٠٨].

رعب مؤنس من مقتل الخليفة إذ كان يشعر بأن سلطانه مرتبط بسلطان سيده[١٠٩]. وأخذ يشعر بأن كل من اشترك في تلك الجريمة سيلاقي خاتمة مريعة[١١٠].

أصبح مؤنس سيد الموقف وتحتم عليه حفظ النظام واختيار خليفة جديد. فأراد مبايعة أبي العباس بن المقتدر، لتقواه، وجودة آرائه ولأن علاقته به كانت حسنة. ولكن جماعته ثنوه عن عزمه، لأنهم أرادوا التخلص من تدخل الحرم بعد أن لاقوا الأمرّين من تدخل السيدة، جدة أبي العباس. وأخيراً وقع الاختيار على القاهر فأجلسه مؤنس على دست الخلافة[١١١].

ولكن مؤنساً لم يرتح لهذا الاختيار، لأن القاهر كان فقيراً جداً، فلم يستطع قبول شروط مؤنس بمنح دراهم البيعة للجيش كما هي العادة[١١٢]. كما إنه كان يختلف عن المقتدر في كل شيء عدا إدمان الشراب. فكان شديد الطمع بينما كان المقتدر كريماً. وكان ثابت الرأي حقوداً، قاسياً، غداراً[١١٣]. وفي سبيل الحصول على الأموال نسي حسنات السيدة، وعذبها بقسوة إلى درجة أنها ماتت بعد أسابيع

---

(١٠٦) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٢١١.

(١٠٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٧ ـ ٢١٩؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢٤٧، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ١٦٤.

(١٠٨) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 318.

(١٠٩) ولذلك أفسد الخطة التي أدت إلى خلعه في المرة الثانية. انظر: المصدر نفسه، ص ٣٢١.

(١١٠) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤١، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(١١١) المصدران نفسهما، ج ١، ص ٢٣٧ و٢٤١ ـ ٢٤٢ وص ١٨٠ ـ ١٨٢ على التوالي، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٨، ص ٧٦.

(١١٢) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(١١٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢٤٠، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢٤٨.

قليلة[١١٤]. بقي على مؤنس بعد اختيار الخليفة، انتخاب وزير يرضاه. فمال إلى علي بن عيسى، ولكن يلبق صرفه عن ذلك، لأن سياسة علي في الاقتصاد لا تصلح لمعاملة الجيش. فأسندها إلى ابن مُقلَة. وفي هذا الدليل الكافي على أن السلطة قد آلت إلى الجيش وأصبح صاحب الحول والطول، وإليه يرجع إبرام كل كبيرة وصغيرة. ولذلك كان الوضع ينذر بالشر.

لم يكن لابن مُقلَة هم سوى المحافظة على مركزه. فسعى إلى جمع الأموال لإرضاء الجيش واستمالته، بأتباعه سياسة المصادرة على نطاق واسع لأتفه الحجج لدرجة أنه أغضب مؤنساً أكثر من مرة[١١٥].

وسرعات ما ساءت العلاقة بين الخليفة والمحيطين به. فإن أتباع المقتدر ظهروا من جديد ومنهم محمد بن ياقوت الذي لاحظ تسلط مؤنس وأنصاره. فحاول التقرب من الخليفة، وكسب ثقته فوفق إلى ذلك، فأوجس ابن مُقلَة خيفة من هذا الحادث، ووشى إلى مؤنس بأن الخليفة ومحمد يتآمران ضده. فهرب ابن ياقوت وبقي الخليفة شبه سجين في قصره، يحيطه الحرس لئلا يسمح للخليفة بالاتصال بأنصاره. وشددت الرقابة عليه لدرجة أن أواني الطعام كانت تفحص قبل إدخالها.

ضاق القاهر بهذا الوضع ذرعاً وحاول التخلص منه. فاستغل الخصومة الداخلية في الجيش. فمؤنس بتقريبه يلبق وابنه علي أغضب اثنين من كبار أنصاره أحدهم طريف السبكري. هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى كان الساجية غير راضين عن مؤنس لأنه لم يحقق وعده بزيادة رواتبهم. وعلى الرغم من شدة المراقبة على القصر بدأت المؤامرة.

ولكن التحريض بدأ من الجهة الثانية؛ إذ اكتشف ابن مُقلَة أن القاهر قرر عزله وتولية محمد بن القاسم (أبي الحسن) محله. وعندئذٍ ألح على أصحابه بعزل القاهر وتولية ابن المكتفي (محمد) الخلافة. فوافق يلبق وابنه وأقسما يمين البيعة سراً. وأخيراً وافق مؤنس ودبرت خطة التنفيذ وهي أن يقوم علي بن يلبق بمقابلة الخليفة وسط الليل بحجة أن القرامطة هاجموا الكوفة وأنه جاء يطلب تفويضاً من الخليفة. وبهذه الوسيلة يلقي القبض عليه[١١٦]. إلا أن الخليفة اكتشف المؤامرة ودعا الساجية إلى

---

(١١٤) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٨٣، و Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 323.

(١١٥) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٨٥، وابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(١١٦) Bowen, Ibid., pp. 327-328.

القصر سراً. فأخفق علي بن يلبق واختفى، ثم جيء به بعد أيام قلائل فجلد وسجن بعد أن غرم. ثم قبض على يلبق نفسه وأودع السجن مع ابنه وعندئذ أدرك ابن مُقلَة حراجة الموقف فاختفى هو وكتّابه ثم التفت الخليفة إلى مؤنس وأراد القبض عليه فأرسل يطلب مقابلته مدعياً بأنه الخليفة لا يستغني عن مشاورته وسداد آرائه. وتردد مؤنس أولاً ثم جاء. فلقي ما لقي يلبق وابنه[١١٧]. وصدرت الإرادة بقتل الثلاثة عندما شغب أتباع مؤنس بعد أسابيع يطالبون بإطلاقه (شعبان ٣٢١ هـ/ آب/ أغسطس ٩٣٣ م) وتنفس القاهر الصعداء وأراد أن تكون سلطته حقيقية. فاستوزر محمد بن القاسم، وقتل ابن المكتفي بفظاعة ولقّب نفسه «المنتقم من أعداء الدين»، ودفع للجيش رواتبه. وبذا تحقق لديه أن سلطته أصبحت حقيقية[١١٨].

ويظهر أن نشوة الفوز على خصومه أنسته الأخطار الباقية. فابن مُقلَة لا يزال حراً وطريف الذي ساعده على تقوية مركزه عومل ببرودة ثم سجن كما إنه أهمل الساجية وعامل رؤساءهم بقسوة لئلا يتحكموا فيه[١١٩]. ونحي محمد بن القاسم عن منصبه واستوزر الخصيبي آخذاً برأي طبيبه عيسى، (ذو الحجة ٣٢١ هـ/ كانون الأول/ ديسمبر ٩٣٣ م). واتبع طرقاً بلغت الغاية في القسوة والفظاعة في مصادرات الناس، مما أثار حنق البغداديين عليه[١٢٠]. وكان لزهده في معيشته أثر حسن وقتي، ولا سيما عندما أمر بمنع الخمور ونفي المغنيات. ولكن انقلاب الشعوب كان عنيفاً عندما عرف أنه سكير وأن أوامره كانت لتقليل سعر الشراب الذي كان مستهتراً به[١٢١].

وصار ابن مُقلَة ينتهز الفرص للدس على الخليفة. فلما عرف أنه بنى غرفاً تحت الأرض في قصره (ادعى الخليفة أنها بنيت لتكون حمامات للنساء) أشاع بأنها مطابق ليسجن بها الخليفة أعداءه. وقويت الإشاعة عندما سجن القاهر بها بعض القرامطة. واستعمل ابن مُقلَة منجماً ليقنع أحد رؤساء الساجية سيما بأن القاهر يريد القبض عليه. ثم إن الحرس الحجرية أعداء الساجية، تذمروا من تصرفات القاهر وتفاوضوا مع أعدائهم واتفقوا معهم، ثم أجمعوا أمرهم (٦ جُمادى الأولى ٣٢٢ هـ ـ ٢٤ نيسان/

---

(١١٧) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٤ و٢٦٦؛ ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٨، ص ٧٩ ـ ٨٢، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(١١٨) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ و٢٦٨.

(١١٩) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٨٢.

(١٢٠) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢.

(١٢١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، وعريب بن سعد الكاتب القرطبي، **صلة تاريخ الطبري**، ص ١٨٣ ـ ١٨٥.

أبريل ٩٣٤ م) وأحاطوا بالقصر فجأة. ولما أسرع الوزير والحاجب لتنبيه الخليفة للخطر وجداه ثملاً. ولم يفق إلا بعد فوات الأمر فألقي القبض عليه وسجن(١٢٢).

وهكذا ذهب القاهر ضحية طغيان الجيش وتكالب رؤسائه وجشعهم. وجيء بأبي العباس بن المقتدر ـ وكان سجيناً ـ فبويع ولقب بالراضي. وأجبر القاهر على التنازل عن الخلافة ثم سملت عيناه وبهذا سقط آخر حق من حقوقه.

رغب الراضي في استيزار علي. ولكن هذا اعتذر لضعفه وكبر سنه. فأسندها إلى ابن مُقلَة الذي تمكن من إغراء رؤساء الساجية ولا سيما (سيما الشرابي) بكمية من المال وتعهد بدفع نصف مليون دينار عطايا للبيعة(١٢٣).

وفي هذا الوقت استقل البويهيون في فارس، وظهر البريديون (وأشهرهم أبو عبد الله البريدي)(١٢٤)، وتمكنوا بواسطة صداقتهم لابن مُقلَة وبخبث أساليبهم من التدرج من جباة عاديين إلى حكام بيدهم خوزستان يحكمونها حكماً مستقلاً. وكانوا مثلاً للظلم والإرهاق في الجباية(١٢٥). وفي هذا الوقت صار لابن رائق مركز مهم. فقد كان من مؤيدي القاهر فكافأه بولاية البصرة. وترضاه ابن مُقلَة بعد اخفاقه في الحصول على الحجابة بإسناد قيادة الجيش والشرطة في واسط إليه. فصار شخصية يقام لها ويقعد، كما إن الحسين بن أبي الهيجاء الحمداني تنفذ في منطقة الموصل وديار ربيعة لدرجة أنه قتل عمه سعيداً الذي ولاه الخليفة على الموصل أملاً بالحصول على بعض الدراهم من ديار ربيعة. وتمكن من إرشاء ابن مُقلَة قائد الحملة المرسلة لإخضاعه، وحصل على تولية من الخليفة وفشل المشروع(١٢٦).

أما ابن مُقلَة فقد وجد نفسه في حالة مالية حرجة، لسوء الإدارة والتدبير، وحاول الاقتراض من التجار على الحاصل الجديد فلم يفلح لعدم تمكنه من إرضائهم. هذا بالإضافة إلى أن حملة الموصل كلّفته كثيراً. وزاد الوضع سوءاً ابن رائق الذي احتجن وارد البصرة وواسط انتقاماً لعدم تعيينه حاجباً، آملاً من وراء ذلك إقالة الوزير فيحل محله.

وفعلاً عزل ابن مُقلَة (١٦ جُمادى الأولى ٣٢٤ هـ/ ١١ نيسان/ أبريل ٩٣٦ م).

---

(١٢٢) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 323-325.

(١٢٣) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(١٢٤) سموا كذلك لأن جدهم كان صاحب بريد البصرة.

(١٢٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٧، ٢٧٠، ٢٧٣ ـ ٢٧٤، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٩ ـ ٣٢١ و ٣٣٩ ـ ٣٤٨.

(١٢٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٧ و ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

ولكن عزله كان نتيجة لدسائس ابن ياقوت. ثم وقع اختيار الجيش على علي بن عيسى[(١٢٧)].

رفض علي الوزارة، وأخيراً اقترح أن يُستوزر أخوه عبد الرحمن على أن يساعده هو فقبلت التسوية. ولكن الأزمة المالية وصلت حداً بعيداً من السوء فبينما انحصرت سلطة الخليفة في بغداد وحواليها، لم تنقص النفقات الإمبراطورية، وبانت استحالة موازنة الدخل والخرج واشتدت الأزمة في رجب ٣٢٤ هـ/ حزيران/ يونيو ٩٣٦ م حين اضطر عبد الرحمن إلى طلب قرض من الخليفة مقداره ١٠,٠٠٠ دينار فغضب الخليفة وأمر بسجن الأخوين وأغرمهما[(١٢٨)].

واستوزر الكرخي المشهور بقصره[(١٢٩)] ولكن لم يجد مخرجاً من الأزمة، بل إنه لم يستطع الاستفادة من الموارد التي كانت لديه بصورة كافية، إذ وجدت بعد عزله صكوك لم تصرف. وبقي في الوزارة ثلاثة شهور. ثم استوزر الراضي سليمان بن الحسن. ولكنه أدرك استحالة استمرار الوضع لانفصال الولايات، وأخيراً اضطر الخليفة إلى قبول اقتراح ابن رائق وهو أن يقوم بتجهيز النفقات العامة، ودفع رواتب الجيش إن عهدت إليه القيادة والإدارة العامة[(١٣٠)].

لقب ابن رائق أمير الأمراء، وصارت بيده رئاسة الجيش، وامتدت سلطته بصورة مباشرة إلى جباية الضرائب وعلى إدارة الحكومة المركزية وغدا اسمه يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعية.

---

(١٢٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٠ و٣٢٩ ـ ٣٣٢.

(١٢٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨، والصابي، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al-Sabi* : **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

(١٢٩) قيل إن قوائم العرش أنقصت حوالى أربعة انجات ليعطيه الخليفة التحدث مع وزيره.

(١٣٠) اقترح ابن رائق قبيل سقوط ابن مُقلَة بأنه إن عيّن وزيراً فإنه يتعهد بدفع كل النفقات وعلاوة على ذلك يخصص للخليفة مخصصات كافية. فلم يقبل الخليفة آنذاك بالاقتراح، ولكن ابن مُقلَة تخلى الآن عن طلب الوزارة لأنه أدرك تغير الوضع. انظر: Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 321-322.

الفصل الثامن

البويهيـــــــون



الخطة:

١) مقدمة جغرافية إثنولوجية

٢) نشأة البويهيين

أ) مبدأ أمرهم وتوسع نفوذهم حتى فتح بغداد

ب) أصلهم

٣) سياستهم في العراق

أ) علاقتهم بالخليفة

ب) سياستهم المالية

٤) أسباب تدهورهم

أ) الخصومة بين أفراد الأسرة المالكة

ب) الجيش وأسباب أخرى

٥) الأثر الاقتصادي والاجتماعي للبويهيين

أدى توسع الديلم في القرن الرابع إلى أن يدخل الجغرافيون تحت كلمة الديلم مجموعة الأراضي المحيطة ببحر الخزر والتي تحدها خرسان من الشرق والجبال من الجنوب وأذربيجان من الغرب. أما بلاد الديلم الأصلية فهي منطقة البكائنة بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر[1]. ويسكن الديلم الأراضي الجبلية على الجهة الشمالية لجبال البرز بين نهر سفيد رود ونهر شالوس الذي يصب في البحر على مسافة ١٨٠ كيلو متراً إلى الشرق من سفيد رود[2]. ولعل الديالمة ينتسبون إلى أقوام غير

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حققه ميخائيل جان دوغويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٣ (ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٧٦)، ص ٣٥٣، و**حدود العالم من المشرق إلى المغرب** (طهران: دانكشاه طهران، ١٣٤٠هـ/ ١٩٦٢م)، ص ١٣٣ و٣٨٤.

(٢) V. Minorsky, *La Domination des dailamites* (Paris: [s. n.], 1932).

إيرانية كانت تسكن في مناطق بحر قزوين في الزمن القديم، وفي العصر العربي كانت لغتهم لهجة إيرانية شمالية تختلف عن الفارسية التي هي لهجة جنوبية وبالأخص لهجة مقاطعة فارس، ولكن أغلبية الديلم كانوا قد أصبحوا إيرانيين بمعنى الكلمة في العصر الإسلامي[٣]. ويظهر أن الديالمة كانوا ينقسمون اجتماعياً وأثنولوجياً إلى الأستانية «الذين يسكنون الأوعار والحصون والجبال من بلاد الديلم» واللانجية الذين «يسكنون صحارها والسهل من بلادها»[٤].

وكان نظام الديلم الاجتماعي يستند إلى سلطة رؤساء العوائل. ثم جاء الحسن الأطروش فقضى على هذا النظام الأرستقراطي القديم والذي يرتكز على سلطة الكاتخدا (رب البيت) واستبدله بنظام التعاون بين مختلف طبقات الشعب وبذلك أفسح المجال للطبقات الواطئة أن تتقدم[٥]. أما دين الديالمة فيشوبه الغموض. فقد تخللت بلادهم الزرادشتية، ولعل المسيحية قد دخلتها أيضاً. والمسعودي يصرح بأنه يوجد في الديلم أناس على جهل بكل الأديان المعتبرة[٦].

ولقد لاحظ المسلمون عندهم بعض العادات الغريبة فالمقدسي يبيّن أنهم يحصرون الزواج بينهم داخل القبيلة[٧].

وكانت منزلة النساء حسنة عندهم. يقول ابن مسكويه: «وكن يجرين مجرى الرجال في قوة الحزم وأصالة الرأي والمشاركة في التدبير»[٨]. ويتحدث الكتاب عن شدة حزنهم ومبالغتهم في العويل على الأموات[٩]. ولم يكونوا متحضرين كبقية

---

(٣) المصدر نفسه.

(٤) أبو العلاء محمد بن علي بن حسول، **تفضيل الأتراك على سائر الأجناد**، باعتناء عباس العزاوي (استانبول: [د. ن.]، ١٩٤٠)، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٥) يقول البيروني عن الحسن أنه «أعاد اشتراك المردة مع الناس في الكذخداهية». انظر: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، تحقيق إدوارد ساخو (ليبزج: [د. ن.، ١٨٧٨])، ص ٢٢٤.

(٦) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، النص العربي مع الترجمة الفرنسية بقلم ك. باربيه دو مينار وبافيه دو كورتبي، ٩ ج (باريس: المطبعة العسكرية الإمبراطورية، [١٨٦١ ـ ١٨٧٦])، ج ٩، ص ٤، وج ٨، ص ٢٧٩.

(٧) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ٣٦٨. وللديلم رسوم عجيبة لا يزوجون إلى غيرهم.

(٨) أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، وقد اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ. ف. آمدروز، ٧ ج (القاهرة؛ أكسفورد: [د. ن.]، ١٩٢٠ ـ ١٩٢١)، ج ٣، ص ٣١٣.

(٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٦٩، و Minorsky, *La Domination des dailamites*, p. 5.

الإيرانيين. «وكانت الفرس تسمي الديلم أكراد طبرستان»[10]. وكان البغداديون يحقرونهم ويرونهم جهالاً خشنين. يقول التنوخي: «كان الناس يتمثلون إذا ظلموا فيقولون أي شيء خبرنا، في يد الديلم نحن أم في يد الأتراك؟»[11]. ويقول المقدسي عن الديلمان: «لا ترى لهم لباقة ولا علم ولا ديانة»[12]. ولكن الديلم اشتهروا بالشجاعة؛ فالمقدسي يقر بأنهم أصحاب «دولة ورجلة وهيبة»[13].

ويشيد صاحب **حدود العالم** بشجاعتهم وبقابليتهم الحربية ويبيّن أنهم يستعملون الدروع والسيوف القصيرة في القتال[14]. واشتهروا بجمال وجوههم وشعورهم[15]. وكان عامتهم أكرة وفلاحين[16].

٢ ـ وقد ساعدت وعورة البلاد على صعوبة إخضاعها وكان الساسانيون قد جعلوا قزوين الحصن الأكبر ضد الديالمة كما كانت قلعة شالوس (Tchalus) ذات أهمية كبيرة أيضاً فجعلهما المسلمون نقطتي ارتكاز ضد الديالمة. ولكن هؤلاء لم يظهروا أمارات الخضوع أبداً. فلم تكن للحملات المتعددة التي أرسلت ضدهم نتائج ثابتة. ولم يكن المسلمون يجهلون جغرافية جبال الديلم جهلاً تاماً. فيروي أن الحجاج أحضر خارطة للديلم وأظهرها لرؤساء الديالمة ليبيّن لهم عبث المقاومة ما دامت أسرار بلادهم معروفة. ولكنهم نظروا إليها بشيء من عدم الاكتراث وأجابوا بأن الخارطة ناقصة إذ لا يرى فيها الفرسان التي تحرس الجبال[17]. وقد بقي سكان الديلم وجيلان وثنيين أو زرادشتية حتى قبيل القرن الثالث للهجرة[18]. ثم تغلغل الإسلام في الديلم بطريقة سلمية؛ إذ التجأ إليها بعض العلويين الزيدية (١٧٥ هـ/ ٧٩١ م) هرباً من الاضطهاد السياسي فقوبلوا حلفاء حتميين ضد خلفاء بغداد.

---

(١٠) حمزة بن الحسن الأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء** (بيروت: دار مكتبة الحياة، [١٩ ـ ؟])، ص ١٥١.

(١١) أبو علي المحسن بن علي التنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، باعتناء مرغليوث (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣١)، ج ١، ص ١٥٧، و Harold Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»* (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1928), p. 35.

(١٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ٣٥٥.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، ص ١٧٣.

(١٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٦٠ و٣٦٨.

(١٦) التنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، ج ١، ص ١٥٧، و**حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، ص ١٧٣.

(١٧) Minorsky, *La Domination des dailamites*, p. 5.

(١٨) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 306.

وبعد سنة ٢٥٠/ ٨٦٤ قام هؤلاء الأئمة بدور هام وخلقوا من الديلم مركزاً جديداً للمقاومة، معادياً لبغداد ولأمراء خرسان (الذين حاولوا مد نفوذهم على مقاطعات بحر قزوين) على السواء[١٩]. وبالتدريج أنتجت الدعاية العلوية ما عجز عنه السلاح وهو تحويل أكثرية الديلم إلى الإسلام على المذهب الزيدي. كما إن الأئمة أنفسهم قد تديلموا وجعلوا قضية السكان المحليين قضيتهم.

وما دام الديالمة يقاومون دخول الإسلام فإن بلادهم كانت تعتبر دار حرب، وهذا يجعل للمسلمين حق تنظيم الحملات ضدهم للحصول على الرقيق. إلا أن الناصر حسن بن علي الأطروش وضع حداً لهذه الأعمال وهدم قلعة شالوس (٣٠٢/ ٩١٤) الموجهة ضد الديالمة.

ولحماية حق الديالمة في المراعي المشتركة التي أراد الطاهريون الاستيلاء عليها[٢٠] تحالف العلويون أول الأمر مع الأمراء المحليين (العائلة الجستانية)[٢١]. ومن الديلم قاد الأئمة حملات خلال مناطق بحر قزوين وهكذا عوّدوا الديالمة على فكرة التوسع وجعلهم يشعرون بقوتهم. كما إن انتشار الإسلام بينهم أثار روح المغامرة فيهم[٢٢].

وأخيراً نرى العلويين حوالى (٣٠٢/ ٩١٤) يصبغون حركتهم بصبغة شعبية ويثيرون الأهالي ضد الأمراء الجستانيين ويتسلمون السلطة بيدهم[٢٣].

وقد انقسم العلويون على أنفسهم بعد وفاة الأطروش لأنه استخلف نسيبه الحسن بن القاسم الداعي إلى الحق فأسخط أبناءه.

ونشبت الحرب بين مدعي خلافته، وكان كل منهم يحاول استخدام الديلم لشجاعتهم[٢٤]، فظهروا بسلسلة من الشيوخ المحاربين في خدمة العلويين وتقدمت لبدء احتلال إيران الغربية والجنوبية. ومما فسح المجال لهؤلاء الشيوخ أن الخصيبي دعا ابن أبي الساج سنة ٣١٥ هـ من أذربيجان لمحاربة القرامطة؛ فمانع ابن أبي الساج

---

(١٩) الحسن بن زيد: ٢٥٠ ـ ٢٧٠ هـ، أخو محمد بن زيد: ٢٧٠ ـ ٢٨٧ هـ، حسن بن علي الأطروش ٣٠١ هـ ـ ٣٠٤ هـ والحسن بن القاسم: ٣٠٤ ـ ٣١٦ هـ. انظر التفاصيل في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢٠) W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, translated from the Original Russian and revised by the author with the assistance of H. A. R. Gibb, E. J. W. Gibb Memorial Series, New Series; V, 2nd ed. (London: Luzac and Co., 1928), p. 214, and Bowen, Ibid., p. 308.

(٢١) انظر: ابن حسول، **تفضيل الأتراك على سائر الأجناد**، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٢٢) Bowen, Ibid., p. 306, and Minorsky, *La Domination des õailamites*, pp. 7-8.

(٢٣) Minorsky, Ibid., p. 8.

(٢٤) انظر التفاصيل في: Bowen, Ibid., pp. 307-311.

منذراً بالخطر وقد جاء في جوابه: «أنا في ثغر أعظم من ثغور الروم وبإزاء سد أحصن من سد يأجوج ومأجوج وإن أخللت به انفتح منه أعظم من أمر القرامطة ولم يؤمن أن يكون سبباً لزوال المملكة في سائر النواحي». فلم يصغ أحد إلى إنذاره وكانت نتيجة ذلك وخيمة[٢٥] فظهر من الديلم أولاً ليلي بن نعمان سنة ٣٠٨ ـ ٩٢٠ الذي استولى على نيسابور ولكن السامانيين قضوا عليه في السنة التالية. ثم ظهر في خدمة العلويين قائد شجاع اسمه ماكان بن كاكي الذي فتح آمل وطرد خصمه أسفار بن شيرويه منها. ثم أخذ الري من السامانيين، ودخلوها مع سيده الداعي. فاستغل أسفار بن شيرويه فرصة ترك ماكان لطبرستان فهاجمها وقتل الداعي مدافعاً عن آمل وطرد ماكان من الري.

وكان أسفار شخصية عسكرية خشنة كما إنه «كان لا يدين بملة الإسلام»[٢٦] وقد رمى المؤذن من قمة المنارة في قزوين عند الأذان. ولم يطل أمد انتصاره إذ إن سوء إدارته وظلمه للرعية أدى إلى التذمر فقام ضده قائده مرداويج بن زيار وبالتحالف مع ماكان طرده من الري وهزمه وقتله. ثم أصبح مرداويج ضد ماكان وطرده من طبرستان[٢٧]. وصار بيده طبرستان وجُرجان والري وشمال الجبال وأخيراً فتح همدان وهزم جيوش الخليفة فيها ونهبها[٢٨].

وكان مرداويج إيرانياً بميوله طموحاً. فكان يقول: «أنا أرد دولة العجم وأبطل ملك العرب»[٢٩]، وهو مؤسس السلالة الزيارية التي امتد نفوذها غربي إيران حتى الأهواز ولكنها استقرت مؤخراً في منطقة جرجان غرب استراباد. وأصل الزياريين من جيلان إلا أنهم كانوا أقرباء الديالمة، وكانت العائلة الزيارية (حتى ٤٢٨ ـ ١٠٢٩) أول سلالة إيرانية ثبتت مركزها غرب السامانيين.

إن تعاقب عدد من الرؤساء الديالمة على المسرح بعد سنة ٩١٠م يدل على القوة الكامنة في بلاد الديلم، وهي التي أدت أخيراً إلى ظهور أهم سلالة ديلمية وهي السلالة البويهية[٣٠].

---

(٢٥) التنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، ج ١، ص ١٥٦.

(٢٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٩، ص ٨ و١٠.

(٢٧) ثم انتقل ماكان إلى خدمة السامانيين وسقط أخيراً في ثورة ضد سادته الجدد سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م.

(٢٨) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, pp. 308-311, and Minorsky, *La Domination des dailamites*, p. 9.

(٢٩) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ/[١٩٣٨ ـ ١٩٣٩])، ج ٦، ص ٢٦٨.

(٣٠) Minorsky, Ibid., p. 9.

كان مؤسسو الدولة البويهية الأخوة الثلاثة علي (وهو فيما بعد عماد الدولة) وحسن (ركن الدولة) وأحمد (معزّ الدولة) وأبوهم أبو شجاع بويه ومنه اشتق اسم العائلة. وكان صياداً فقيراً على بحر قزوين[٣١] ويقطن في قرية كياكليش (Kiyakalich) في الديلم[٣٢]. وبعد نجاحهم وُضع لهم نسب يتصل بالملك الساساني بهرام جور أو بوزيره مهر نرسي[٣٣] ويذكر ابن حسول أن أبا اسحق الصابي نسبهم في كتابه **التاجي** الذي كتب لتمديد البويهيين بأمر عضد الدولة وبإشرافه إلى بني ضبة في العرب[٣٤] وفي الوقت نفسه إلى بهرام جور[٣٥].

كان الأخوة الثلاثة جنوداً مغامرين جربوا حظهم في خدمة ماكان فارتفع علي أكبر الأخوة بعبقريته الحربية إلى مركز هام وعندما دحر ماكان على يد مرداويج وانتقل إلى خدمة السامانيين اتضح أنه لا يستطيع القيام بنفقات جيش واسع. فطلب الأخوة منه بصراحة أن يسمح لهم بترك خدمته قائلين: «الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مؤنتنا ويقع كلنا على غيرك. فإذا تمكنت عاودناك»[٣٦]. وانتقلوا إلى خدمة مرداويج. وتميز عليّ بسرعة فولي على كرج سنة ٩٣٢ (بين أصفهان وهمدان) وأظهر كياسة في الإدارة وأحبه سكان المنطقة والعمال المحليون. فثارت شكوك مرداويج وعندئذ رأى علي أن من الحكمة أن يجمع ضرائب المنطقة لمدة سنة ويسير جنوباً إلى أصفهان. وفكر في دخول خدمة الخليفة، ولكن والي المنطقة المظفر بن ياقوت رفض، فاستطاع علي بحذقه الاستيلاء على أصفهان ودحر الوالي[٣٧].

فاغتاظ مرداويج وأرسل أخاه واشمكير ضد أصفهان فتراجع علي غرباً إلى أرجان واحتلها سنة ٣٢١/٩٣٣ ثم استطاع أن يحوز نصراً باهراً على والي الخليفة على

---

(٣١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٦٩. وينسب إلى قبيلة شيرزيل آفند حمزة الأصفهاني يسمير أشيرذيل آوند. انظر: الأصفهاني، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، ص ١٥٣، و Minorsky, Ibid., p. 9.

(٣٢) Minorsky, Ibid., p. 9.

(٣٣) انظر: المصدر نفسه، ص ٩؛ ابن حسول، **تفضيل الأتراك على سائر الأجناد**، ص ٣٥؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة «بويهيون»، و Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 339. والمنتظم ينسبهم إلى سابور ذي الأكتاف. انظر: ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٧٠.

(٣٤) ابن حسول، المصدر نفسه، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٣٥) ويعلق ابن حسول قائلاً: «فأول ظلم في الصابي.. أن نسب ذلك الوالي إلى نسب مجهول ووقفه موقف مغرور مغمور. ثم تناسى ما أوجب له من النسبة العربية حتى نزح به إلى الدوحة الفارسية في بهرام جور ومعلوم تباين العرب والعجم في أنسابهم». انظر: المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٣٦) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣٧) كان أتباع الوالي ٤٠٠٠ وأتباع علي ٧٠٠ ولكن مرتزقة الوالي كانوا من الديلم فانضموا إلى علي وخاصة أنه كوّن له سمعة طيبة، فانتصر على خصمه. انظر: Minorsky, *La Domination des dailamites*, p. 10.

مقاطعة فارس سنة ٩٣٤. وفي سنة ٣٢٢ ـ ٩٣٤ تمكن أحمد بن بويه وكان عمره حوالى تسعة عشر عاماً من احتلال كرمان. ومنذ ذلك الحين لم يبق بيد الخلافة إلا حدود إيران الغربية، ففي خراسان كان السامانيون، وفي الري وأصفهان كان الزياريون وفي الجنوب كان الأخوة البويهيون[٣٨].

ولم يرتح مرداويج بل قرر ضرب علي بن بويه. ولمهاجمته من جهتين أرسل جيشاً إلى خوزستان فهزم ياقوتاً والي الخليفة ولكن علياً فاوض مرداويج قبل أن يأتي ضده وقدم له الطاعة وأرسل أخاه الحسن كرهينة وأرسل الهدايا فرضي مرداويج.

ولما فتح مرداويج خوزستان بهذه السهولة فكر في مشروع أخطر إذ قرر فتح بغداد والقضاء على الدولة العباسية وإنشاء مملكة على الطراز الساساني مركزها طيسفون. وكان يقول: «أنا أرد دولة العجم وأبطل ملك العرب»[٣٩]، ولكن حكم مرداويج لم يدم طويلاً لأنه كان شكس الطبع سيّئ الأخلاق قاسياً. كما إنه بتقريبه الديلم أزعج الأتراك في جيشه فقتله الترك في عيد السذق سنة ٣٢٣/ ٩٣٥، وانهارت بموته مشاريعه العظيمة. ورجع الحسن بن بويه إلى أخيه[٤٠].

وانتهز البويهيون الفرصة فاحتلوا أصفهان والري. ثم استمر توسعهم نحو الغرب، ومنذ سنة ٣٢٦ ـ ٩٣٧ دخل أحمد الأهواز واحتفظ بها برغم المقاومة التي لاقاها. ثم ازداد طموح البويهيين، ففي سنة ٣٢٨ ـ ٩٣٩ نسمع لأول مرة بأن أكبر الأخوة يريد التوجه لفتح العراق. ثم إن الأخ الأصغر أحمد هاجم ممتلكات الخليفة خمس مرات بين (٩٤٢ ـ ٩٤٥) متخللاً كل مرة إلى أبعد من سابقتها في العراق. وفي العراق انحلت أسرة البريديين في الجنوب (البصرة)، ومات أمير الأمراء توزون بالصرع، وتآمر عامل واسط مع أحمد بن بويه للتقدم إلى العاصمة والتي كانت تشكو الفوضى وسوء الإدارة والأزمة المالية. فهرب الأتراك شمالاً عند سماعهم بمقدمه ودخل أحمد بن بويه في مخابرات سرية مع الخليفة ودخل بغداد (دون مقاومة) في ١٧ كانون الثاني/ يناير سنة ٩٤٦[٤١].

ودخل أبو الحسن أحمد بن بويه على الخليفة «وأخذت عليه البيعة للمكتفي

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٣٩) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٢٦٨.

(٤٠) Bowen, *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*, p. 342, and Minorsky, *La Domination des dailamites*, p. 10.

(٤١) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢ ص ٨٤ـ ٨٥، و Minorsky, Ibid., p. 12.

واستحلف له بأغلظ الإيمان ولخواصه وحلف المكتفي لأبي الحسين بن بويه وأخويه وكتب بذلك كتاباً ووقعت فيه الشهادة عليهما».

وخلع الخليفة على أبي الحسين وطوّقه وسوّره وعقد له وجعله أمير الأمراء[٤٢] ولقّبه معزّ الدولة، ولقب علياً بعماد الدولة، ولقّب حَسناً برُكن الدولة.

٣ ـ أ) وظهر التبدل كمجرد استبدال أمير بأمير. نعم، كان العصر البويهي متمماً لعصر أمير الأمراء في اتجاهاته، إذ إن البويهيين اتخذوا هذا اللقب وحلّوا محل الأمراء السابقين وبقي الخليفة شبحاً وساد الاتجاه العسكري في مؤسسات الدولة[٤٣]. ولكن بعض الأوضاع الجديدة جعلت وضع الخلافة ينتقل من سيّئ إلى أسوأ. فقد جاء البويهيون على رأس جيش أجنبي وأنشأوا إمارة وراثية وكانوا شيعة زيدية[٤٤]، لا يعترفون بحق العباسيين في حكم العالم الإسلامي[٤٥]. ولم يبق البويهيون الخلفاء العباسيين إلا لاعتبارات سياسية[٤٦].

فقد أراد معزّ الدولة نقل الخلافة إلى أبي الحسن محمد بن يحيى الزيدي فحذّره خواصه من سخط الناس ومخالفتهم لأن «عامة الناس في الأقطار.. قد اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا بدولتهم وأطاعوهم طاعة الله ورسوله ورأوهم أولي الأمر»[٤٧]. وبيّنوا له مزية كون الخليفة عباسياً «فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه». وبيّنوا له الخطر على مركزه في حالة تعيين خليفة علوي قائلين: «ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ـ كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه»[٤٨]، وأن السلطة ستصبح بيد الخليفة أما هو فسيكون مجرد تابع «إذا بايعته..

---

(٤٢) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٣٤٠.

(٤٣) انظر: ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٥.

(٤٤) يقول ابن حسول: «والغالب على الديالم التشيع فإنهم أسلموا على أيدي الناصرية «وهم زيدية»». انظر: ابن حسول، **تفضيل الأتراك على سائر الأجناد**، ص ٣٢.

(٤٥) الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٠ هـ/ [١٨٧٣ م])، ج ٧، ص ١٤٩.

(٤٦) جاء في مادة البويهيين (Buwayhids) ما يلي: «But for these wild warriors, religious questions were of quite subordinate importance».

انظر: «Buwayhids,» in: *Encyclopedia of Islam.*

(٤٧) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الجماهير في معرفة الجوهر**، باعتناء ف. كرنكو (حيدر آباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٥هـ/[١٩٣٦م])، ص ٢٣ ـ ٣٣.

(٤٨) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٤٩.

أطاعه الديالمة ورفضوك وقبلوا أمره فيك»[٤٩]. فأعرض الأمير عن عزمه وفضل أن يستبد في ظل شبح خليفة على أن يكون تابعاً لخليفة يستصوب إمامته. وبمجيء البويهيين انحط مركز الخليفة من سيِّئ إلى أسوأ وفقد بقية الحرمة والنفوذ التي كانت له في تسيير دفة الدولة. «وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع ويعتقدون أن العباسيين غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة»[٥٠] وسرعان ما ظهرت قلة احترام البويهيين للخلفاء العباسيين؛ فبعد اثني عشر يوماً من دخول البويهيين بغداد (الخميس ٢١ جمادى الآخرة ٣٣٤ ـ ٢٩ كانون الثاني/ يناير ٩٤٦) خلع معزّ الدولة المستكفي لأنه اتهمه بالتآمر مع قواده ضده، وبمحاولته الاستنجاد بالحمدانيين، كما إنه لم يرض عن قبضه على رئيس الشيعة[٥١]. وكان الخلع بصورة مزرية؛ إذ تقدم ديلمان إلى الخليفة وهو في مجلسه ومعزّ الدولة حاضر «فجذباه وطرحاه إلى الأرض ووضعا عمامته في عنقه وجراه فنهض حينئذ معزّ الدولة واضطرب الناس». وساق الديلمان المستكفي بالله إلى دار معزّ الدولة واعتقل فيها ونهبت دار السلطان حتى لم يبق فيها شيء «وأحضر معزّ الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر وخاطبه بالخلافة ولقب المطيع بالله»[٥٢]. ولما هاجم ناصر الدولة الحمداني بغداد سنة ٣٣٥ هـ «يخاصم عن الخليفة» سجن معزّ الدولة الخليفة. فلما أخفقت حملة ناصر الدولة «استحلف (معز الدولة) المطيع لله أنه لا يبغيه سوءاً ولا يمالىء عليه عدواً ثم أزال التوكيل عنه وأعاده إلى داره»[٥٣]. وفي ١٩ رمضان سنة ٣٨١/ ٩٩١ طمع بهاء الدولة بأموال الطائع وأخذ أملاكه[٥٤]. ونفذ ذلك بطريقة فظيعة؛ إذ زار الخليفة وبينما هو جالس تقدم أصحابه «فجذبوا الطائع بحمائل سيفه من سريره، وتكاثر الديلم فلف في كساء وحمل إلى بعض الزبازب وأصعد إلى الخزانة في دار المملكة». ثم خلع[٥٥].

(٤٩) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٨٧ (الحاشية).

(٥٠) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٤٩.

(٥١) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٦، و Minorsky, *La Domination des dailamites*, pp. 12-13.

(٥٢) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٦ ـ ٨٧، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٤.

(٥٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥٠.

(٥٤) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠١.

(٥٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٥٦.

وقد كان الخليفة يُزار ولا يزور أحداً، إلا أن عضد الدولة تجاوز ذلك؛ فعند مجيئه من همدان إلى بغداد سنة ٣٧٠ نزل جسر النهروان «وطلب من الطائع أن يتلقاه فخرج إليه الطائع . . . وتلقاه»[٥٦].

٣ ـ ب) وبمجيء البويهيين أنشئت إمارة وراثية في قلب الخلافة، وبعد أن كان للخليفة في الفترة السابقة وزير وللأمير كاتب انعكس الوضع الآن[٥٧] وصار البويهيون يتدخلون حتى في تعيين كاتب الخليفة[٥٨]. واستأثر البويهيون بالأموال بينما خصصوا للخليفة راتباً. فجعل معزّ الدولة للمستكفي خمسة آلاف درهم في اليوم[٥٩]. ثم خفض ذلك عند تعيين المطيع إلى ألفي درهم يومياً[٦٠]. وبعد أن افتتح البصرة سنة ٣٣٦ قطع معزّ الدولة ذلك الراتب عن الخليفة وأعطاه ضياعاً تدر مائتي ألف دينار سنوياً[٦١]، ولكن البويهيين كانوا يتجاوزن أحياناً على وارد هذه الضياع حتى نقص واردها إلى خمسين ألف دينار في السنة[٦٢]. يقول ابن مسكويه: «ضياع الخدمة المرسومة بالخلفاء. وقد كانت (سنة ٣٦٤ هـ) متشذبة قد تحيفها أسباب معزّ الدولة ثم أسباب بختيار فمنهم من تغلب على حدودها ومنهم من استقطع الخليفة بعضها. ومنهم من ضمن منها ما لم ينصفه من نفسه فيه ولم يسهل إخراج يده عنه فرد عضد الدولة ذلك كله إلى حقه»[٦٣]. وكان الأمير أحياناً يُضطر الخليفة إلى أن يعطيه بعض المال، كما فعل بختيار سنة ٣٦١ هـ حين طلب أربعمائة ألف دينار بحجة الجهاد، فاضطر الخليفة إلى بيع جواهره وأثاثه لإجابة الطلب[٦٤]. وكانت أموال الخليفة أحياناً عرضة للمصادرة، كما فعل معزّ الدولة بالمستكفي وبهاء الدولة بالطائع.

ويتضح زوال سلطة الخليفة من كتاب المطيع سنة ٣٦١ ـ ٩٧١ إلى بختيار حين طلب هذا منه مالاً للجهاد مدعياً أن ذلك من واجب الإمام. قال المطيع: «الغزو

---

(٥٦) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠٢.

(٥٧) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ١٤٧.

(٥٨) انظر: آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠ ـ ١٩٤١)، ج ١، ص ٢٢.

(٥٩) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٤٨.

(٦٠) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٨٧.

(٦١) انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٨، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٣٥٧.

(٦٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥٧.

(٦٣) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٦٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٨.

يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي والي تدبير الأموال والرجال. وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفائي وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه. وإنما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكنون به رعاياكم. فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله»(٦٥). وفي سنة ٣٨١ هـ كتب القادر عند تعيينه للخلافة إلى بهاء الدولة كتاباً جاء فيه: «فقد أصبحت سيف أمير المؤمنين لأعدائه والحاظي دون غيرك بجميل رأيه والمستبد بحماية حوزته ورعاية رعيته والسفارة بينه وبين ودائع الله عنده»(٦٦). ولم يكتف البويهيون بأخذ السلطة عملياً بل أخذوها نظرياً بأن جعلوا الخلفاء يفوضونها إليهم بصورة رسمية علنية. ففي سنة ٣٦٩ هـ، وفي حفل مهيب فوض الطائع السلطة لعضد الدولة قائلاً: «قد رأيت أن أفوض إليك ما وكل الله تعالى إلي من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي، فتول ذلك مستخيراً بالله» وأنهى كلامه قائلاً: «آمرك بما أمرك الله به وأنهاك عما نهاك الله عنه وأبرأ إلى الله عما سوى ذلك»(٦٧).

وفي سنة ٣٨١ هـ اجتمع الأشراف والقضاة والشهود عند القادر وسمعوا يمينه بالوفاء لبهاء الدولة و«لفظه بتقليده ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة»(٦٨).

ولم يقتنع البويهيون بأخذ السلطة بل شاركوا الخلافة في امتيازاتها الأخيرة في شاراتها؛ فقد كانت الخطبة في بغداد رمز سيادة الخليفة السياسية فلم يمض ربع قرن حتى اغتصب البويهيون هذا الامتياز وأصبح اسمهم يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة. بدأ عضد الدولة بذلك سنة ٣٦٩ ثم صار سُنّة لمن جاء بعده من الأمراء(٦٩). والخطبة لأمير معناها اعتراف الخليفة بسيادته في بغداد(٧٠). وأغرب من هذا أن عضد الدولة اختلف مع الطائع فحذف اسمه من الخطبة لمدى حوالى شهرين (٢٠ جُمادى الأولى - ١٠ رجب سنة ٣٦٤ هـ)(٧١).

---

(٦٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٦٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٥٩ - ١٦٩.

(٦٧) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠٠؛ ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٧ - ٣١٨ (الحاشية)، وقطب الدين محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود النهرواني، **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام** ([د. م.]: المطبعة الخيرية، ١٨٨٧)، ص ٧٨.

(٦٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٦٠.

(٦٩) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١١٥، وابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٧٠) Amir Hasan Siddiqi, *Caliphate and Kingship in Medieval Persia* (Lahore: Shaikh Muhammed Ashraf, 1942), pp. 111-112.

(٧١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٧٦.

وصارت السكة وهي الرمز الثاني لسيادة الخليفة بيد البويهيين. فحذفوا لقب أمير المؤمنين واكتفوا بذكر اسم الخليفة على النقود. في حين أن الأمير البويهي لم يكتف بذكر اسمه بل أضاف إليه لقبه وكنيته، وأضيف أحياناً اسم رئيس العائلة البويهية وألقابه، بل وحتى ألقاب ولي العهد في بعض الأحيان، كل ذلك على النقود المسكوكة ببغداد[٧٢]. وأدى إشراف البويهيين على السكة إلى أنهم نقشوا عليها أحياناً ألقاباً لم يمنحها الخليفة لهم. فمثلاً وجد لقب شاهنشاه بجنب اسم عضد الدولة على قطعة نُقود ضربت بتأريخ سنة ٣٧٠ هـ، مع إن اللقب لم يمنح قبل جلال الدولة. ودراسة النقود في العصر البويهي تبيّن تذبذب عقرب الساعة بين الأمير والخليفة؛ ففي إمارة أمراء أقوياء يذكر اسم الخليفة على الخلف بينما يذكر على الوجه في إمارة الضعفاء[٧٣].

وكان من شارات الخلافة قرع الطبول على أبواب الخليفة في أوقات الصلوات الخمس. فحاول معزّ الدولة أن يساهم في هذا الامتياز فأخفق ولكن عضد الدولة أجبر الطائع (سنة ٣٦٨) على أن يمنحه حق ضرب الطبول على بابه ببغداد ثلاث مرات يومياً (الغداء والمغرب والعشاء)[٧٤]. فجرت العادة بذلك حتى تجاوزها كل من سلطان الدولة وأبي كاليجار وجلال الدولة حتى قرعت الطبول لهم خمس مرات يومياً برغم احتجاج الخليفة[٧٥].

وهكذا سلب البويهيون السلطة من الخلفاء وشاركوهم لأول مرة في تاريخ العباسيين في كل شارات الخلافة ومميزاتها. وقد فكر عضد الدولة في مشروع جريء؛ إذ طمع بنقل الخلافة إلى البيت البويهي. يقول ابن مسكويه: «دبر عضد الدولة (سنة ٣٦٩) أن يقع بينه وبين الطائع لله وصلة بابنته الكبرى». ففعل ذلك وعقد بحضرة الطائع لله بمشهد من أعيان الدولة والقضاة على صداق مئة ألف دينار وبنى الأمير فيه على أن يرزق ولداً ذكراً منها فيولى العهد وتصير الخلافة في بيت بني بويه. ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة البويهية[٧٦].

وتجاوز عضد الدولة المألوف في المراسيم؛ ففي سنة ٣٦٧ ركب إلى دار الخلافة

---

(٧٢) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٨٥، و Siddiqi, Ibid., p. 112.

(٧٣) Siddiqi, Ibid., p. 113.

(٧٤) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٦، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٧، ص ٩٤.

(٧٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٠.

(٧٦) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٤.

فخلع عليه وتوّج وطوق وسوّر «وعقد له «الخليفة» لوائين بيده أحدهما مفضض على رسم الأمراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ولم يعقد هذا اللواء الثاني لغيره قبله ممن يجري مجراه. . . . وكتب له عهداً وقرأ العهد بحضرته ولم تجر العادة بذلك وإنما كانت العهود تدفع إلى الولاة بحضرة الخلفاء، فإذا أخذه الرجل منهم قال له هذا عهدي إليك فاعمل به»(٧٧). فهل كان عضد الدولة يحلم بولاية العهد؟ ولا ضرورة لبيان أن جميع خلفاء القرن الرابع كانوا من اختيار البويهيين يولّونهم ويعزلونهم حسب ما تمليه مصالحهم.

٣ ـ ج) ولم يبق للخليفة إلا نفوذه الديني فأخذ يتمسك به ويؤكده. يقول البيروني (الذي كتب في خلافة القائم) إن الدولة والملك قد انتقل من آل العباس إلى آل البويه، والذي بقي في أيدي العباسيين إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملكي دنيوي كمثل ما لرأس الجالوت عند اليهود من أمر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دلالة(٧٨).

وقد صرّح المطيع سنة ٣٦٣ هـ في عهده للطائع بحقيقة مركزه فقال في كتاب **التنازل**: «هذا ما أشهد على متضمنه أمير المؤمنين لفصل المطيع لله حين نظر لدينه ورعيته وشغل بالعلة الدائمة عن ما كان يراعيه من الأمور الدينية اللازمة وانقطع افصاحه (ثقل لسانه بفالج أصابه) عن بعض ما يجب لله عز وجل فرأى الاعتزال. . .» إلخ(٧٩).

وليس من باب المصادفة أن تنتشر الأخبار بتديّن القادر وإكثاره البر والصدقات واتصاله بالزهاد(٨٠). وقد تدخل القادر في أمر العقائد فعمل كتاباً في الأصول على مذهب أهل الحديث، وكان يقرأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي(٨١). وكتب كتاباً قرأه على الأشراف والقضاة والشهود والفقهاء «يتضمن

---

(٧٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨٧.

(٧٨) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، ص ١٣٢.

(٧٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٦٦.

(٨٠) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٦٠ ـ ١٦١، وأبو شجاع محمد بن الحسين الروذاوري، **ذيل تاريخ ابن مسكويه**، نشره هـ. ف. آمدروز (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٢١)، ص ٣٠٨؛ محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/ [١٨٩٩م])، ص ٣٩١.

(٨١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٦١ وج ٨، ص ١٠٩، ومتز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج ١، ص ٢٣.

الوعظ وتفضيل مذهب السنة والطعن على المعتزلة»[٨٢]. أليس في هذا دليل على تركيز الخليفة مجهوده على الدين وشعوره بأنه ركنه الأخير ليستند إليه تجاه قوة البويهيين السياسية؟ ولهذا كان الموظفون من أصحاب الخطط الدينية تابعين للخليفة دائماً؛ فتعيين القضاة كان من امتيازات الخليفة حتى في أضعف حالاته ولا يجوز للقاضي الحكم إذا لم يفوضه الخليفة. ففي سنة ٣٥٠/ ٩٦١ ضمن أحدهم منصب قاضي القضاة بمائتي ألف درهم سنوياً فرفض الخليفة تعيينه أو مقابلته حتى في أيام الاستقبال. ولما عزل بعد سنتين رفض خلفه كل أحكامه لأنه اشترى وظيفته من الأمير البويهي[٨٣]. ولما حاول بهاء الدولة أن يسند منصب قاضي القضاة إلى شيعي لم ينجح لأن الخليفة رفض تعيينه[٨٤].

وكان أئمة المساجد مسؤولين تجاه الخليفة مباشرة وهم عادة ينفذون أوامره. وكان الأئمة يلاحظون أن لا تحدث بدعة؛ ففي سنة ٤٢٠/ ١٠٢٩ أدخل الشيعة في الكرخ بدعة في الخطبة فعيّن الخليفة خطيباً خاصاً بالكرخ فرُجم وقت الصلاة إلا أن زعماء الشيعة اعتذروا للخليفة واستأذنوا منه أن تقرأ الخطبة باسمه كالمعتاد فسمح بذلك[٨٥]. وهذا يوضح لماذا كان الفقهاء والقضاة والوعاظ يكوّنون حزباً يؤيد الخليفة، وقد استعمله الخلفاء في دور ضعف البويهيين وسيلة لتهديد الأمراء وتقييد تصرفاتهم؛ فحين غضب القائم على جلال الدولة لأنه لم يؤدب غلاماً له اعتدى على مزرعة للخليفة «أمر سنة ٤٢٦ القضاة بالامتناع عن الحكم والفقهاء بترك الفتاوي والخطباء بأن لا يحضروا أملاكاً ولا يعقدوا عقداً»[٨٦]، فاضطر جلال الدولة إلى ترضيته[٨٧].

ولذلك فبالرغم من ضعف الخليفة كان لنفوذه الديني أثر في الجمهور لأنه بقي بالنسبة إلى السُنّة مصدر السلطان ورمز الشريعة. وأخذ الفقهاء يؤكدون أنه الرئيس الأعلى للمسلمين كما يتضح ذلك في كتاب **الأحكام السلطانية** للماوردي الذي أكد

---

(٨٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٢.

(٨٣) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ١٨٩و ١٩٦.

(٨٤) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٩، ص ١٢٩.

(٨٥) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٧٩، و Siddiqi, *Caliphate and Kingship in Medieval Persia*, pp. 128-129.

(٨٦) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٨، ص ٨٢.

(٨٧) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

السيادة السياسية والدينية للخليفة. وبواسطة هذا النفوذ استرجع الخلفاء بعض سلطانهم في النصف الأول للقرن الخامس الهجري. ويشير الفخري إلى هذا الانتعاش، إذ يذكر عن القادر المتوفى سنة (٤٢٢): «وفي أيامه رجع وقار الدولة العباسية ونما رونقها وأخذت أمورها في القوة»[٨٨]. ويقول عن خلفه القائم: «وزاد به وقار الدولة ونمت قوتها»[٨٩].

كما أن نفوذ الخليفة الديني يبيّن اضطرار البويهيين برغم طموحهم إلى إبقاء السلطة الشرعية للخليفة؛ إذ كان من اللازم إصدار عهد بالتولية للأمير عند تبدل الخليفة أو الأمير وذلك لإرضاء الرأي العام. فيُعقد اجتماع يدعى إليه كبار الموظفين ورجال الحاشية والقواد والفقهاء والقضاة ثم يتقدم الأمير بتواضع واحترام أمام الخليفة ويقبّل يده ويضع العهد على رأسه إجلالاً له، ثم تُقرأ محتويات العهد بصوت عال ويقسم كل من الأمير والخليفة ـ الأول بالولاء وصدق الطاعة والثاني بالوفاء وخلوص النية[٩٠]. وكذلك كان على المتغلبين على الأطراف لتثبيت مركزهم أن يعترفوا نظرياً بسيادة الخليفة ويحصلوا منه على عهد بالتولية[٩١]. وكان هذا العهد مهماً في ترجيح الكفة في حالة النزاع بين أميرين مثلاً[٩٢]. ولكن يلاحظ أن العهود في الدور البويهي كانت تتوقف إلى حد كبير على رغبة الأمير ولا تصدر دون موافقته. والحقيقة أن أكثر الطامحين كانوا يتقدمون بطلب العهد إلى الأمير لا إلى الخليفة الذي كان عليه أن يصدر العهد عندئذ[٩٣].

وللخليفة امتياز آخر وهو منح الألقاب والتشريفات وكان يستطيع بواسطته أن يسترضي أو يتملق الأمير. ولما كان الأمراء مشغوفين بطلب الألقاب الفخمة من الخليفة كان هذا حذراً في إعطائها. وكان يحاول أن يبتكر اللقب المناسب في كل وضع؛ ففي سنة ٣٦٧ مُنح عضد الدولة لقباً جديداً وهو تاج الملة[٩٤]. وفي سنة

---

(٨٨) أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، [تحقيق كارلوس يوهانس تورنبرغ]، ١٢ ج (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٥١ ـ ١٨٧١)، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٣٩٢.

(٩٠) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٣، ص ٨٤.

(٩١) انظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٨، ص ٣٥.

(٩٢) انظر: ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٩٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٩٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٧٨.

٣٨١ لقّب القادر بهاء الدولة بغياث الأمة[٩٥]. وفي سنة ٣٢٩ هـ زِيدَ في ألقاب جلال الدولة شاهان شاه الأعظم ملك الملوك، وخطب له بذلك، فغضب العامة ورجموا الخطباء واستفتي الفقهاء في جوازه فأجازه اثنان وأنكره الماوردي المشهور[٩٦]، ولكن اللقب استمر استعماله. وفي سنة ٤٣٠ مُنح جلال الدولة لقب الملك العزيز[٩٧]. وكان الخلفاء أحياناً يرفضون إعطاء بعض الألقاب، فلما طلب الأمير أبو كاليجار لقب السلطان الأعظم مالك الأمم رفض طلبه[٩٨]. ولم يكتف البويهيون بألقاب الخلفاء بل كانوا يلقبون أنفسهم أحياناً بألقاب رفض الخليفة إعطاءها كلقب شاهنشاه الذي استعمله عضد الدولة[٩٩].

وهذا النفوذ الديني للخليفة، وأهميته لتهدئة الرأي العام جعل البويهيين يتظاهرون باحترام عظيم للخلفاء ويبالغون في إظهار أبهة الخلافة في المناسبة وذلك لإرضاء الجماهير؛ ففي حفلة العهد إلى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ «جلس الطائع على السرير وحوله مئة بالسيوف والزينة وبين يده مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد سيف النبي (ﷺ) وضربت ستاره بعثها عضد الدولة وسأل أن تكون حجاباً للطائع حتى لا تقع عليه عين أحد من الجند قبله. ودخل الأتراك والديلم وليس على أحد منهم حديد. ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين. ثم أذن لعضد الدولة فدخل. ثم رفعت الستارة فقبل عضد الدولة الأرض. فارتاع زياد القائد لذلك وقال بالفارسية. ما هذا أيها الملك؟ أهذا هو الله عز وجل؟ فالتفت إلى عبد العزيز بن يوسف وقال له فهمه فقل له: هذا خليفة الله في الأرض. ثم استمر يمشي ويقبل الأرض سبع مرات فالتفت الطائع إلى خالص الخادم فقال استدنه. فصعد عضد الدولة فقبل الأرض دفعتين. فقال له ادن إلي ادن إلي فدنا وقبل رجله وثنى الطائع يمينه عليه وأمره فجلس على كرسي بعد أن كرر عليه «اجلس» وهو يستعفي فقال له: أقسمت لتجلس. فقبل الكرسي وجلس...»[١٠٠]. فما أغربها مهزأة سياسية!

---

(٩٥) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٦٣.

(٩٦) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٩٧) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٩٩.

(٩٨) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٦٥.

(٩٩) Siddiqi, *Caliphate and Kingship in Medieval Persia*, p. 199.

(١٠٠) انظر: ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩٨ ـ ١٠٠؛ ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٤١٧ ـ ٤١٨ (الحاشية)، والنهرواني، **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، ص ٧٩.

ولأسباب سياسية كان البويهيون يصدرون الأوامر المهمة باسم الخليفة وبتوقيعه(١٠١) وكذلك كان يطلب منه توقيع المراسلات الهامة مع الولاة(١٠٢)، وحتى المقاولات التي تعمل مع أهل الضمان(١٠٣). وعلى كل فقد كان الأمير يعمل ما يريد ويرسل الوثائق للخليفة لتوقيعها(١٠٤).

٤ ـ السياسة المالية للبويهيين في العراق

تخرب نظام الري خلال فترة أمير الأمراء وكثرت البثوق في ضفاف القنوات فتدهورت الزراعة وأصبحت مساحات واسعة من الأراضي الخصبة خراباً.

وجاء البويهيون فأبدى بعضهم كمعزّ الدولة وعضد الدولة رغبة صادقة لإصلاح نظام الري ولتحسين شؤون الزراعة. ولكن إهمال آخرين وقلة خبرة البويهيين بصورة عامة بالإدارة وسوء تصرفات الجيش أضرّت بالسكان وجعلت عصر البويهيين عصر تدهور مالي بالنسبة إلى العصور السابقة.

اهتم معزّ الدولة بتخفيف وطأة الخراب في البلاد ويقال إنه سأل علي بن عيسى: «الدنيا خراب والأمور على ما تراه من الانتشار فأشر بما عندك في إصلاح ذلك». فأجاب علي «ومن أول ما نظر به الأمير وقدمه سد هذه البثوق فهي أصل الفساد وخراب» السواد، فقال معزّ الدولة: «وقد نذرت لله عند حضوري في هذه الحضرة إلا أقدم شيئاً على ذلك ولو أنفقت فيه جميع ما أملك»(١٠٥). وفعلاً اعتنى معزّ الدولة بنظام الري ففي سنة ٣٣٤ سد بثق نهر الرفيل. ونظر إلى منطقة بادوريا الخصبة (غرب بغداد) ومنطقة النهروانات المهمة فوجد الزراعة فيها مهملة لخراب القنوات. فخرج بنفسه لسد بثق نهر الروبانية في بادوريا وإلى النهروانات فسد بثاقها. وكان تأثير ذلك عظيماً؛ فعلى أثره «عمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلاً بدرهم»(١٠٦). كما إنه كرى صدر (محوّل) نهر الخالص ليسهل دخول الماء إليه(١٠٧). واهتم أيضاً بتحسين الزراعة في السواد حيث خرب كثير من الأراضي بتأثير الحروب والظلم

---

(١٠١) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٤.

(١٠٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٣.

(١٠٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٩.

(١٠٤) Siddiqi, *Caliphate and Kingship in Medieval Persia*, p. 125.

(١٠٥) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ (الحاشية).

(١٠٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦١ (الحاشية) و١٦٥، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٣٩.

(١٠٧) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٠ (الحاشية).

فأرسل سنة ٣٣٤ أبا الفرج بن أبي هشام لتنفيذ ذلك. واعتنى بتنظيم موعد جباية الخراج. وفي سنة ٣٥١/ ٩٦٢ نقل وزيره المهلبي سنة ٣٥٠ الخراجية إلى سنة ٣٥١ ليتناسب موعد الجباية مع نضوج الحاصل(١٠٨).

ولكن فراغ الخزينة وضرورة تجهيز الأموال والنفقات للجيش وقلة خبرة معزّ الدولة جرّته إلى اتباع سياسة زراعية هدامة في السواد. ويعطي ابن مسكويه وصفاً دقيقاً وتحليلاً ناضجاً لهذه السياسة(١٠٩).

في سنة ٣٣٤ «اقطع قواده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين»، وحق بيت المال في ضياع الرعية (أي الضرائب والرسوم عليها)(١١٠). وكذلك «أقطع أكثر أعمال السواد على حال خرابه ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته». وبتأثير الوساطات والرشوات للوزراء أعطيت الإقطاعات «بعبر (معدلات إيجار) متفاوتة». ولما كان الجند لا يهمهم إلا جمع المال فإنهم احتفظوا بالإقطاعات المربحة وردوا الخسارة إذ «لما أتت السنون وعمرت النواحي وزاد الارتفاع في بعضها بزيادة الغلات ونقص في بعضها بانحطاط الأسعار ـ وذلك أن الوقت الذي أقطع فيه الجند الإقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للقحط الذي ذكرناه ـ فتمسك الرابحون بما حصل في أيديهم من اقطاعهم ولا يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة (أي لم يكن أخذ حقوق الخزينة بكاملها) ورد الخاسرون إقطاعاتهم فعوضوا عنها وتمت لهم نقائصها».

كما أن اهتمام الجند بجمع المال دون الاعتناء بتحسين الزراعة أدى حتماً إلى خراب قسم من الإقطاعات الجيدة. ولذا «اتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً أن يخرب الجند إقطاعاتهم ثمّ يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون». أما الإقطاعات المرتجعة فإنها قلدت... من كان غرضه تناول ما يجده فيها (أي أخذ كل ما يجد) ورفع الحساب ببعضه (أي تقديم حساب إلى الخزينة ببعض الوارد) وترك الشروع في عمارتها. ومما زاد الطين بلة أن اقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم، فلا يضبطون ما يجري على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تثمير ومصلحة

---

(١٠٨) اتبع المهلبي طريقة اعتبار كل ٣٣ سنة قمرية تعادل ٣٢ سنة شمسية. انظر منشور المهلبي في: الحسين هلال بن المحسن أبو الصابئ، **رسائل الصابي**، [اعتنى برسائل الجزء الأول شكيب أرسلان] (بعبدا، لبنان: [د. ن.]، ١٨٩٨)، ج ١، ص ٢٠٩ ـ ٢١٦، و A. Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century,» (Ph. D. Thesis, University of London, School of Oriental and African Studies, [n. d.]), p. 4.

(١٠٩) هنا يُظهر ابن مسكويه تفوقاً يجلب الانتباه على من سبقه من المؤرخين؛ فهو يُعنى بنواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيحللها وينقد أثرها بدقة.

(١١٠) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٦.

ويقطعون أموالهم بضروب من الفساد. واعتاض أصحابهم مما يذهب من أموالهم بمصادرتهم وبالحيف على معامليهم»(١١١).

فنتج عن هذه السياسة الاقطاعية أن «انصرف عمال المصالح (يقصد بهم موظفي الري) عنه لخروج الأعمال عن يد السلطان، ووقع الاقتصار في عملها على أن يقدر ما يحتاج إليه لها (للري) ويقسط على المقطعين تقسيطات يتقاعدون بها وبأدائها وإن أدوها وقعت الخيانة فيها فلم تنصرف إلى وجوهها»(١١٢). فأدى ذلك إلى أن «فسدت المشارب وبطلت المصالح (أي أعمال الري) وأتت الجوائح على الثُنّاء (الزراع) ورقت (ضعفت) أحوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه. فبطلت العمارات»(١١٣). وأعطيت الأراضي التي لم تقطع بالضمان إلى أكابر القواد والجند من جهة وإلى أصحاب الدراريع والمتنفذين من المدنيين من جهة أخرى. فحاول كل من الطرفين جمع المال بكل وسيلة وتجنب تدخل الدولة، واستغلال الفلاحين إلى أقصى حد. وخير وصف لتصرفهم كلمات المؤرخ العظيم ابن مسكويه إذ يقول: «فأما القواد فإنهم حرصوا على جمع المال وحيازة الأرباح ودعوى المظالم والتماس الحطائط (التخفيف من مقدار الضمان)... وأما أصحاب الدراريع فكانوا أهدى من الجندي إلى تغريم السلطان والحيلة عليه في كسب الأموال ونظر بعضهم إلى بعض فيما تجري عليه معاملاتهم وبذلوا المرافق واعتصموا بالوسائل... وتوالت السنون عليهم فتفردوا بنواحيهم وخلوا بمعامليهم فمن مستعف يصادر ويغير رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله. ومن مانع جانبه فيخفف عنه الرسوم ويرتفق على ذلك منه بالأموال يتخذه الضامن عضداً في شدائده وعند مناظرة سلطانه ويصطلم المستضعفين»(١١٤). فجرّ هذا الوضع الشائن الويلات والدمار على الزراع؛ إذ بطلت حسابات الدواوين وزالت رقابة العمال «فبطل أن يسمع لأحد ظلامة... واقتصر في محاسبة الضمناء على ذكر أصول العقد وما صح منه وبقي من غير تفتيش عما عوملت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة ومن غير إشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العمارة، وجبايات تحدث على غير رسم (أي جبايات إضافية) ومصادرات ترفع على محض الظلم، وإضافات إلى الارتفاع الوارد بغير عبرة (أي زيادة على المعدل الرسمي للجباية) وحسابات في النفقات لا حقيقة لشيء منها. ومتى تكلم كاتب من

---

(١١١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(١١٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨.

(١١٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٧.

(١١٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨ ـ ٩٩.

الكتّاب في شيء من ذلك فكان ذا حال ضمن ونكب واجتيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف وإن كان ذا خلة أرضي باليسير فانقلب وصار عوناً للخصم ولم يكن بذلك بملوم لأن سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال»[١١٥].

والخلاصة فإن معزّ الدولة أراد إصلاح نظام الري وإحياء الأراضي المهملة كما إنه أراد تكوين إقطاعات عسكرية ليربط الجند بالأرض. فكانت النتيجة خراب نظام الري ودمار الزراعة لعدم تمكن الحكومة من ضبط الجند.

وأثرت سياسة معزّ الدولة في الخزينة تأثيراً فظيعاً؛ إذ كانت الأراضي عماد الخزينة، فتضاءل موردها بنتيجة سياسته الاقطاعية. هذا بالإضافة إلى إنفاقه الزائد على الجند؛ إذ «أسرف في تمويلهم وتخويلهم». فأدى ذلك إلى إفلاسه. يقول ابن مسكويه: «فتعذر عليه أن يدخر ذخيرة لنوائبه أو أن يستفضل شيئاً من ارتفاع ولم تزل مؤنته تزيد وموارده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفاً على حد منه بل يتضاعف تضاعفاً متفاقماً». وأدى ذلك أخيراً إلى شغب الجند وارتباك السياسة الداخلية[١١٦]. وكانت حملته على الموصل نتيجة لضائقته المالية ولقلة المحوّل إليه من النواحي[١١٧]. وأنفق معزّ الدولة قسماً من ماله على البناء. وعلى كل فقد خلّف عند وفاته ٤٠٠,٠٠٠ دينار أنفقها خلّفه بسرعة[١١٨].

ثم جاء بختيار (عزّ الدولة) إلى الحكم فكان لا يفهم السياسة ولا الإدارة بل «اشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المساخر والمغنين والنساء»[١١٩]. ولم يكن يهمه إلا جمع المال اللازم لترفه ولجنده. ويلخص ابن مسكويه وضعه كما يلي: «وكان لا ينظر في دخل ولا خرج وإنما يلزم وزيره تمشية الأمور من حيث لا يعينه ولا ينصره. ولا يمنع أحداً من جنده شيئاً فإذا وقفت أموره قبض على وزيره واستبدل به فلا يلبث الأمر أن يعود من الالتياث والانحلال إلى أسوأ ما كان»[١٢٠]. ولذلك فلا ننتظر سياسة مالية معيّنة من وزرائه ولا القيام بإصلاحات تذكر. بل اتخذوا المصادرة والتعدي على أملاك الموظفين والناس وسيلة لجمع المال لإرضائه وإرضاء جنده.

فاستهل وزيره أبو الفضل بن العباس الحكم بمصادرة الحاشية وأسرع في جباية

(١١٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٩.
(١١٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٩ ـ ١٠٠.
(١١٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٥.
(١١٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٨.
(١١٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٤.
(١٢٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٧.

الخراج وفرّق الأتراك على المقاطعات ليحصلوا على مخصصاتهم. فأرضى الجند في تلك السنة[١٢١]. ولكن سرعان ما وجد الوزير المصاعب في سد النفقات من هذا المورد. فأدت الضائقة المالية ودسائس الحاشية إلى سلسلة تبدلات وزارية سريعة. فكل طامح إلى الوزارة يضمن لبختيار سد النفقات ومصادرة الوزير الموجود على مقدار من المال[١٢٢]. وهذا الوضع كان يدفع الوزير إلى جمع المال بكل وسيلة لإرضاء سيده ولإخفاء قسم منه لنوائبه؛ ففي سنة ٣٦١ لاحظ وزيره الفوضى العامة ونضوب موارد الدخل فأساء التصرف بأن «عدل إلى طلب الأموال من الوجوه المذمومة التي تقبح الأحدوثة بها وتحرم ولا تحل في شيء من الأديان»[١٢٣]. وتجاوز الحاشية إلى الشعب فاعتمد «على مصادرات الرعية والتجار والتأويل عليهم بالمحال. وابتدأ بأهل الذمة ثم ترقي إلى أهل الملة فأخذ أموال الشهود ووجوه البلد من أهل الستر وبث السعاة والغمازين وسماهم العمال وأجرى عليهم الأرزاق». فأدى ذلك إلى اضطراب العامة وإلى ارتباك الوضع المالي حتى «بطلت الأسواق وانقطعت المعايش»[١٢٤].

وسار الوضع المالي من سيّئ إلى أسوأ طيلة أيام بختيار؛ ففي سنة ٣٦٢ جاء ابن مُقلَة إلى الوزارة بعد أبي الفضل فجمع من المال من مصادرة الوزير السابق وأنصاره ما أفاده مدة قصيرة. واستمرت الضائقة المالية وهي على أشدها دون أن يفكر في حل لها. فارتكب «من الظلم والغشم» ما غطى على فظائع سلفه «فانقطعت موارد الأموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة»[١٢٥]. وهكذا عمّت الفوضى المالية لسوء نظر بختيار وإهماله الأمور[١٢٦]، ولجشع وزرائه وجنده فلاقت البلاد الأمرّين من حكمه. ولعل البلاد ذاقت بعض الرفاهية على يد عضد الدولة (٣٦٩ ـ ٣٧٢ هـ/ ٩٧٩ ـ ٩٨٢ م)؛ فقد كان أقدر البويهيين الذين حكموا العراق وأبعدهم نظراً في السياسة والإدارة.

بدأ عضد الدولة إصلاحاته الزراعية سنة ٩٧٩/٣٦٩ وهدف إلى أمرين: إصلاح نظام الري، وتنظيم الجباية؛ ففي منطقة بغداد وجد كثيراً من القنوات التي

---

(١٢١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٧.

(١٢٢) انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٧. هكذا توصل أبو الفضل إلى الوزارة. ثم نكب عندما قدم أبو الفرج محمد بن العباس رشوة كبيرة إلى القائد التركي سبكتكين ووعد باستخراج تسعة ملايين درهم من أبي الفضل. ثم رجع أبو الفضل بعد أن أرضى سبكتكين ووعد باستحصال سبعة ملايين درهم من أبي الفرج.

(١٢٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٧.

(١٢٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٨.

(١٢٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٤.

(١٢٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٤.

تروي المدينة والأراضي المحيطة بها كنهر العباره ونهر مسجد الأنباريين ونهر البزازين ونهر الدجاج ونهر القلايين ونهر طابق وميزابها إلى دجلة والفرات ونهر عيسى وقد اندفنت مجاريها فأمر بحفرها وإعادة بنائها[١٢٧]. وكان مهتماً بصورة خاصة بإصلاح بثق في النهروان قرب بغداد يدعى بثق السهلية[١٢٨]. كذلك كرى كثيراً من القنوات التي تخربت في السواد وبنى القناطر على أفواهها والمسنيات على بعضها لتنظيم مجرى الماء واستعمل في ذلك الجص والآجرّ والنُوْرَة. وطلب من الرعية الاهتمام بالقنوات والاعتناء بها ووضع الحراس في بعض النقاط الهامة لحراسة القنوات والسدود في الليل والنهار[١٢٩]، ووسع نهر بيان الذي يصل دجلة العوراء بالأهواز.

وكذلك أصلح الجباية ووضع نظاماً ثابتاً لها. وأخّر افتتاح الخراج إلى النيروز المعتضدي ليتفق ونضج الغلات «وكان يؤخذ سلفاً قبل إدراك الغلات»، وألح على العدل والإنصاف في الجباية فـ: «أمضيت للرعية الرسوم الصحيحة وحذفت منها الزيادات والتأويل وشجع الزراع على عرض مظالمهم ليرجع حقوقهم حتى من المقطعين العسكريين»[١٣٠]. واعتنى أيضاً باختيار الأمناء للاهتمام بإصلاح السواد وتحسين حاله[١٣١].

وقد كانت إصلاحات عضد الدولة ممكنة لقوّته التي أرجعت الأمن إلى البلاد وضبطه للجند ورغبته الصالحة في تحسين الوضع والخبرة التي اكتسبها البويهيون بشؤون العراق.

ولم يذق العراق طعم الرفاهية طويلاً؛ إذ عاد الشقاق إلى صفوف البويهيين بعده وسادت الفوضى ولم يخلفه أحد له من الوقت والقابلية ما يستطيع به الاستمرار على إصلاحات سلفه. وإذا استثنينا سد بثق النهروان سنة ٣٨٥ وحفر قناة موازية لنهر بيان سنة ٣٩٥، فإننا لا نسمع بعد عضد الدولة إلا الحديث عن الفقر والخراب وتكرر فيضان دجلة الذي خرب الأرض والغلات لعدم تنظيم مياهه[١٣٢].

ولنرجئ مؤقتاً أثر الارتباك المالي في الوضع الداخلي فنعرض له في حينه.

---

(١٢٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٦.

(١٢٨) الروذاوري، **ذيل تاريخ ابن مسكويه**، ص ٦٩.

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٦٩.

(١٣٠) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٦.

(١٣١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٧.

(١٣٢) انظر السياسة المالية في: Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century,» pp. 45-55.

٤ ـ ولن نلقي تبعة الاضطراب المالي والتدهور العام على قلة خبرة البويهيين وحدها، بل إن هناك عوامل هدامة كانت تنخر في جسم الدولة البويهية منذ تأسيسها وأهمها نظرة البويهيين إلى المملكة، وتكوين جيشهم.

وهنا يدفعنا ضيق المجال وخوف الملل إلى الإيجاز، فلنوجز إذن آملين أن نفصّل في فرصة أخرى.

أ ـ كان البويهيون في بدء عصرهم يشعرون على ما يظهر بأن المملكة هي ملك عائلي يوزع بينهم، ولكنهم كانوا يشعرون أيضاً برابطة أدبية تربطهم؛ ولذا كان الكل يعترفون بسيادة كبيرة العائلة. وقد كان هذا الشعور العائلي قوياً في حياة الأخوة الثلاثة على الرغم من توزع الأسرة بين ثلاثة مراكز كبرى وهي شيراز والري وبغداد.

كان عماد الدولة رئيس العائلة الأولى، فلما توفي ٣٣٨/ ٩٤٩ ـ ٩٥٠ خلفه في حكم مقاطعة فارس ابن أخيه عضد الدولة (بن ركن الدولة) بعهد منه. ثم توفي معزّ الدولة (٣٥٦/ ٩٥٧) فخلفه ابنه بختيار (عز الدولة) في حكم كرمان وخوزستان والعراق. وظهر بختيار ميالاً إلى الملذات ومجرداً من كل مقدرة. فلم يستطع ضبط جنده. وكان متذمراً من نفوذ مرتزقة الأتراك كما طمع بأموالهم. وأراد استئصالهم فقاموا بثورة ضده وأخذ زعيمهم سبكتكين السلطة بيده في بغداد، وتزعزع سلطان البويهيين في العراق.

كما ظهرت بوادر التشعيث في الشعور العائلي عند الجيل الجديد؛ فمعزّ الدولة أوصى ابنه بإطاعة ركن الدولة واستشارته، وبإطاعة عضد الدولة «لأنه أسن منه وأقوم بالسياسة»[١٣٣]. ولكن سرعان ما أساء بختيار التصرف مع ابن عمه[١٣٤] فكانت نتائج ذلك غير محمودة.

وعلى كل فقد استنجد بختيار في محنته بركن الدولة وبعضد الدولة، وبالاتفاق مع أبيه ذهب عضد الدولة ٣٦٤/ ٩٧٤ إلى بغداد لإعادة النظام فنجح في ذلك[١٣٥]. وفي الوقت نفسه تمكن بدسائسه من جعل بختيار يستعفي من الحكم ليحتل هو مكانه[١٣٦]، ورأى عضد الدولة ضرورة استحصال موافقة والده، فأرسل رسولين قديرين إليه ليقنعاه.

---

(١٣٣) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٥.
(١٣٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٥.
(١٣٥) انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٣.
(١٣٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٣.

ولكن قوة الشعور العائلي عند عضد الدولة أحبطت مساعي والده؛ إذ غضب أشد الغضب ووبّخ ابنه وهدده، فاضطر عضد الدولة إلى ارجاع بختيار إلى عرشه[١٣٧]. ولم يجرؤ على التقدم ثانياً إلى العراق إلا بعد وفاة والده وبعد تحرش بختيار به وعندئذ فتح بغداد سنة ٣٦٧/ ٩٧٧ وأخضع العراق بكامله حتى آمد (ديار بكر)[١٣٨].

وكان ركن الدولة قد عهد لابنه عضد الدولة وولى ابنه فخر الدولة على الجبال، ومؤيد الدولة على أصفهان على أن يخضعا لأخيهما الأكبر. ولكن الشقاق دبّ بين الأخوة فجرد عضد الدولة أخاه فخر الدولة من ملكه وأضطره إلى الهرب إلى خراسان.

وكان عصر عضد الدولة ألمع فترة في السيادة البويهية. وفي زمنه احتلت جيوش البويهيين بلوجستان ومكران وغزت عمان بنجاح. واشتهر هذا الأمير بإنشاءاته العمرانية؛ فبنى قصراً في شيراز يحتوي على ثلاثمئة قاعة، وجدرانها مغطاة بالغضار الصيني والرخام أو مزركشة بالنقوش، وأنشأ سداً مشهوراً في فارس باسم بند أمير، وبنى ضريح علي وضريح الحسين في العراق وأنشأ مستشفى في بغداد.

واشتهر أخواه مؤيد الدولة وفخر الدولة (ومركزهما الري) بعلاقتهما بالوزير المشهور الكاتب الصاحب إسماعيل بن عبّاد (٣٨٥/ ٩٥٥).

وبعد وفاة عضد الدولة اشتعلت الحرب بين أبنائه الثلاثة. فدعا أشراف الري فخر الدولة من منفاه ونصّبوه أميراً على الجبال وطبرستان وجرجان. وانتهت الحرب بانتصار بهاء الدولة سنة ٣٨٠/ ٩٩٠.

وتوفي فخر الدولة سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ وخلّف طفلاً (مجد الدولة) عمره تسع سنين، فتولت الوصاية عليه أمه المعروفة بالسيدة، وهي شخصية فعالة وعاقلة. ولما كبر ابنها وأخذ السلطة بيده، لم ترض فذهبت إلى الأمير الكردي بدر بن حسنويه، وبمعونة جيوشه احتلت الري وتسلمت الأمور. وفي زمانها ظهرت في الأفق أول سلالة تركية وهي العائلة الغزنوية. فدعا محمود الغزنوي السيدة إلى الخضوع مهدداً إياها بفتح بلادها فأجابته بأن نتيجة الحرب مجهولة، فإن انتصر السلطان عليها لم يكسبه ذلك فخراً يُذكر وإن انتصرت هي كان ذلك وصمة أبدية في جبينه. فكفّ عنها[١٣٩].

---

(١٣٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(١٣٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥، ٣٧٢، ٣٧٥ ـ ٣٧٦ و٣٧٨ ـ ٣٨٣.

(١٣٩) Minorsky, *La Domination des dailamites*, p. 15.

وكانت نهاية هذا الفرع البويهي عند وفاة السيدة سنة ٤١٠/ ١٠١٩؛ إذ استنجد ابنها مجد الدولة بالسلطان محمود الغزنوي، وفي سنة ٤٢٠/ ١٠٢٩ جاء محمود وضم ممتلكات مجد الدولة نهائياً.

وفي بغداد حكم بهاء الدولة حكماً طويلاً مضطرباً (٣٧٩ ـ ٤٠٤/ ٩٨٩ ـ ١٠١٣) بعد أن بسط سلطانه على فارس وكرمان.

وشغلت السنين الأخيرة للأسرة البويهية بالنزاع بين الأحفاد وكانت البلاد نهب الفوضى والفتن؛ وبينما كان الأتراك يعدّون أنفسهم لغزو إيران، إذ تقدم طغرل بك على رأس السلاجقة ودخل بغداد سنة ٤٤٧/ ١٠٥٥. وبإعلان سلطنته أعاد تثبيت المذهب السُنِّي وسجن آخر بويهي وهو الملك الرحيم في قلعة طبرق قرب الري حيث قضى أواخر أيامه. ثم افتتح السلاجقة فارس ووضعوا حداً للحكم البويهي هناك.

وهكذا اختفت فروع الري وبغداد وشيراز على التعاقب[١٤٠].

ب ـ سقط البويهيون ضحية غزو أجنبي، ولكن بالإضافة إلى المنازعات الداخلية التي تغمر سنيهم الأخيرة، يلزم ذكر سبب داخلي هام كان مستمراً في إضعافهم.

فجيشهم كان يعوزه النظام، ويحركه الطمع في المال، فكان عليهم اتباع أية وسيلة ولا سيما إقطاع الأرض لإرضائه.

ومن الجهة الأخرى، ضعف البويهيون والجيش ذاته بالخصومة المستمرة بين عنصريه الرئيسين: المشاة الديلم والخيالة الترك[١٤١]. فالديلم كانوا يحاربون بهيئة صفوف تكون حائطاً من الدروع الملونة بألوان زاهية، ولكنهم كانوا محتاجين إلى الخيالة وذلك لتقوية هجومهم، وهؤلاء كانوا من الترك، وفي الدفاع كان الترك أيضاً مسلحين بصورة أقوى من الديلم[١٤٢].

ومع وجود المنافسة الطبيعية الناتجة عن التكالب على الامتيازات والنفوذ عند الفريقين، فإن سوء سياسة الأمراء البويهيين تجاه الجيش بتقريب أحد الفريقين على حساب الآخر أو بإثارة بعضهم ضد بعض عمداً قام بدور هام في انقسام الجيش

---

(١٤٠) انظر: المصدر نفسه، ص ١٢ ـ ١٦، و «Buwayhids,» in: *Encyclopedia of Islam.*

(١٤١) وهناك عناصر أخرى، فيذكر ابن مسكويه الجيل والعرب والأكراد والزط في جيش عضد الدولة. وهناك إشارات إلى القفص من جبال كرمان، والبلوج أيضاً. انظر: ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢ ص ٢٩٨، ٣٠٠ و٣٦٨.

(١٤٢) Minorsky, Ibid., p. 20.

على نفسه وعصيانه لأمرائه حتى أصبح الخطر الرئيسي على الأمة ومصدر البلاء على الرعية.

وقد بدأ تخليط الأمراء البويهيين منذ دخولهم العراق؛ فبعد أن كان الشرق والنفوذ للديلم، أخذ معزّ الدولة (٣٣٤/ ٩٤٦) يقرب غلمانه الأتراك ويزيد في إقطاعاتهم ويسرف في تمويلهم حتى إفراغ خزينته «وأدى ذلك على مر السنين إلى الإخلال بالديلم فيما يستحقون من أموالهم وداخلتهم المنافسة للأتراك من أجل حسن أحوالهم. وقادت الضرورة إلى ارتباط الأتراك وزيادة تقريبهم والاستظهار بهم على الديلم». وكانت النتيجة مضرة ومربكة إذ «فسد الفريقان، أما الأتراك فبالطمع والضراوة، وأما الديلم فبالضر والمسكنة واشرأبوا إلى الفتن، وصارت هذه المعاملة لقاحاً وسبباً لوقوع ما وقع فيها»(١٤٣).

ولم يمض زمن طويل حتى ظهر سخط الديلم على معزّ الدولة؛ ففي سنة ٣٤١ ثار روزبهان الديلمي في الأهواز، فلما سار معزّ الدولة لتأديبه، تبيّن أن عطف الديالمة كان بجانبه، فشغبوا على معزّ الدولة «وأظهروا استياء كان في نفوسهم عليه.. وكاشفوه وواجهوه بكل ما كره»، وأخذوا يستأمنون إلى روزبهان. فلما أخمد معزّ الدولة الثورة بمعونة غلمانه الأتراك ازداد الوضع سوءاً لأن الأمير أسقط الديلم الروزبهانية «وأعرض عن سائر الديلم وأقبل على الأتراك واصطنعهم»(١٤٤).

ولم يحاول الأمير ترضية الديلم وإزالة حقدهم، بل تمادى في تقريب الأتراك؛ ففي سنة ٣٤٧ «رفع منزلة الأتراك كل طبقة إلى ما هو أعلى منها فقود جماعة واستحجب جماعة ونقب جماعة»، وزاد في اعطياتهم وإقطاعاتهم فأساؤوا التصرف وتكالبوا على جمع المال حتى إنهم أخذوا يشتغلون بالتجارة وظلموا الرعية. وفي الوقت نفسه استمر إهمال الديلم وإبعادهم(١٤٥).

فتأكد العداء بين الترك والديلم حتى أصبحت إزالته غير ممكنة. ولذا أخفقت محاولة بختيار في هذا الاتجاه سنة ٣٥٩ هـ(١٤٦).

ثم قام بختيار بمحاولة هوجاء دفعه إليها إفلاس الخزينة وطمعه في إقطاعات

---

(١٤٣) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٩ ـ ١٠٠.
(١٤٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ و١٦٦.
(١٤٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٧٤.
(١٤٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

الترك؛ ففي سنة ٣٦٣ «أدخل يده في اقطاع سبكتكين قائد الأتراك» وشجعه الديلم على ذلك. فثار الأتراك واستولوا على بغداد وأخرجوا بختيار منها، حتى اضطر إلى الاستنجاد بعضد الدولة كما ذكرنا(١٤٧).

وعاد بهاء الدولة إلى تقريب الأتراك سنة ٣٧٩، لأنه وجدهم أكثر ولاء من الديلم(١٤٨). فهذا ابن العميد ينصح ابنه «ويشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ولا يتكبر عليهم ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالاً. وأن من دعاهم واحتشد لهم حمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعي على إزالتها وترقب أوقات الفترة. فيفتكون به في ذلك الوقت»(١٤٩).

ولكن لما كان المذهب الشيعي أساس سلطان البويهيين فإنهم لم يمكنهم التخلي عن الديالمة مدة طويلة ولا سيما أن الأتراك كانوا سُنَّة، ولهذا كانوا دائماً أمام مشاكل(١٥٠). وهذا الخلاف المذهبي بين قسمي الجيش كثيراً ما أدى إلى زيادة الفتن بين أهالي بغداد؛ إذ كان الترك يساعدون السُنَّة، بينما كان الديالمة في صف الشيعة(١٥١).

وقد أدى ضعف البويهيين بعد بهاء الدولة وجشع الأتراك والديلم على السواء إلى استبداد الجند في الاستئثار بوارد الأراضي وإلى الشغب المستمر لزيادة المخصصات، وأسوأ من ذلك تدخلهم المستمر في السياسة العامة؛ إذ تراهم في ثورات مستمرة على أمرائهم (كما في سنة ٤١٨ هـ، ٤١٩ هـ، ٤٢٢ هـ، ٤٢٣ هـ، ٤٢٧ هـ، ٤٤٠ هـ، ٤٤٦ هـ) يطلبون عزل هذا الأمير أو تولية ذاك ولا يهدأون إلا بأعطيات إضافية وبذلك أفرغوا الخزينة، وأضعفوا الأمراء، وفسحوا المجال للعيارين للإخلال بالأمن ولإرهاق الرعية، حتى اضطرب الأمن وعمّت الفوضى وساد الفقر والدمار(١٥٢).

---

(١٤٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ و٣٢٣ ـ ٣٤١، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٦٨. وفي سنة ٣٨٥ أمر صمصام الدولة بذبح الأتراك في فارس. انظر: Minorsky, *La Domination des dailamites*, p. 21.

(١٤٨) الروذاوري، **ذيل تاريخ ابن مسكويه**، ص ١٥٨.

(١٤٩) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٢.

(١٥٠) Minorsky, *La Domination des dailamites*, p. 21.

(١٥١) انظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٦٨.

(١٥٢) انظر: المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ و١٧٢ وج ٨، ص ٢١، ٢٩، ٣٥ ـ ٣٦، ٥٦ ـ ٥٧، ٥٩، ٦٤ ـ ٦٥، ٧٥ ـ ٧٦، ٨٤، ١٣٦ و١٥٩ ـ ١٦٠.

٥ ـ الأثر الاقتصادي والاجتماعي للفتح البويهي

صار الفتح البويهي حداً فاصلاً بين فترتين في تأريخ العراق الاقتصادي؛ فقد أثر في اقتصاديات البلاد الزراعية وأضر بالتجارة وبنظام الصيرفة وأدى إلى انحطاط مستوى المعيشة.

قاسى الفلاحون في العصر البويهي من الضرائب العالية ومن قلة الرقابة على الجباة ومن تدهور نظام الري؛ إذ استحدث معزّ الدولة سياسة زراعية هدامة، فقسم الأراضي (كما أسلفت) إلى صنفين: صنف أعطي بالإقطاع إلى الجند يتصرفون فيه كما يشاءون فأثقلوا الزراع بكثرة طلباتهم حتى صادروهم إذا عجز الحاصل(١٥٣). كما أنهم أهملوا القنوات، «وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها»(١٥٤)، ونزل البلاء بالزراع وضعفت أحوالهم المعاشية «فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع»(١٥٥).

وأعطي الصنف الثاني من الأراضي بالضمان، فتفنن الضامنون في استخراج المال من الزراع بكل وسيلة ـ فزادوا في الضرائب واستحدثوا جبايات جديدة، وأكثروا من مصادرة الزراع، ولم يعنوا بالقنوات أو بإصلاح الزراعة وتحسينها، ومنعوا الموظفين من التدخل وجعلوا الرعية تحت رحمة جشعهم وجورهم(١٥٦).

ولم تسلم الأراضي التي كانت ملكاً خاصاً، بل أدى الظلم إلى انتشار نظام الإلجاء احتماء من العسف. وسرعان ما امتلك الأتراك ما ألجئ إليهم «فملكوا. . . البلاد واستعبدوا الناس واستمر ذلك إلى اليوم (نهاية القرن الرابع)»(١٥٧).

ونتج عن إهمال القنوات وسوء توزيع المياه حدوث فيضانات أضرت بالسواد(١٥٨)، كما أدى سوء الوضع الزراعي (بالإضافة إلى الفوضى السياسية والفتن وصعوبة المواصلات وتعديات الأعراب) إلى تكرر الغلاء والمجاعات بشكل لا سابق له.

---

(١٥٣) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٨، ص ١٥٠.
(١٥٤) المصدر نفسه.
(١٥٥) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٩٧.
(١٥٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨ ـ ٩٩.
(١٥٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٢ و١٧٥.
(١٥٨) انظر: ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣.

وشمل الشلل الاقتصادي المدن، فركد الإنتاج وانحط مستوى المعيشة فيها؛ فبغداد العظيمة المشهورة بترفها وعمارتها وجمالها، تدهورت حتى قال فيها المقدسي (الذي كتب حوالى سنة ٣٧٥ هـ): (فأما المدينة فخراب. . . وهي كل يوم إلى وراء مع كثرة الفساد والفسق وجور السلطان)[١٥٩].

وكان لسوء الوضع المعاشي في بغداد أسباب أهمها تعديات الجند ومصادرة الوزراء للرعية، والفتن المذهبية والفوضى العامة التي شلّت الحركة الاقتصادية وهجمات العيارين على الدور والحوانيت.

فما أن دخل البويهيون بغداد حتى شعرت بوطأة سادتها الجدد؛ إذ أنزل معزّ الدولة أتراكه وديلمه دور الناس «ولم يكن يعرف ببغداد، مثل هذا التنزل فصار من هذا اليوم رسماً»[١٦٠]، وصار ذلك عبئاً ثقيلاً على السكان المدنيين.

وكثيراً ما كان الجند يهجمون على الدور وينهبون الأموال ويعتدون على السكان. فيقول ابن مسكويه عن الأتراك في أيام بختيار: «فأما الأتراك فمتسحبون مقترضون ما لا تمكن منه، متجاوزون حدود العامة في سفك الدماء والطمع في الأموال والفروج». ويذكر أنهم فتحوا السجون (سنة ٣٦١ هـ) «وأطلقوا أهل الدعارة منها»[١٦١]. وفي سنة ٤٠٩ هـ «أنزل (ابن سهلان نائب صمصام الدولة ببغداد) الديلم أطراف الكرخ وباب البصرة ففعلوا من الفساد ما لم يشاهد مثله»[١٦٢]. وفي سنة ٤١٧ «كثر تسلط الأتراك ببغداد وأكثروا مصادرات الناس وأخذوا الأموال حتى أنهم قسطوا على الكرخ خاصة مئة ألف دينار» ثم وقعت الحرب بين الجند والعامة فانتصر الجند ونهبوا المحلات[١٦٣].

وكان وزراء بختيار يلجأون إلى مصادرات الناس لجمع المال اللازم للنفقات بعد أن فرغت الخزينة؛ ففي سنة ٣٦١ شرع الوزير أبو الفضل بمصادرة «الرعية والتجار

---

(١٥٩) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ٢٠ ـ ٢١ و٨٧. وأين هذا مما ورد في قصة أبي القاسم (التي وقعت حوادثها سنة ٣٠٦ كما بيّن الكاتب)، وليس في أواخر العصر البويهي كما يظن ليفي، «بغداد.. جنة الخلد.. بلدة هي الأمل والمنى والغاية القصوى معشوقة السكنى.. يومها غداة وليلها سحر وطعامها هنيء وشرابها مريء.. واسعة الرقعة كان محاسن الدنيا فيها مفروشة وصورة الجنة بها منقوشة واسطة البلاد وسرتها ووجهتها وغرتها». انظر: Reuben Levy, *Baghdad Chronicle* (Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1929), p. 178.

(١٦٠) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٢٤٩.

(١٦١) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٣٠٦.

(١٦٢) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٩، ص ١٠٦.

(١٦٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٢٢.

والتأويل عليهم بالمحال». فبدأ بأهل الذمة وتجاوزهم إلى المسلمين حتى شمل بمصادراته «أموال الشهود ووجوه البلد وأهل الستر». واستعمل الجواسيس ليتجسسوا على أموال الناس[(١٦٤)]. ثم كان خلفه في الوزارة، ابن بقية، أشد منه ظلماً وأكثر تطرفاً في المصادرات حتى ارتبك الوضع «وسقطت الهيبة وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض. وفشا القتل.. فانقطعت موارد الأموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة». ونتج عن ذلك وضع وصفه ابن مسكويه بقوله: «الرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة والجند متهارجون»[(١٦٥)].

وكان للسياسة المذهبية التي اتبعها البويهيون أثرها في التدمير. سنبيّن أثرها بعد قليل، ولنكتف بإيراد مثل واحد. ففي سنة ٣٦١ هـ أرسل الوزير حاجباً له لتهدئة فتنة في الكرخ وكان يتعصب للسُنيَّة، فألقى النار في عدة أماكن من الكرخ «وهي مجمع الشيعة ومعظم التجار» فاحترقت «وكان عدة من احترق ١٧,٠٠٠ إنسان و٣٠٠ دكان وكثير من الدور و٣٣ مسجداً ومن الأموال ما لا يحصى»[(١٦٦)].

وكانت الخصومات المذهبية (والبويهيون مسؤولون عنها بالدرجة الأولى) عاملاً فعالاً في نشر الفوضى والدمار؛ إذ إنها كبدت أهالي بغداد خسائر جمة في النفوس والأموال، واحترق في أثنائها عدد من محلات بغداد. فمثلاً احترق الكرخ سنة ٣٦٣ هـ[(١٦٧)]. وفي سنة ٣٨١ «كثرت الفتن بين العامة ببغداد. وتكرر الحريق في المحال واستمر الفساد[(١٦٨)]. وفي سنة ٤٠٧ احترق نهر طابق ودار القطن وكثير من باب البصرة[(١٦٩)]. وفي سنة ٤٢٢ تخرب في الفتنة سوق العروس وسوق الصفّارين وسوق الدقاقين وهي في الجانب الغربي[(١٧٠)]. ثم تجددت الفتنة فأحرق سوق الخراطين ومدبغة الجلود وسوق القلائين[(١٧١)].

أما أثر العيارين فكان أفظع من غيره. ومع إننا نشعر بأن بعض من اشترك في حركاتهم كانوا مدفوعين بحب الغنيمة، إلا أنهم كجماعة يمثلون تكتل طائفة من

---

(١٦٤) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٨.

(١٦٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٤.

(١٦٦) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠٧.

(١٦٧) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٧.

(١٦٨) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣١.

(١٦٩) انظر: المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٨٤ وج ٩، ص ٢٥ ـ ٢٦، ٣٢، ٥٨ و١٠٢.

(١٧٠) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٨، ص ٥٥.

(١٧١) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٥٥.

الطبقة العامة بنتيجة التباين الاقتصادي الطبقي وسوء الوضع المعاشي للعوام والفوضى السياسية[١٧٢]. وما حركتهم إلا ثورة ضد الأسياد السياسيين وضد أسياد المال. وكانت هجماتهم موجهة بالدرجة الأولى إلى بيوت المثرين والأسواق وأصحاب الشرط والشخصيات الكبيرة[١٧٣].

وكانت للعيارين مبادئ أخلاقية وطريقة يسيرون عليها. وما حركة الفتوة فيما بعد إلا سليلة حركتهم. يقول ابن الجوزي: إنهم «يسمون طريقتهم الفتوة وربما حلف أحدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم يشرب»[١٧٤] ومن مبادئهم الأخلاقية أن «الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر امرأة»[١٧٥]؛ فالعفة وعدم المجون من الصفات الأساسية عندهم[١٧٦] وهم يؤكدون على الأمانة[١٧٧].

ومن عناصر فتوتهم الرفق بالفقراء والضعفاء. فالبرجمي العيار «كان. . فيه فتوة وله مروءة ولم يعرض لامرأة ولا إلى من يستسلم إليه»[١٧٨] وكان يحمي النساء ولا يسمح بالتعرض لهن[١٧٩]. ويُذكر عن ابن حمدون أنه «فيه فتوة وظرف. . لا يفتش امرأة ولا يسلبها»[١٨٠].

ومن صفاتهم الكرم[١٨١] والصبر الشديد على احتمال الأذى[١٨٢].

ويظهر أن المؤرخين لم يفهموا روح حركتهم فسموهم لصوصاً منحطين. وأساس الحركة كما بيّنا اقتصادي ناتج عن التباين في الثروة. يروى عن ابن حمدون الذي كان

---

(١٧٢) انظر: أبو علي المحسن بن علي التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ٢ ج (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٨)، ج٢، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(١٧٣) مثلاً يبيّن ابن الجوزي أنهم طلبوا أصحاب الشرط. ويذكر في حوادث سنة ٣٩٢ هـ أنهم «واصلوا العملات وأخذوا الأموال.. وأشراف الناس معهم على خطة صعبة». انظر: ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٧٤ و٢٢٠، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٩، ص ١٥١.

(١٧٤) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **تلبيس ابليس**، عني بنشره للمرة الثانية محمد منير الدمشقي (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٢٨)، ص ٣٩٢.

(١٧٥) المصدر نفسه.

(١٧٦) عبد الكريم بن هوازن القشيري، **الرسالة القشيرية في علم التصوف وعليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري** (القاهرة: البابي، ١٩٤٠)، ص ١١٣.

(١٧٧) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(١٧٨) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٩، ص ١٥١.

(١٧٩) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٨، ص ٧٧.

(١٨٠) التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ج ٢، ص ١٨٠.

(١٨١) القشيري، **الرسالة القشيرية في علم التصوف وعليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري**، ص ١١٣.

(١٨٢) ابن الجوزي، **تلبيس ابليس**، ص ٣٩٢.

يقطع الطرق «أنه إذا قطع لم يعرض لأصحاب البضائع القليلة التي تكون دون الألف. وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة قاسمه عليه فترك شطر ماله في يديه»[(١٨٣)] . أليس في هذا ما يدل على أن هجومهم كان ضد الأغنياء؟ ولم يعدموا حجة فقهية لنهب أموال الأغنياء، فهذا أحد قطاع الطرق يبرر عمله قائلاً: «إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء إليها، فإن أخذوا أموالهم ـ وإن كره التجار ذلك ـ كان ذلك لهم مباحاً لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم مستحقون للزكاة شاء أرباب الأموال أم كرهوا»[(١٨٤)].

وكانت للعيارين تنظيمات خاصة ودرجات في الرئاسة، ومن ألقاب رؤسائهم في القرن الرابع المتقدم[(١٨٥)] والقائد[(١٨٦)] والأمير[(١٨٧)] ولهم مراسيم معينة وحفلات خاصة لقبول الأعضاء الجدد[(١٨٨)].

ولا لزوم لتفصيل فعالياتهم في العصر البويهي ويكفي التنبيه إلى بعض النقاط الهامة.

هناك ما يدل على وجود العباسيين والعلويين بين العيارين في هذه الفترة، وهذا يلقي الضوء على الوضع الاجتماعي ويدل على تدهور مركز هؤلاء الأشراف بعد سيادة البويهيين[(١٨٩)].

ولم يصل تكتل العيارين غايته بعدُ؛ فإننا نجدهم يتأثرون بالروح المذهبية فينقسمون على أنفسهم، إذ ترى بينهم العيارين الشيعة والعيارين السُنّة.

وقد زادت فعالياتهم منذ الربع الأخير للقرن الرابع الهجري واستمرت قوية حتى نهاية العصر البويهي. ومن أبرز متقدميهم البرجمي الذي استطاع أن يكسف السلطان وأن يستبد ببغداد مدة خمس سنوات (٤٢١ ـ ٤٢٥ هـ). وبلغ من عجز الحكومة تجاهه أن «العوام ثارت بجامع الرصافة ورجموا الخطيب وقالوا: إن خطبت

---

(١٨٣) التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ج ٢، ص ١٠٨.

(١٨٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٦.

(١٨٥) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٨، ص ٤٩.

(١٨٦) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٧٨.

(١٨٧) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٢٠٦.

(١٨٨) انظر: القشيري، **الرسالة القشيرية في علم التصوف وعليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري**، ص ١١٣، والتنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ج ٢، ص ١٠٩.

(١٨٩) انظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٧، ص ٢٢٠.

للبرجمي وإلا فلا تخطب لخليفة ولا لملك»[190]. وتعهد سنة ٤٢٥ بحفظ الأمن فكان يجبي ضرائب الأسواق وارتفاع المواخير والقيان لنفسه[191].

وقد ركز العيارون هجماتهم على التجار والأسواق قبل كل شيء فهم ينهبون بضائعها ويفرضون الضرائب عليها[192]. واهتموا بمهاجمة دور المثرين والبارزين لنهبها أو لفرض الضرائب عليها[193]، وقضوا على الأمن في بغداد وأعجزوا الحكومة عن إخضاعهم[194]، فكان سكان بعض المحلات يهجرون محلاتهم ليتخلصوا منهم كما فعل قسم كبير من أهل الجانب الغربي سنة ٤٤١ هـ[195].

ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى حوادث القتل والحرب التي نتجت عن فتنهم فهي كثيرة. كما إن الفوضى التي نشروها عرقلت الأعمال الحضرية المفيدة وأعاقت حركة التجارة والصناعة. ومما زاد الوضع الاجتماعي تعاسة فوضى العوام (وهم جماعة بلا ثقافة ولا رأي منظم) وقوة النعرات المذهبية وتقع مسؤولية ذلك على البويهيين بالدرجة الأولى. والأمراء هم الذين جرّأوا العوام، فقد كانوا يستنجدون بهم في الأزمات؛ ففي سنة ٣٣٤ هـ استعان ابن شيرزاد بالعامة والعيارين لمحاربة معزّ الدولة[196]. وفي سنة ٣٦١، استنفر سبكتكين العامة ـ بأمر من بختيار ـ لمحاربة البيزنطيين، «فثار من العامة عدد كثير بأصناف السلاح والسيوف والرماح والقسي حتى استعظم ما شاهده منهم»[197].

وزاد في تجرؤ العوام سياسة البويهيين المذهبية، وكان ذلك ـ كما يظهر ـ لغرض سياسي وهو تكوين حزب من الشعب يناصرهم. وخير دليل على ذلك هو أن معزّ الدولة (واضع هذه السياسة) لم يبايع لخليفة علوي خوفاً من أن يفقد هيمنته. ولما لاحظ البويهيون سوء عاقبة تلك السياسة على سلطانهم تخلّوا عنها في أواخر القرن الرابع وضربوا الشيعة[198].

---

(١٩٠) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(١٩١) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٧٨.

(١٩٢) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٧٤ وج ٨ ص ٥٩ ـ ٦٠ و٧٨.

(١٩٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٥٩ ـ ٦٠، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٩، ص ١٠٥.

(١٩٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٤٩.

(١٩٥) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٢.

(١٩٦) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٤٩.

(١٩٧) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠٤، وابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٣٠٦.

(١٩٨) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٧١، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٧، ص ٢٢٠ و٢٥٢ ـ ٢٥٤.

قرّب معزّ الدولة الشيعة على حساب السُنّة ولعن الخلفاء الثلاثة الأول علناً»[199] . وأدخل السبايات وعمل يوم غدير خم عيداً رسمياً[200] . وبلغ من تطرفه أنه أمر بإطلاق جماعة يدينون بالحلول والتناسخ لأنهم أوهموه أنهم شيعة! ولم يجرؤ وزيره على التشدد معهم لئلا «ينسب إلى ترك التشيع فسكت عنهم»[201] .

إلا أن أصحاب السلطة في العصر البويهي لم يكونوا متفقين على هذه السياسة، بل كانوا ينقسمون إلى حزبين: حزب الأتراك ومن حولهم وهم يؤيدون السُنّة، وحزب الديلم وكانوا يؤيدون الشيعة. فجرّ ذلك أمر الويلات على البلاد. ففي سنة ٣٦٢ أحرق حاجب الوزير أبي الفضل محلة الكرخ حريقاً مريعاً لأنه كان شديد التعصب للسُنّة[202] . ولما ثار سبكتكين على بختيار سنة ٣٦٣، استغل السُنّة «فقود من رؤسائهم القواد وعرف العرفاء ونقب النقباء وحملهم على الدواب. . وصار له منهم جند»، بينما ثار الشيعة بجانب الديلم[203] . فهل نستغرب بعد ملاحظة هذه السياسة الاستغلالية أن تصبح الفتن المذهبية أمراً اعتيادياً وأن يُهلك أهل البلاد بعضهم البعض!

وكانت أول فتنة مذهبية كبيرة في ٣٤٨ هـ[204] . ثم توالت الفتن حتى نهاية العصر البويهي وكلفت العامة ثمناً مرهقاً في النفوس والأموال[205] .

ولم يعد في إمكان البويهيين إخماد نار العامة التي أشعلوها. فيبيّن المؤرخون مثلاً أن العوام بدل أن يسيروا إلى الغزو سنة ٣٦١ هـ اقترفوا في العاصمة نفسها أنواع الفظائع من قتل ونهب وتدمير وانتهاك حرمات «وعجز السلطان عن إصلاحهم وإطفاء ما أثار من ثائرتهم حتى صار ذلك سبباً لخراب بغداد»[206] . ويذكر ابن الأثير

---

(١٩٩) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٧٩.

(٢٠٠) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٨٤، يقول ابن الأثير: في عاشر المحرم أمر معزّ الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنواح ويلطمن وجوههن على الحسين.

(٢٠١) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٦٤.

(٢٠٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠٧.

(٢٠٣) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٣٢٤ وما بعدها، وابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٨.

(٢٠٤) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٧٦.

(٢٠٥) انظر: المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٨٤، ١٩٤، ٢٠٧ و٣١٠، وج ٩، ص ٥٤، ٦٢، ٧٤ و١٠٦؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٨ وج ٧، ص ١٧٤ و٢٣٧ ـ ٢٣٨، وابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٦.

(٢٠٦) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٦، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠٤.

في حوادث سنة ٣٨١ هـ: «وفيها كثرت الفتن بين العامة ببغداد وزالت هيبة السلطة وتكرر الحريق في المحال واستمر الفساد»[٢٠٧]. وساء الوضع إلى درجة أن صمصام الدولة أراد سنة ٤١٩ هـ أن يرسل نائباً عنه إلى العراق فقيل له: «العراق تحتاج إلى من فيه عسف» لكثرة الفتن فيه.

وكان للفوضى المركزية أثر في زيادة فعالية الأعراب وتنفذهم. فعاثت شيبان في الجزيرة حتى أخضعها عضد الدولة[٢٠٨]. ومنذ الربع الأخير للقرن الرابع استولت عقيل على منطقة الموصل وغرب الفرات، وبني أسد على منطقة الحِلّة، وتنفذت المنتفك وخفاجة في جنوب العراق، وكانت هذه القبائل في خصومات مستمرة نشرت الفوضى والخراب. كما أنها كانت تغزو المزارع والقرى والمدن وقد وصلوا في نهبهم سنة ٤٢٥ هـ حتى أطراف بغداد ولاقى الحجاج والتجار والفلاحون منهم الأمرّين[٢٠٩].

ويتضح من دراسة الوضع الاقتصادي في القرن الرابع[٢١٠]، أن الفتح البويهي نزل بسكان البلاد إلى مستوى الطبقة المتوسطة أو الواطئة. كما إن وارد الخليفة والوزير والموظفين المدنيين انخفض بينما زادت رواتب الجيش عما كانت عليه في العصر السابق.

وكذلك قلّت خدمات الدولة الاجتماعية في هذا العصر عن السابق إذ لا يوجد منها شيء حتى سنة ٣٦٧ هـ. فلما جاء عضد الدولة عمّر المساجد وفرض الأرزاق للقوام والمؤذنين والأئمة فيها وأقام الجرايات لمن يأوي إليها من الغرباء والضعفاء[٢١١]، وأرسل الصلات لأهل المدينة وأخرج الصدقات لأهل الحاجة من المسلمين والذميين. وكان يرسل كثيراً من المال ـ في افتتاح السنة المالية ـ إلى العمال في النواحي، ليقوم القضاة والوجوه هناك بتوزيعها على ذوي الحاجة والمسكنة[٢١٢]، وأذن لوزيره المسيحي نصر بن هارون «في عمارة البيع والأديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم»[٢١٣]. ولكن هذه

---

(٢٠٧) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٠٦.

(٢٠٨) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٢٠٩) انظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٦٠ وج ٨، ص ٨٤، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٤٤، ٤٨، ٨١ و٨٤.

(٢١٠) Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century».

(٢١١) ابن مسكويه، **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٢١٢) الروذاوري، **ذيل تاريخ ابن مسكويه**، ص ٦٦.

(٢١٣) ابن مسكويه، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

الخدمات على أهميتها، زالت بوفاته. وأهم أعماله إنشاء البيمارستان العضدي في الجانب الغربي بجوار بقايا قصر الخلد، وخصص له حوالى مئة ألف دينار سنوياً، ونقل له أنواع الآلات والأدوية من كل ناحية وعيّن له أربعاً وعشرين طبيباً مشهورين. وأصبح المستشفى كلية يؤمها الطالب ويدرس فيها أشهر الأطباء(٢١٤).

وأخيراً نذكر أن أبا الحسن الرخجي (وزير مشرف الدولة) بنى سنة ٤١٣ هـ مارستاناً في واسط أكثر فيه من الأدوية والأشربة ورتب له الخزان والأطباء ووقف عليه الوقوف الكثيرة(٢١٥).

ومن هذا نستطيع أن نقول إن الخدمات الاجتماعية كانت ضئيلة في العصر البويهي.

ولا محل هنا لوصف الزيادات في الضرائب ثم الضرائب الإضافية التي أدخلها البويهيون ويكفي أن نقول إنها كانت كثيرة ومرهقة(٢١٦).

وهكذا نرى تدهور الوضع المالي في العراق وانحطاط مستوى المعيشة وانتشار الفوضى وتأخر الإنتاج، فلا غرابة في قول المقدسي يصف الوضع: «إنه (أي العراق) بيت الفتن والغلا، وهو في كل يوم إلى وراء، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء، مع ثمار قليلة وفواحش كثيرة ومؤن ثقيلة»(٢١٧).

(٢١٤) الروذاوري، المصدر نفسه، ص ٦٩، و Guy Le Strange, *Baghdad during the Abbasi Caliphate from Contemporary Arabic and Persian Sources* (Oxford: Clarendon Press, 1900), p. 165.

(٢١٥) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٩، ص ١١٣.

(٢١٦) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٤، والروذاوري، المصدر نفسه، ص ٧١.

(٢١٧) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ١١٣.

المراجـــع

١ ـ العربيــة

كتــب

ابن أبي الفضائل، محمد بن مالك. **كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة**. تقديم محمد زاهد بن الحسن الكونري؛ نشره عزت البيطار. القاهرة: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٩٣٩.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد. **تاريخ الكامل**. القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٠هـ/[١٨٧٣ م]. ١٢ ج.

ــــ. **الكامل في التاريخ**. [تحقيق كارلوس يوهانس تورنبرغ]. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٥١-١٨٧١. ١٢ ج.

ابن الإخوة، ضياء الدين محمد بن محمد. **معالم القربة في أحكام الحسبة**. عني بنقله وتصحيحه روبن ليفي. كمبردج: مطبعة دار الفنون، ١٩٣٧.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. **تلبيس ابليس**. عني بنشره للمرة الثانية محمد منير الدمشقي. القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٢٨.

ــــ. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧-١٣٥٨ هـ/[١٩٣٨-١٩٣٩]. ١٠ ج.

ابن حسول، أبو العلاء محمد بن علي. **تفضيل الأتراك على سائر الأجناد**. باعتناء عباس العزاوي. استانبول: [د. ن.]، ١٩٤٠.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد. **كتاب صورة الأرض**. باعتناء كرامرز. طبعة جديدة. ليدن: [د. ن.]، ١٩٣٨. ٢ ج.

ابن حيون، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور التميمي. **رسالة افتتاح الدعوة (رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية)**. تحقيق وداد القاضي. بيروت: [دار الثقافة]، ١٩٧٠.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. **كتاب المسالك والممالك**. باعتناء ميخائيل جان دوغويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦)

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**. القاهرة: الحلبي، ١٣١٠هـ/[١٨٩٢م]. ٢ ج.

ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا. **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**. القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م].

ابن طيفور، أبو الفضل أحمد الخراساني. **كتاب بغداد**. باعتناء كيلر. ليبزج: [د. ن.]، ١٩٠٨.

ابن العبري، أبو الفرج يوحنا غريغوريوس. **تاريخ مختصر الدول**. وقف على طبعه الأب أنطون صالحاني. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠.

ابن الفقيه الهمذاني، أحمد بن حمد. **مختصر كتاب البلدان**. ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٥)

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة**. [تحقيق] محمد بدر الدين النعساني. القاهرة: جمالي وخانجي، ١٣٢٣هـ/ [١٩٠٥].

ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد. **تجارب الأمم: مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه**. وقد اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ. ف. آمدروز. القاهرة؛ أكسفورد: [د. ن.]، ١٩٢٠-١٩٢١. ٧ ج.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق. **الفهرست**. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨ هـ/[١٩٢٩م].

أبو الصابئ، الحسين هلال بن المحسن. **رسائل الصابي**. [اعتنى برسائل الجزء الأول شكيب أرسلان]. بعبدا، لبنان: [د. ن.]، ١٨٩٨.

أخبار بني العباس. مخطوط في مكتبة مسجد الإمام أبي حنيفة.

أخبار القرامطة في الإحساء، الشام، العراق، اليمن. تصنيف ثابت بن سنان؛ جمع وتحقيق ودراسة سهيل زكار. دمشق: عبد الهادي حرصوني، ١٩٨٢.

إخوان الصفا. **رسائل اخوان الصفا**. باعتناء الزركلي. القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٢٨. ٤ ج في ٢.

أربعة كتب إسماعيلية منقولة عن النسخة الخطية ٧٥ هـ المحفوظة في مكتبة امبروسيانة ميلانو. عني بتصحيحها ر. شتروطمان. غوتينغن: المجمع العلمي، ١٩٤٣

الأربلي، عبد الرحمن سنبط. **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**. بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥.

الأزدي، محمد بن أحمد أبي المطهر. **حكاية أبي القاسم البغدادي**. باعتناء متز. هيدلبرج: مطبعة كرل ونتر، ١٩٠٢.

الأسفراييني، أبو المظفر طاهر بن محمد. **التبصر في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين**. باعتناء عزت البيطار. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٤٠.

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**. تصحيح هـ. ريتر. استانبول: [د. ن.]، ١٩٣٠. ٢ ج.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. **الأغاني**. القاهرة: الساسي، [د. ت.].

الأصفهاني، حمزة بن الحسن. **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**. بيروت: دار مكتبة الحياة، [١٩-؟].

براون، إدوارد غرانفيل. **تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي**. نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربي. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٤.

البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر. **الفرق بين الفرق**. حقق أصوله، وفصله، وضبط مشكله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة: مكتبة المعارف، ١٩١٠.

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد. **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*. تحقيق إدوارد ساخو. ليبزج: [د. ن.، ١٨٧٨].

ــــــ. **الجماهير في معرفة الجوهر**. باعتناء ف. كرنكو. حيدر آباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٥هـ/ [١٩٣٦م].

التنوخي، أبو علي المحسن بن علي. **الفرج بعد الشدة**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٨. ٢ ج.

ــــــ. **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**. باعتناء مرغليوث. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣١.

جوزي، بندلي. **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام**. القدس: [د. ن.]، ١٩٢٨.

حدود العالم من المشرق إلى المغرب. طهران: دانكشاه طهران، ١٣٤٠هـ/ ١٩٦٢م.

خسرو، ناصر. **سفر نامة**. نقله إلى العربية وعلق عليه يحيى الخشاب. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥. (جامعة فؤاد الأول، كلية الآداب؛ ١)

الخضري، محمد. **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٨. ٣ج.

ج ٣: **الدولة العباسية**.

الخطيب الغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**. باعتناء سالمون. باريس: [د. ن.]، ١٩٠٤.

دائرة المعارف الإسلامية.

الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك. **كنز الدرر وجامع الغرر**. تحرير هانس روبرت رويمر. القاهرة: سامي الخانجي، ١٩٦٠-١٩٨٢. ٦ ج.

الدوري، عبد العزيز. **دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥.

ـــــ. **العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**. بغداد: [د. ن.]، ١٩٤٥.

ـــــ. ـــــ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦. (سلسلة الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري؛ ٣)

الديلمي، محمد بن الحسن. **بيان مذهب الباطنية وبطلانه- منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد**. عني بتصحيحه ر. شتروطمان. استانبول: مطبعة الدولة، ١٩٣٨. (النشرات الإسلامية؛ ١١)

الروذاوري، أبو شجاع محمد بن الحسين. **ذيل تاريخ ابن مسكويه**. نشره هـ. ف. آمدروز. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٢١.

زيدان، جرجي. **تاريخ التمدن الإسلامي**. القاهرة: دار الهلال، ١٩١٨. ٥ ج.

سيد أمير علي، مولاوي. **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي**. نقله إلى العربية رياض رأفت. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، [١٩٣٨].

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأئمة من عهد أبي بكر الصديق إلى عهد المؤلف سنة ٩١١ هـ**. القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٥١هـ/[١٩٣٢م].

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل**. القاهرة: المطبعة الأدبية، ١٣١٧-١٣٢١هـ/[١٨٩٩-١٩٠٣م]. ٥ ج.

ـــــ. ـــــ. باعتناء غويرتن. ليبزج: [د. ن.]، ١٩٢٣. ٢ ج.

الصابي، إبراهيم بن هلال. **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** = *The Historical Remains of Hilal al- Sabi* : **ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ له**. [حرره مع ملاحظات ومفردات هـ. ف. آمدروز]. بيروت: مطبعة الأدباء الكاثوليكيين، ١٩٠٤.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**. القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م. ١٣ ج في ٥.

عبدان، القرمطي. **شجرة اليقين**. تحقيق عارف تامر. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢.

عريب بن سعد الكاتب القرطبي. **صلة تاريخ الطبري**. تحرير ميخائيل دوغويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٧.

عماد الدين، ادريس. **عيون الأخبار وفنون الآثار**. تقديم وتحقيق مصطفى غالب. بيروت: دار التراث الفاطمي، ١٩٧٣-١٩٨٤. (سلسلة التراث الفاطمي؛ ١٠)

عنان، محمد عبد الله. **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية**. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد **فضائح الباطنية**. [تحرير اغناس غولدتسهير]. ليدن: مطبعة بريل، ١٩١٦.

فلهاوزن، يوليوس. **الدولة العربية وسقوطها**. نقله إلى العربية يوسف العش. دمشق: مطبعة الجامعة السوريا، ١٩٥٦.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج. **الخراج وصناعة الكتابة**. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦)

القرماني، أبو العباس أحمد بن يوسف. **أخبار الدول وآثار الأول**.

القشيري، عبد الكريم بن هوازن. **الرسالة القشيرية في علم التصوف وعليها هوامش من شرح زكريا الأنصاري**. القاهرة: البابي، ١٩٤٠.

القمي، سعد بن عبد الله الأشعري. **المقالات والفرق**.

الكشي، أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز. **اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي**. تصحيح وتعليق ميراماد الاسترابادي؛ تحقيق مهدي الرجائي. طهران: [د. ن.]، ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م. ٢ ج.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. **الأحكام السلطانية**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٠٩.

متز، آدم. **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**. نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠- ١٩٤١. ٢ ج.

المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي. **بحار الأنوار**. تبريز: [د. ن.]، ١٨٩٨. ٢٠ ج في ١٦.

المخزومي، محمد سراج الدين. **صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية**. [نيودلهي]: مطبعة نخبة الأخبار، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. **التنبيه والإشراف**. عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوي. القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨.

ـــــ. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. النص العربي مع الترجمة الفرنسية بقلم ك. باربيه دو مينار وبافيه دو كورتبي. باريس: المطبعة العسكرية الامبراطورية، [١٨٦١-١٨٧٦]. ٩ ج.

ـــــ. ـــــ. راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨. ٤ ج.

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. حققه ميخائيل جان دوغويه. ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٧٦. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٣)

المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي. **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**. تحرير جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨-١٩٧٣. ٣ ج. (مكتبة المقريزي الصغيرة؛ ٢)

ـــــ. **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**. القاهرة: مكتبة المليجي، ١٣٢٤-١٣٢٦ هـ/ [١٩٠٦- ١٩٠٨م]. ٥ ج.

نظام الملك، قوام الدين أبو علي الحسن بن علي. **سياست نامة، أو، سير الملوك**. ترجمة يوسف حسين بكار. ط ٢ مزيدة ومنقحة. الدوحة: دار الثقافة، ١٩٨٧.

النهرواني، قطب الدين محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود. **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**. [د. م.]: المطبعة الخيرية، ١٨٨٧.

النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى. **فرق الشيعة**. عني بتصحيحه هـ. ريتر. النجف: [د. ن.]، ١٩٣٦.

النويري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب. **نهاية الأرب في فنون الأدب**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥-١٩٩٢. ٢٣ ج.

النيسابوري، أحمد بن إبراهيم. **استتار الإمام**.

الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد. **اخوان الصفا**.

ـــــ. **نسب الخلفاء الفاطميين**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٥٨.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله. **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء**. [تحقيق] د. ص. مرغليوث. القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣-١٩٢٦. ٤ ج. (سلسلة و. ج. التذكارية؛ ج ٦)

ـــــ. **معجم الأدباء**. نشره مرغليوث. ليدن: [مطبعة بريل]، ١٩٠٧-١٩٢٧. ٧ ج.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. **البلدان**. باعتناء ميخائيل جان دوغويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٧)

ـــــ. **تاريخ اليعقوبي**. النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م. ٣ج في ١.

دوريـات

الدوري، عبد العزيز. «الجهبذة والصيرفة في العراق في القرن الرابع الهجري.» **القضاء**: السنة ٢، العدد ٥، ١٩٤٣.

لويس، برنارد. «النقابات الإسلامية.» **الرسالة المصرية**: الأعداد ٣٥٥-٣٦٢، ١٩٤٠.

«مذكرات عن حركة المهدي الفاطمي: نصوص إسماعيلية.» **الآداب** (جامعة القاهرة): مج ٤، ج ٢، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٦.

٢ ـ الأجنبية

Books

Ali, Syed Ameer. *A Short History of the Saracens; Being a Concise Account of the Rise and Decline of the Saracenic Power and of the Economic Social and Intellectual Development of the Arab Nation from the Earliest Times to the Destruction of Baghdad, and the Expulsion of the Moors from Spain*. London: Macmillan, 1934.

Barthold, W. *Mussulman Culture*. Translated from the Russian by Shahid Suhrawardy; With a foreword by Hassan Suhrawardy. [Calcutta]: University of Calcutta, 1934.

_____. *Turkestan down to the Mongol Invasion*. Translated from the Original Russian and revised by the author with the assistance of H.A.R. Gibb. 2nd ed. London: Luzac and Co., 1928. (E.J.W. Gibb Memorial Series, New Series; V)

Bowen, Harold. *The Life and Times of «Ali Ibn Isà», «the Good Vizier»*. Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1928.

Browne, Edward Granville. *Literary History of Persia*. Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1928 -. 4 vols.

Vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*.

Casanova, Paul. *La Doctrine secrete des fatimides d'Egypte*. Le Caire: Imprimerie de l'institut français d'archeologie orientale, 1910.

Daftary, Farhad. *The Ismailis: Their History and Doctrines*. New York; Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1990.

De Goeje, M. J. *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides*. Leiden: E. J. Brill, 1896.

Encyclopedia of Islam.

Encyclopedia of Social Sciences.

Halm, Heinz. *The Empire of the Mahdi: The Rise of the Fatimids*. Translated from the German by Michael Bonner. Leiden; New York: E. J. Brill, 1996. (Handbunch der Orientalistik, Erste Abteilung, Nahe und der Mittlere Osten; Bd. 26 = Handbook of Oriental Studies, the Near and Middle East)

Al-Hamdani, H. F. *On the Genealogy of Fatimid Caliphs*. Cairo: [n. pb.], 1958.

Ivanow, Wladimir. *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*. Calcutta: [n. pb.], 1942.

Hudud Al-Alam, «the Regions of the World». Translated and compiled by V. Minorsky. London: Luzac and Co., 1937.

Lane-Poole, Stanley. *The Mohammedan Dynasties: Chronological and Genealogical Tables with Historical Introductions*. Westminster: A. Constable and Company, 1894.

Levy, Reuben. *Baghdad Chronicle*. Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, 1929.

Lewis, Bernard. *The Origins of Ismailism; a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*. Cambridge, [Eng.]: W. Heffer, [1940].

Massignon, Louis. *La Passion d'Al-Hosayn-Ibn-Mansour, Al-Halladj, martyr mystique de l'islam, execute à Baghdad, le 26 mars 1922, étude d'histoire religieuse*. Paris: P. Geuthner, 1922. 2 vols.

Minorsky, V. *La Domination des dailamites*. Paris: [s. n.], 1932.

Muir, William. *The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall: From Original Sources*. New and rev. ed. by T. H. Weir. Edinburgh: J. Grant, 1924.

Nicholson, Reynold A. *A Literary History of the Arabs*. 2nd ed. Cambridge, [Eng.]: Cambridge University Press, [1930].

Nöldeke, Theodor. *Sketches from Eastern History*. Tr. by John Sutherland Black. London; Edinburgh: A. and C. Black, 1892.

Siddiqi, Amir Hasan. *Caliphate and Kingship in Medieval Persia*. Lahore: Shaikh Muhammed Ashraf, 1942.

Silvestre de Sacy, Antoine Isaac. *Exposé de la religion des Druzes, tire des livres religieux de cette secte, et précédé d'une introduction et de la vie du Khalife Hakem-biamr-Allah*. Paris: L'Imprimerie, 1838. 2 vols.

Le Strange, Guy. *Baghdad during the Abbasi Caliphate from Contemporary Arabic and Persian Sources*. Oxford: Clarendon Press, 1900.

Tritton, Arthur Stanley. *The Caliphs and Their Non-Muslim Subjects*. London: Oxford University Press, 1930.

Periodicals

Abbot, Nabia. «Arabic Papyri on the Reign of Gafar Al-Mutawakkil.» *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* (ZDMG): vol. 92, nos. 1-3, 1938.

Lewis, Bernard. «The Islamic Guilds.» *English Historical Review* [EHR]: vol. 8, no. 1, 1937.

Thesis

Duri, A. «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century.» Ph. D. Thesis, University of London, School of Oriental and African Studies, [n. d.].



فهـــــــرس

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ



هذا الكتاب

هذا هو المجلّد الرابع من سلسلة الأعمال الكاملة للمؤرّخ العربي الدكتور عبد العزيز الدوري التي يقدّمها مركز دراسات الوحدة العربية.

وكان قد أصدر المجلّد الأوّل في حزيران/ يونيو ٢٠٠٥ بعنوان «مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام»، والمجلّد الثاني في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥ بعنوان «نشأة علم التاريخ عند العرب»، والمجلّد الثالث في تموز/ يوليو ٢٠٠٦ بعنوان «العصر العباسي الأول ـ دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي».

أمّا المجلّد الذي بين أيدينا، «دراسات في العصور العباسيّة المتأخّرة» فيدرس المؤلف الدولة العباسيّة في مرحلة ضعفها وانحدارها، ويقول «. . . تناولنا في هذا الكتاب صفحات من تاريخهم، في أدوار ضعفهم السياسي (أي العباسيين). . . وقد جزّأنا البحث إلى مواضيع منفردة، ولكنّنا نشعر بضرورة إعطاء نظرة شاملة لتوضيح مجرى التطوّر في هذه الفترة الطويلة (٢٢٧-٤٤٧ هـ) لنبيّن أنّ وراء حوادثها المشتّتة سلسلة مترابطة من الاتجاهات والتيارات، فالنظرات الشاملة لها أهمية خاصة في الدراسات الحديثة في التاريخ. . .».

هذه النظرة الشاملة حرص عليها الدكتور عبد العزيز الدوري في كل أعماله، مطبقاً بذلك مقولته: «لا تكفي دراسة جزء من المجتمع دون جزء، لأن أجزاءه قد تكون متلائمة متكاتفة تسير في اتجاه واحد، أو متنافرة متضاربة، فتتعدّد فيه التيارات وتتصادم القوى ويتبع ذلك تطوّرات بعيدة المدى. . .».

الطبعة الثانية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web site: http://www.caus.org.lb

الثمن: ٩ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN 978-9953-82-361-4

